مكتب الترجمة الاسبانية العربية

فرنسيسكو دي كيبيدو

سيرة الشاطر

1950

مطبعـــة المخـزن

تطـوان

سيرة الشطار
في
الأدب الإسباني

تحتل قصص الشطار في أدب العصر الذهبي الإسباني مكانة رفيعة وهي تؤلف وحدها فرعاً أبدع فيه كتاب ذلك العصر أيما إبداع حتى تكونت من مؤلفاتهم هذه مجموعة أدبية رائعة تمثل فيما بعد مدرسة خاصة أثارها مؤرخو الأدب الإسباني من إسبانيين وأجانب كبير اهتمامهم وخصوها بأبحاث ودراسات مستفيضة ولكن يمكن أن نفكر بوضع بحث واسع حول هذه الظاهرة من الأدب الإسباني لكننا آثرنا من توجيه عناية

ان نقدم لهذا الكتاب الذي ننشره الان معربـا بكلمة وان موجزة عـن قصص الشطار ليدرك القارئ مكانة الكتاب ادبيا وتاريخيا

وأول واجب علينا هو تحديد معنى كلمة الشاطر Picaro . ان الشاطر لشخص يعيش على هامش المجتمع ويكره العمل والنظام ويعشق الكسل والفوضى في الحياة، لا يحترف حرفة ولا يمتهن مهنة وانما يمد يده الى اللقمة حيث يجدها قانعا بما يسد رمقه دون اجهاد نفسه بعمل مثمر مضنك. اما مشاكل المجتمع الذي يحيط به وأهدافه ومطامعه فهو يعتبرها لا تمت اليه بصلة . فبينمـا الناس في كفاح مستميت للحصول على الرفعة والمجد وبينما المجتمع يسعى بارادة حديدية وعزم اكيد وراء مثل اعلى اذا بالشاطر ـ على حد تعبير المؤرخ الاستاذ دناث ملاخما ـ ممدد تحت نور الشمس متسائل بسخرية عما اذا كانت هذه الصفقة تستحق ان يخاطر المرء من اجلها هذه المخاطرة

وأول قصة من هذا النوع هي قصة «لاثاريو

دي طورمس واقدم طبعة لها معروفة ترجع الى سنة 1554. وهى حكاية صبي فقير اتخذه احد العميان دليلا (وكلمة لاثاريو معناها دليل الاعمى) وكان يسيء معاملته حتى انتهى به الامر الى تركه والانصراف الى خدمة كاهن وبعد ذلك الى خدمة نبيل معدم. وما زال ينتقل من خدمة سيد الى سيد آخر حتى نال في آخر الامر وظيفة دلال في اسواق طليطلة وفيها تزوج بخادمة احد الكهنة. وهنا تنتهي القصة.

وتمتاز قصة لاثاريو دى طورميس بسهولة انشائها ودقة تصويراتها وسيطرة روح المرح عليها رغم بعض المشاهد المؤلمة. لكنها بعيدة كل البعد عن ذلك العمق التحليلي الذى نشاهد في القصص التي جاءت بعدها حين بلغ هذا الفن درجة نضوجه التامة. وهي بالاجمال تدل على ان فن قصص الشطار لم يزل في فجره. لكنه فجر يبشر بنهار جلي.

وفي سنة 1620 ظهرت في باريس تتمة القصة

تحت عنوان: «القسم الثاني من قصة لاثاريو دى طورميس» لترجمان اللغة الاسبانية ه. دى لونا H. de Luna لكن المؤلف خرج فيه عن اسلوب القسم الاول وحشاه بالمشاهد الخلاعية التي يندى الجبين لطالعتها أما من الناحية الفنية فيفوق القسم الاول.

والان لا بد لنا ان نقف للتساؤل عن أصل هذا الفن الادبي وعلاقته الحقيقية بالمجتمع الاسباني المعاصر لنموه. فهي والحق يقال من المسائل التى اعارها الباحثة عظيم العناية وتضاربت حولها آراء مؤرخي الادب. ولقد اراد بعض النقاد ومعظمهم من الاجانب وممن يبغون النيل من اسبانيا وهي في ابان مجدها ان يروا في قصص الشطار تصويرا للمجتمع الاسباني في ذلك العصر ليستنتجوا من هذا التصوير ان مستوى المعيشة في اسبانيا كان منحطا وان الفقر كان يخيم على طبقاتها الشعبية وان عدد المتسولين الطفوليين كان وافرا. لكن الابحاث الصادقة قد دلت على خلاف ذلك وقدمت البراهين

الدامغة على ان مستوى المعيشة الشعبية في ذلك العهد لم يكن منحطا كما قد يستنتج من بعض مشاهد قصص الشطار. وانما تصور هذه في حقيقة الامر سلسلة حوادث فردية شخصية من حياة مؤلفيها اضفيت عليها حلة فكاهية بولغ في نسجها.

بقي علينا أن نتساءل: هل استمدت قصص الشطار أصلها من آثار أدبية سابقة؟ ان مؤرخي الادب يجمعون على القول انها وليدة القرن السادس عشر. لكنه اصبح من المحقق اليوم أن الاجيال المرتجلة، مستحيلة في عالم الادب مثله في عالم الاحياء. ولذلك تراهم بالرغم عن اجماعهم على القول المذكور يردون بعض أصولها الى قصص الفروسية والى بضعة كتب أخرى اسبانية وأجنبية ظهرت بين أوائل القرن الرابع عشر ومنتصف السادس عشر من أهمها، كتاب الحب الحسن للارثيبريستي دي هيتا Arcipreste de Hita و كورباتشو أو شجب الحب الدنيوي، للارثيبريستي دي طلبيرة Arcipreste de Talavera وكتاب سيبال

Spill للمؤلف البلنسي جاومي رويج Jaume Roig والرواية الشهيرة المعروفة باسم « لا ثيلستينا ». ففي كل هذه المؤلفات مشاهد وفلتات تصويرية ومرح وفكاهة يمكن اعتبارها من جملة الاصول التي استوحى منها مؤلفو قصص الشطار.

ويرى المستعرب الاسباني المرحوم ضوث انخيل غونصالبص بالنثيا في مقامات الحريري مصدرا محتملا من جملة مصادر قصص الشطار. فحيل ابي زيد السروجي في نظره هي نفس الحيل التي يلجأ اليها أبطال تلك القصص للحصول على اسباب العيش. وكلامه عن فن الكدية في المقامة الساسانية مثلا جدير بأي كان من هؤلاء الشطار. ويقول غونصالبص بالنثيا انه وان كان الالمام بالعربية في اسبانيا حين ظهرت قصص الشطار كان قد ضعف أو كاد يتلاشى بحيث لا يمكن الاعتقاد بالاطلاع على مقامات الحريرى في أصلها العربي ليس من المستبعد أن تكون حوادث أبي زيد السروجي قد أصبحت متداولة بين العامة

من جملة القصص الشعبية بعد أن بلغت تلك المقامات الاندلس وتداولتها أيدي أدبائها وشرحها الشريشي أوفى شرح

هذا واننا في واقع الامر ان بحثنا في الادب العربي وجدنا كثيرا من قصص الشطار المبعثرة في المجموعات الادبية . وفي كتاب البخلاء للجاحظ يشار الى الشطار عدة مرات. ففي مطلع الكتاب يقول انه وضع رسالة عن « لصوص النهار وما لصوص النهار في الواقع سوى الشطار بالمعنى المقصود هنا والذي نراه في القصص الاسبانية. وفي مكان آخر يسرد لنا الجاحظ عدة أسماء فارسية الاصل لطبقات من الناس لبسوا في الحقيقة سوى من نشير اليهم تحت اسم الشطار، اذ يقول في حديث خالد بن يزيد حين سأله بنو تميم وكان قد نزل في شق منهم : وانك لتعرف المكدين: فأجاب: «وكيف لا اعرفهم وانا كنت كاخان في حداثة سني ثم لم يبق في الارض مخطراني ولا مستعرض الاقفية ولا شحاذ ولا كاغاني ولا بانوان

ولا قرسى ولا عوا ولا مشعب ولا مزيدى ولا اسطيل الا وقد كان تحت يدى، وبعد ان يفرغ الجاحظ من سرد القصة يشرع بتفسير معانى تلك الكلمات فيقول:

المخطراني الذي يأتيك في زى ناسك ويريك ان نابك قد قور لسانه من اصله لأنه كان مؤذنا هناك ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب فلا ترى له لسانا البتة ولسانه في الحقيقة كلسان الثور وانا احد من خدع بذلك ولا بد للمخطراني ان تكون معه واحد يعبر عنه او لوح او قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته. والكاغاني الذي يتجنن ويزبد حتى لا تشك انه مجنون لا دواء له لشدة ما ينزل بنفسه وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته. والبانوان الذي يقف على الباب ويسل الغلق ويقول بانوا وتفسير ذلك بالعربية يامولاى. والقرسى الذي يعصب ساقه وذراعه عصبا شديدا ويبيت على ذلك ليلة فاذا تورم واختنق الدم مسحه بشيء من صابون ودم الاخوين وقطر عليه شيئا

من سمن واطبق عليه خرقة وكشف بعضه فلا يشك من رآه ان به الاكلة او بلية شبه الاكلة والمشعب الذى يحتال للصبى حين يلد بان يعميه او يجعله اعشم او اعضد ليسأل الناس به اهله وربما جاءت به امه وأبوه ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل لانه يصير حينئذ عقدة وغلة فاما ان يكتسبا به واما ان يكرياه بكراء معلوم وربما اكروا اولادهم ممن يمضي الى افريقية فيسأل بهم الطريق اجمع بالمال العظيم فان كان ثقة مليئا والا أقام بالاولاد والاجرة كفيلا. والكاغان الغلام المكدي اذا واجر وكان عليه مسحة جمال والعواء الذي يسأل بين المغرب والعشاء وربما طرب ان كان له صوت حسن وحلق شجي. والاسطيل هو المتعامى ان شاء اراك انه منخسف العينين وان شاء اراك بهما ماء وان شاء اراك انه لا يبصر للخسف ولريح السبل والمزيدي الذي يدور ومعه الدريهمات ويقول هذه دراهم قد جمعت لي في ثمن قطيفة فزيدوني فيها رحمكم الله وربما احتمل صبيا على أنه لقيط

وربما طلب في الكفن. والمستعرض الذي يعارضك وهو ذو هيئة وفي ثياب صالحة وكأنه قد هاب من الحياء ويخاف ان يراه معرفة ثم يعترضك اعتراضا ويكلمك خفيا. والمقدس الذي يقف على الميت يسأل في كفنه ويقف في طريق مكة على الحمار الميت والبعير الميت يدعي انه كان له ويزعم انه قد احصر وقد تعلم لغة الخراسانية واليمانية والافريقية ونعرف تلك المدن والسكك والرجال وهو متى شاء كان من اى مخاليف اليمن شاء. والمكدى صاحب الكداء».

وانما أردنا هنا مجرد الاشارة فحسب دون أن نتجرأ على تأكيد وجود علاقة بين مؤلفات الجاحظ هذه وغيرها من القصص وهذا النوع من الادب الاسباني. ونحن نرجو ان وفق الله أن نعود الى بحث هذا الموضوع في المستقبل.

• • •

مرت خمسة عقود وقصة «لاثاريو دى طورميس» وحيدة من نوعها الى أن ظهر سنة 1599 القسم الاول من قصة «قزمان دى الفراتشى

التي سماها مؤلفها ماتيو ألمان مرصد الحياة البشرية ، وتقع هذه القصة في مجلد ضخم وهي تعتبر أنضج ثمرة لهذا النوع الادبي واكملها فنا. لكن الكآبة تغلب فيها المرح والمرارة ترافق الفكاهة والتشاؤم يسيطر على التحليل النفساني والاجتماعي.

وفي سنة 1605 ظهرت قصة الناظرة جوستينا منسوبة لفرنسيسكو لوبث دي اوبيدا. وفي سنة 1613 أصدر سرفانطيس مجموعة القصص المثلى وقد تضمنت بضع قصص يمكن ردها الى هذا النوع وهي السامحة المبتاة ، و رنكونيتي وكورتاديو و الزواج الخادع و ومناجاة الكلاب وهذه اهمها.

وقبل ذلك بسنة أي سنة 1612 ظهرت قصة ابنة لاثليستينا ومؤلفها الونصو خيرونيمو دي صلاص باربادبو. وفي سنة 1618 ظهرت قصة حياة ماركوس دي أوبريغون ، وهي تصور

كثيرا من الحوادث التي وقعت لمؤلفها بيثينطي اسبينيل. وتمتاز بدقة التصوير وعمق الملاحظة.

وفي سنة 1624 ظهرت قصة حياة الشاطر لفرنسيسكو دي كيبيدو التي ننشر هنا تعريبها. وهي الى جانب « الاحلام » تعتبر من اكمل مؤلفات ذلك الكاتب الشهير الذي يوضع في المقام الاول بين كتاب العصر الذهبي

والقصة صغيرة حجميا كما يرى القارئ وبالرغم عن صدورها مطبوعة سنة 1624 يرد المؤرخون تاريخ وضعها الى ما بين سنة 1601 و 1614 أي حين كان كيبيدو في شرخ شبابه. و« حياة الشاطر» قطعة فنية خالدة تمثل هذا النوع الادبي في أرقى وأكمل درجاته لانها تجمع الى روح المرح والفكاهة براعة في التصوير تؤدي بالمؤلف الى حد المبالغة في الوصف لاخراج الصورة الفكاهية على شكل يحمل الى نفس القارئ أوفر قدر من المتعة. والمرح يسيطر على القصة باكملها بحيث لا يرى فيها أثر للمرارة والالم اللذين يحتلان

المقام الاول في «قزمان دي الفرتشي». أضف الى هذا كله متانة في التركيب تكاد تبلغ في كثير من الاحيان درجة التعقيد. وكثيرا مـا يعمد الى التورية والتلاعب بالكلام بشكل يجعل مهمة المعرب شاقة عسيرة

وقبل ظهور القسم الثاني من قصة «لاثاريو دي طورميس» بسنة أي في سنة 1619 ظهرت في باريس أيضا قصة للدكتور كارلوس غرسيا عنوانها «اشتهاء مقتنى الغير». وهي وصف لحيل ومغامرات أحد اللصوص يرويها للمؤلف وهـو في السجن. وتسيطر عليها روح التهكم ممزوجة بالمرارة والالم.

وممن برعوا في هذا الفن الادبي ضـون الونصو دي كاسطيو سولورثانو الـذي نشر سنة 1632 قصة ظريفة تحت عنوان «فتاة الاكاذيب» تريزا دي مانثناريس» وفي سنة 1637 قصة «المأذون ترابانا».

وظهرت بعد ذلك خلال القرن السابع عشر عدة قصص اخرى نذكر منها خاصة «الشيطان الاعرج»

الكاتب الشاعر لويس بليث دي غيبارا و «حياة ضون غريغوريو غوادانيا لانطونيو انريكيث غوميث و حياة ومآثر اسبانيو غونصاليص التي ظهرت في مدينة ابيريس البلجيكية سنة 1646

وتعد «حياة الدكتور ضون دييغو دي طوريس بياروييل» التي بدأ ظهورها سنة 1743 خاتمة المؤلفات المنسبة الى هذا النوع في اسبانيا

وبالجملة يمكن القول ان قصص الشطار من ابرز الآثار الادبية الاسبانية واغناها واكملها فنا. وقد تعدت شهرتها حدود اسبانيا فنقل معظمها الى كثير من اللغات الاجنبية واسترعت منذ زمن بعيد اهتمام البحاثة والمؤرخين.

كيبيدو
1645 - 1580

يعد فرنسيسكو دي كيبيدو من أعظم كتاب العصر الذهبي الاسباني. ولد سنة 1580 وتلقى المبادئ الاولى في مدريد وفي سنة 1592 دخل مدرسة الاباء اليسوعيين حيث بقي اربع سنوات. ثم انتقل الى جامعة قلعة هناريس حيث بقي حتى سنة 1601 اذ انتقل الى بلد الوليد وهناك بدأت مؤلفاته تنتشر بين جميع الاوساط الادبية والشعبية رغما عن انخراطه في سلك طلاب جامعة تلك المدينة

وفي سنة 1606 عاد الى مدريد وفيها أقام حتى استقدمه الى صقلية سنة 1613 نائب الملك فيها الدوكي دي اوصونا الذي ألحقه بخدمته كمستشار خاص. فأدى له خدمات جليلة وقام بمهمات سياسية خطيرة دلت على مقدرته. ثم عاد الى مدريد سنة

1619 ووقعت بعد عودته قطيعة بينه وبين الدوق فانقطع عن خدمته.

وبعد مدة قربه اليه الوزير الكوندى اوليفاريس لكنه لم يلبث ان نقم عليه واغضب عليه ايضا الملك فأمر بزجه في السجن حيث بقي ما يربو على ثلاثة اعوام ولم يخرج منه الا بعد عزل الكوندي اوليفاريس. لكن صحته ساءت كثيرا بسبب ما عاناه من متاعب وتوفي يوم 8 سبتمبر (ايلول) سنة 1645

هذا واننا قد وضعنا تحت عنوان «كيبيدو أمير الظرافة» كتابا خاصا درسنا فيه حياته ومؤلفاته بكل تفصيل.

سيرة الشاطر ضون بابلوس

الى القارىء

كم أراك راغبا أيها القارئ او المستمع ـ اذ ان العميان لا يقرؤون ـ في التعرف الى طرافة ضون بابلوس أمير حماة الشطارة.

فانت واجد هنا في جميع انواع الشطارة ـ وهي في ظني ما يفضله الاكثرون ـ خدائع وحيلا وبدعا وطرفا كلها ناشئة عن الفراغ المنبثق من الكسل والكذب. وليس بقليل ما يمكنك ان تجنيه منه اذا أعرت العبرة انتباهك. وان لم تفعله فاستفد على الاقل مما فيه من مواعظ لانني اشك في ان واحدا من الناس يشتري كتاب نكت ليحيد به عما يحرص عليه طبعه الفاسد. وعلى كل حال فليكن ما تريد. صفق له فهو للتصفيق مستحق. واذا ضحكت من نكته فليكن

ثناؤك على ذكاء من يعرف كيف ان في الاطلاع على حياة الشطار ووصفها وصفا ظريفا من اللذة ما لبس في ابتكارات أخرى اعظم واهم.

اما المؤلف فانك تعرفه. والكتاب لست تجهله. فهو عندك، ان لم تكن قد تصفحته عند بائع الكتب، وذلك امر عليه ثقيل. ومن الواجب استئصاله بصرامة قصوى لان من الناس من يتطفلون على الكتب كتطفل غيرهم على الموائد. ومنهم من يطلعون على رواية بقراءتها نتفا نتفا في مرار مختلفة. ثم يرتقون اخيرا هذه القطع. وذلك لمن المؤسف حيث ان فاعله يتم دون ان تكلفه نميمه أي مال. وتلك دناءة زنيمة ونذالة لم يبلغها «فارس الكلابة» (1)

---

1) اشارة الى الكتاب الذي وضعه كيبدو تحت عنوان فارس الكلابة وهو مجموعة من

حفظك الله من الكتاب الشرير ومأموري القضاء (1) والمرأة الشقراء اللحوح المستديرة الوجه.

الرسائل ينصح كاتبها القارئ لصيانة جيبه من كل انواع الطفيليين والطفيليات

(1) استعملنا كلمة مأمور القضاء او المأمور القضائي لتعريب لفظة Alguacil وهي عربية الاصل مشتقة من كلمة الوزير. وفي التنظيم القضائي الحالي تدل على مأمور مكلف بابلاغ اوامر المحكمة .

الى ضون فرنسيسكو دي كيبيدو

من صديقه لوسيانــو (1)

اي ضون فرنسيسكو! بعيار واحد تزن الجد والهزل فتشير بنصائح صائبة وتجعل ضون بابلوس شاطرا في آن واحد.

---

1) اشارة الى المؤلف اليوناني لوسيانو، الذي عاش من سنة 191 الى 125 قبل المسيح. وبعد ان تعاطى المحاماة في انطاكية جال عدة بلدان ملقيا دروسا ومحاضرات في جميعها. وبعد عودته الى الشرق انصرف الى الادب. وامتاز بالادب اللاذع وترك اثنين وثمانين مؤلفا نثريا ومجموعة من الابيغرام التي نقلت الى معظم اللغات الحديثة وكان كيبيدو يحذو حذوه، ومنهم من دعود بلوسيانو اسبانيا.

اني لاعترف بانه سيكون والكلابة(1) تصحبه، شاطر (2) مثاليا. فحمله اياها لن يفوق الحديث عن حفظه : لا بل بالعكس فلو أنه سار بدونها لكان نعمة.

---

(2) اشارة الى الكتاب نفسه وهو «حياة الشاطر»
(1) اشارة الى كتاب المؤلف «فارس الكلابة»
وفي الاشارة هنا الى الكتابين تورية حسنة فظاهر الكلام معناه ان الشاطر اذا سار مصحوبا «بالكلابة» فتجارته ناجحة حتما وباطنه ان مؤلفه الجديد «حياة الشاطر» يكمل مؤلفه السابق «فارس الكلابة» فلا يضر أحدهما بالآخر ولا يحط من قدره

سيـرة الشـاطـر

المسمى ضون بابلوس

مثال العاطلين ومرءاة المحتالين

الفصل الاول

وفيه الكلام عن نسبه ومسقط رأسه

أنا يا صاح (1) من بلدة شقوبية. ومنها كان والدى ـ أودعه الله الجنة ـ واسمه كلمنتي بابلو وكانت حرفته الحجامة حسب قول الكل. غير انه

---

1) وضع المؤلف هذا الكتاب بصورة اعتراف يدلي به بطل القصة بعد اعتزاله حياة الشطارة. وهو اسلوب متبع في معظم قصص الشطار. وبالشكل نفسه تبدأ حكاية لازاريو وحكاية قزمان دى الفراتشي.

كان لسمو افكاره يأنف من ان يلقب حجاما فيقول انه حالم الوجنات وخياط اللحى. ويقال انه كان عرنقا في النسب وكانت سيرته تحمل على الاعتقاد بصحة هذا القول اما زوجته فهي الضونيا ساتورنو دي ريبوديو ابنة اوكتافيو دي ربيوبو كلوديو وحفيدة لبمديو ريوز كورتي

وكانت تحوم في البلدة ريبة حول عرق نسبها في الديانة المسيحية (2) بالرغم عن انها كانت تدعي بالنظر الى اسماء اجدادها التحدر من سلالة المثلث الروماني (3) وكانت بهية المنظر وانها نصوب أنظار المادحين بحيث لم يبق في اسبانيا واحد من شعراء الزجل الا وتغنى بها.

---

(2) كان الانتماء الى نسب عريق من اعز اماني الانسان في مطلع القرن السابع عشر. فادعاء العدد في الديانة المسيحية قد تكون حجة على الانتماء الى طبقة الاشراف

(3) اشارة الى المثلث الروماني الذي تألف من اوكتافيو ولبيدو وانطونيو

وعقيب زواجها منيت بانعاب كبيرة، وبعد ذلك أيضا لان ألسنة بذيئة كانت تتقول على ابي بان يده تمتد الى الجيوب، فقد ثبت عليه ان جميع من كان يحلق لهم اللحى بينما كان يرفع وجوههم الى المغسلة ليصب عليها الماء كانت يد اخي البالغ من العمر سبع سنوات تتسرب بخفة الى جيوبهم فتستخرج مخها. وقد توفي ذلك الملاك على اثر جلدات جلدها في السجن فحزن عليه والدي حزنا شديد، لانه كان يستولي على افئدة الجميع. ولهذه النزهات واخرى غيرها ادخل السجن ولكنني اخبرت فيما بعد انه غادره باصبع الصحيفة مصحوبا بمئتي حدرة (4) وان لم تكن واحدة منها ممن يشار اليها بلقب اللباقة. ويقال ان النساء كن يطللن من النوافذ لبريه لانه كان حسن الطلعة

---

(4) أتى المؤلف هنا بتورية لا يمكن ترجمتها ومداره كلمة «كردينال» التي تعني «حدرة» وهو المقصود اولا وتعني أيضا الرتبة الكنسية المعروفة وهو المعنى المقصود ثانيا.

ان ماشيا وان راكبا. ولا اقول هذا متفاخرا فالكل يعلم كم انا عن المفاخرة بعيد. فانت ترى اذن ان امي لم تصب بكوارث. وذات يوم كانت تمدحها في محضري عجوز رصني فقالت انها كانت من اللطافة على جانب كبير فتسحر (5) كل من عاشرته. وقالت انها أفشت لها مرة بكلام عن تيس (6) وكاد ذلك يؤدي الى حملها على معاطاته علانية (7) واشتهرت بتجديد الغيبات وبعث الشعر

---

(5) يكرر المؤلف هنا التورية في كلمة سحر فيستعملها بالمعنى المجازي اي استمالة الارادة وبالمعنى الحقيقي اي معاطاة السحر وهو المقصود في الجملة التالية.

(6) كان التيس يعتبر رمزا للشيطان. وكانوا يرون ان الشيطان يتخذ شكل تيس حين يظهر للساحرات ليبجلنه

(7) المقصود انه اشتهر امرها بانها تتعاطى السحر. وكان تعاطيه في ذلك العهد من الجرائم الكبرى.

واخفاء الشيب. فالبعض كانوا يسمونها مرقعة للاذواق والاخرون جابرة للارادات المضطربة. وباسم سفيه يدعونها قوادة و «فلوش» (8) لدى الجميع. وكانت امي تستمع مبتسمة الى كل هذه الاقاويل فيزداد بذلك امتلاكها للخواطر والقلوب ولن اتوقف لاصف ما كانت تأتي به من امانة وكفارة. فغرفتها التي لم يكن ليدخلها سواها وانا ايضا ـ لان ذلك كان مباحا لي لصغر سني ـ كانت محاطة من داخلها بالجماجم. وعنها تقول انها لتذكيرها بالموت بينما البعض يقولون على وجه الذم أنها لممارسة السحر. وكان سريرها منصوبا على حبال المشانق وكانت تقول لي :

---

(8) «فلوش» Flux لفظة تستعمل في بعض انواع اللعب بالورق وتدل على اجتماع كل الاوراق التي هي من لون واحد ومن اجتمعت لديه كان هو الرابح. فقولهم Hacer flux «عمل فلوش» معناه مجازا ذهب بماله ومال غيره دون ان يدفع لاحد ما عليه

تأمل يا بني! اني بذكري هذه الحبال انصح حتى تنجو من الوقوع فيها بالعيش كمن يحمل ذقنه على كتفه (9) بحيث لا يمكن الاطلاع على عمالهم ولو بأصغر الدلائل. وقد وقع نزاع كبير بين والدي في تقرير اية واحدة من حرفتيهما يجب ان اتبع. أما انا — وقد ساورتني منذ صغري افكار السمو والشهامة — فلم اكن لاميل الى واحدة منهما وكان والدي يقول لي: يا بني ليست اللصوصية من الحرف اليدوية (10) بل العقلية وبعد ان يسكت قليلا يتنهد ثم يضم يديه ويتابع قائلا: ان من لا يسرق في هذه الدنيا لا يعيش

---

(9) - حمل ذقنه على كتفه، مثل اسباني قديم يقصد به العيش بحشمة واحتراس كما يفعل من له عدو فهو يمشي ملتفتا يمينا ويسارا.

(10) أتى المؤلف هنا بتورية في كلمة: mecanica التي يمكن تأويلها على وجهين «المشينة» و البدوية فالتأويل الاول هو المناسب لوصف اللصوص والتأويل الثاني هو المطلوب لمناقضة التعبير التالي.

ولماذا يكرهنا في ظنك الحكام ومأمورو القضاء بهذا المقدار فيقضون علينا بالنفى احيانا وبالجلد اخرى وبالشنق غيرها؟ اجل، لا أقدر ان اقول ذلك دون ان تسيل دموعي – وكان الشيخ المسكين حين يصل في كلامه الى هذا الحد يبكي كالطفل متذكرا المرات العديدة التي رضت فيها اضلعه – لانهم حيث يكونون لا يرضون بان يكون من اللصوص غيرهم ومعاونيهم لكن الحيلة تنجينا من كل شيء ففي شبابي طالما كنت أغشى الكنائس (11) وكم كنت حملت على الحمار (12) لو اعترفت في كرسي التعذيب. ولكني

---

11) لان الكنائس كانت تعتبر حرما فلا يمكن لمأموري السلطة دخولها للقبض على المجرمين الذين يلتجئون اليها. وهذه العادة لم تزل متبعة في المغرب بشأن المساجد واضرحة الاولياء. فمن التجأ اليها استحال القبض عليه ما دام فيها.

12) كان المحكوم عليهم بالجلد يطاف بهم راكبين على حمار. ويجلدون في الطواف

لم أعرف (13) قط الا في المواعيد التي تأمر بها امنا الكنيسة المقدسة. فبهذا وممارسة حرفتي كفيت املك انرف عيش قدرت عليه . فتثور حينئذ ثائرة امي التي كانت تتألم لقلة ميلي الى معاطاة السحر والشعوذة فتصيح قائلة: كيف تقول انك اعلتني؟ الست انا التي اعلتك واخرجتك من السجن بحيلة واسعفتك بالمال وانت فيه؟ وان لم تقر افكان هذا من ذلقة نفسك ام بفضل ما سقيتك اياه من اشربة؟ أجل انه الفضل لمواقيلي. ولولا خوفي من ان يسمع كلامي خارجا لابحت بتلك الحادثة حين دخلت من المدخنة واخرجتك من السطح. ولو لم تتفكك من شدة الضربات سبحة من اضراس الموتى شدت بين يديها لبالغت في القول لما كان يبدو عليها من الغضب

---

(13) أتى المؤلف بتورية في استعمال كلمة اعترف فاراد بها اولا اقرار المجرم بجريمته امام السلطة وثانيا السر الكنسي المعروف وهو الاقرار بالخطايا للكاهن

وبعد ان ضرب انسلم خيامه فوقهما قلت لهما انى عازم ان اسلك جادة الفضيلة واواصل السير الى الامام بنواياى الطيبة وطلبت منهما أن يدخلانى المدرسة لانه لا شيء ممكن بلا قراءة ولا كتابة فاستصوبا رأيى بعد ان تهامسا بشانه حينا ثم عادت امي الى تنظيم الاضراس في السحة ومضى ابى ليحلق لاحد زبائنه ـ حسبما قال ـ ولست أدرى ان لحيته او جيبه. وبقيت وحدى اشكر الله الذي جعلني ابنا لوالدين بلغا هذا الحد من المهارة والاهتمام بصالحي.

الفصل الثانى

في ذهابي الى المدرسة وما وقع لي فيها

ما أصبح اليوم التالي حتى كانت الكراسة بين يدي والمخابرة مع المعلم قد تمت. فذهبت باكراً الى المدرسة. فاستقبلني المعلم باشا وقال لي ان امارات الفطنة والادراك مرتسمة على وجهي فحملني قوله هذا على تأدية الدرس في ذلك الصباح تأدية حسنة لكي لا اخيب ظنه في وكان المعلم يجلسني الى جانبه. وفي اكثر الايام انال الجائزة لاني كنت أول من يصل وآخر من يخرج فاقضي بعض الحاجات للسيدة — وهو اللقب الذي نطلقه على زوجة المعلم — وبمثل هذه التملقات اصبح الجميع مذعنين لي وبالغوا في احتقاري فازداد بقية الصبية حسداً مني اما انا فكنت أتصل بأبناء الاشراف وخاصة باحد ابناء ضون ألونصو

كورونيل دي زونييغا. فاتحدنا اتحاداً وثيقا وصرت أذهب الى داره في ايام الاعياد وارافقه في كل يوم واصبح الاخرون: اما لاني لم اكن احادثهم واما لانهم كانوا يعتبروني متعجرفا، يطلقون علي القابا تشير الى ابي. فالبعض يسمونني ضون ناباخا (1) والبعض الاخر ضون بنطوسا (2) وهذا يقول تبربرا لحسده انه يكرهني لان ابي سرقت ليلا اخنيه الصغيرتين وذاك ان ابي قد استدعي الى داره لينظفها من الفيران قاصدا بذلك تسميه قط (3) والبعض يصيحون بي حين امر بجنبهم سابي. (4) والاخرون مس، (5)

وحاصل الامر انه بالرغم عن كل ما اصابوني به لم تبلغني منهم اهانة قط ولله الحمد واني وان

---

1) Navaja اي الموس

2) Ventosa اي المحجم

3) اي لصا

4) لفظة تستعمل لطرد القطط

5) لفظة تستعمل لدعاء القطط

كنت أخجل مما يقولون فقد كنت احسن اخفا حجلي متحملا كل شيء الى ان تجرأ يوما أحد الاولاد على القول لي بصوت عال «يا ابن الباغية الساحرة» وبما انه لفظ تلك العبارة بوضوح لايترك مجالا للسكوت - اذ لو انه قالها مبهمة لغضضت الطرف عنه - فما كان مني الا امسكت حجرا ورميته به ففججت رأسه. ووليت راكضا شطر امي تتخبئني

وأخبرتها بكل ما جرى لي فقالت: «نعم ما فعلت يا بني. وقد برهنت عمن أنت وانما اخطأت في اغفالك عن سؤاله من قال له ذلك فحين سمعت كلام أمي - وقد كنت أضمر دائما افكارا سامية - التفت نحوها قائلا: آه يا أماه! انما يؤلمني اشد الالم ان بعض الذين كانوا حاضرين الحادثة قالوا لي انه لا داعي لغضبي بسبب ذلك الكلام ولم اسألهم ان كان ما يقولونه لي يرجع الى صغر عمر قائله او لسبب آخر. ثم رجوتها ان تخبرني اذا كان بوسعي ان اكذبه عن حق وان تعلمني

اذا كنت ابن ابى حقا امان في حبلها بي انتترا كا لعنة رجال؟، فضحكت وقالت: خزيا لك! اهـذا القول نعرف ان تقول؟ او ابله انت؟ أجل، ان كلامك مدعاة للعبث ولقد احسنت صنعا حيـن فججت رأسه واعلم ان هذه الامور وان كانت صحيحة يجب الا تقال فبهت كالميت حين سمعت هذا الكلام وعزمت على حمل ما أقوى عليه ضمن ايام قليلة ومغادرة دار والدى من شدة ما عمله الحياء في نفسي عسر ابى اخفت ما في خاطـري وسار ابي الى دار الصبي فضمد جراحـه وهـدأ خاطره وردني الى المدرسة حيث استقبلني المعلـم بغضب شديد لم تخف ثائرتـه الا بعد ان سمـع وعرف سبب المشاجرة فاعسر اذ اداك ان الحق كان بجانبي.

وخلال هذا كله كان ابن ضون ألونصـو دي روضغا واسمه دييغو لا ينقطع عن زيارتـي اذ كان يضمر لي الـود والعطف. فاصلت بيني وبينه روابط الصداقة والاتحـاد وصرت اعطيه

واعطيه مما أتغداه دون ان اطلب منه مما يأكله واشتري له صورا واعلمه المصارعة والعب وايـاه لعبة الثيران واسليه دائما. فحين شاهد والـداه مقدار فرحه برفقتي اصبحا يرجوان والـدي في اكثر الايام ان يسمحا لي بالبقاء معـه لاتغـدى واتعشى وفي معظم الايام لانام الليل ايضا

وحدث ذات مرة في الايام الاولى التي عدنا الى المدرسة فيها بعد عيد الميلاد ان رجلا مشهورا بالاحتيال يدعى بنصيو دى اغيرى كان مارا في الشارع فقال لي ضون دييغو : «ناده باسم بنصيـو بيلاطو واطلق ساقيك للريح فناديته بهذا الاسم ارضاء لخاطر صاحبي. فما كان من الرجل الا ان غضب وجرى ورائي مجردا خنجـره ليقتلنـي فاضطررت الى الالتجاء في هربي الى دار معلمـي ودخل الرجل ورائي صائحا. فتقدم معلمي لحمايتي طالبا من الرجل ان يعفو عن حياتي مؤكدا له انه سيعاقبني عقابا صارما وهكذا كان بالرغم عـن توسلات زوجته وتوسطها من احلي لما كنـت

أقدم لها من خدمات. فأمرني بنزع قميصي ثم اخذ يجلدني ويقول بعد كل جلدة: أتعود الى القول بنصيو بيلاطو؟ فاجيبه. لا يا سيدي. ولقد اجبته مثنى عن كل جلدة جلدتها ووجدت في تلك الجلدات عبرة للتحامي عن ذكر اسم بنصيو بيلاطو. ونشأ بسببها في نفسي خوف من التلفظ بهذا الاسم بحيث انه اذ امرني المعلم في اليوم التالي على عادته بتلاوة الصلاة على بقية التلامذة حين وصلت الى قانون الايمان - ولتلاحظ حضرتك مكرمي الدرس - وبلغت فيه حد قوله: «وتألم على عهد بنصيو بيلاطو (1) تذكرت انه ينبغي ان لا اعود الى لفظ كلمة بيلاطو. فقلت: «تألم على عهد بنصيو دي أغيري» فحين سمع المعلم مذاجتي هذه ورأى الخوف المستحوذ علي من أجله ضحك حتى بدت نواجذه وعانقني واعطاني وعدا كتابيا

---

(1) بنصيو بيلاطو او بيلاطوس البنطي هو الوالي الروماني على فلسطين الذي صلب سيدنا يسوع المسيح على عهده

بانه يعفو عني في المرتين المقبلتين اللتين استحق فيهما الجلد فذهبت راضيا مسرورا

ثم اقبل زمن المرفع (٦) فأمر المعلم بان تنظم لعبة «ملك الديوك» (٨) ترويحا عن نفوس تلامذته ووقعت القرعة بين اثني عشر منا فكان الحظ حليفي واوعزت الى والدي ان يدبرا لي اثوابا فاخرة. وحين اقبل اليوم المعين خرجت ممتطيا صهوة جواد ذابل مصدور يحني رأسه كمن يسلم باحترام لا أدبا بل لعجز الم باحدى ساقيه. وكان ذا كفل عاري الشعر قصير الذيل ككفل القردة. وذا عنق يفوق طولا عنق البعير ولم يكن في وجهه سوى عين واحدة على انها بيضاء. وكان يقرأ على بدنه ما تحمله المكلف بتغذيته من تقشف

---

٦) هي الايام الثلاثة السابقة لصيام النصارى وعند الموارنة هي الاسبوع السابق كله

٨) هي لعبة تقوم بدفن ديك مع ترك رأسه وعنقه فوق التراب ثم تعصب عينا احد اللاعبين وعليه ان يتقدم اذاك في مسافة ما باحثا عن الديك والسيف في يده

وصوم وما قام به من غش في شرائه له العلف. فبينما كنت سائرا على متنه ارتجح يمينا ويسارا كفريسي (١) في سيره وبقية الاولاد ورائي بزينتهم مررنا بساحة البلدة ـ ان بدني يقشعر لمجرد ذكراها ـ وحين وصلنا الى موائد البقالات ـ نجانا الله ـ خطف حصاني كرنبا لواحدة منهن وباسرع من البرق ارسله الى امعائه حيث لم يصل في تدحرجه داخل حلقومه الا بعد وقت غير يسير فاخذت البقالة ـ وكلهن كما تعلم سفيهات ـ تزيط. ثم وصلت الاخريات مصحوبات ببعض الشطار رافعات جزرات كبيرة وسلاجم ضخمة وباذنجانات وغيرها من البقول. وشرعن بمطاردة الملك المسكين. اما انا فحين رأيت انها معركة ملحمية ليس لي ان

---

(١) الفريسيون جماعة من اليهود كانوا يتظاهرون بالتقشف والتعبد ويتمسكون بظاهر الشريعة عابثين بروحها وكثيرا ما حمل عليهم سيدنا يسوع المسيح كما نرى في الانجيل المقدس. وقد اصبحت كلمة فريسي في الاسبانية مرادفة لمنافق

اشارك فيها راكبا اردت ان اترجل لكن حصاني
تلقى ضربة عنيفة في وجهه وهو يحاول ان يشبو
فاذا به يهوي بى ـ حاشاكم ـ في احد المراحيض
وذكرني كما بوسعك ان تتصور وكان فتياني قد
تسلحوا بالحجارة وشرعوا بمطاردة البقالات فقجوا
رأس اثنين منهن اما انا فقد اصبحت بعد سقوطي
في المرحاض اكثر من يحتاج اليـه في المشاجرة.
ثم اقبل مأمور العدالة فقبض على البقالات والصبيان
وفتش عما يحملونه من الاسلحة فنزعها منهم حيث
ان البعض منهم كانوا قد جردوا خناجر وسيوفا
صغيرة من التي جاؤوا بها للزينة. وحين وصل
ولم ير معي اي سلاح لانهم كانوا قد نزعوه عني
ووضعوه في احد المنازل مع المعطف والقبعة لتنشف
طلب مني سلاحي فأجبته والوساخة تجليني ان
لا سلاح آخر لدي اذا كان هذا لا يؤذي الانوف.
ولا بد لي ان اخبرك عرضا انه حين بـدأت
يرمينني بالباذنجان والسلجم وبقية البقول ظننت
اذ كنت احمل ريشا في قبعتي انهن اعتبرنني والدتي

وانهن يرمينها عن قصد كما فعلن مرارا أخرى.
فأخذت اصيح على بلاهتي وطفولتي قائلا: «يا
اخواني اني وان كنت أحمل ريشا لست الدونصا
سانورنو دي ريبوبو والدتي كما لو انهن لم
يكن ليرين ذلك من قامتي ووجهي. لكن الخوف
ووقوع المصيبة فجأة معذرة لجهلي

ولنعد الان الى مأمور العدالة فقد اراد سوقي
الى السجن لكنه لم يفعل لانه لم يجد في ممسكا
من حرية سقطتي وتوحلي. فذهب البعض منجهة
والاخرون من جهة اخرى وعدت من الساحة الى
داري معذبا اتوقف كل من اصادفهم في طريقي.
وما كدت ادخلها واخبر والدي بما حدث حتى
غضبا غضبا شديدا وهما يضربي لما رأياني عليه
من سوء حالة، اما انا فكنت القى التبعة على
الحصان الذي اعطيته محاولا ارضاءهما، وحين
رأيت محاولتي فاشلة خرجت من الدار متوجها
الى دار صديقي ضون ديغو فوجدته قد اصيب
بجرح في رأسه. وقد عزم والداه لسبب ذلك على

الا يرسلاه فيما بعد الى المدرسة وهنالك اخبرت ان حصاني حين رأى نفسه في ضيق حاول ان يرفس لكنه من ضعفه الزائد انقطع كفله وبقي في الوحل على شفير الهلاك. واذ ابصرت العيد قد نعكر صفوه والبلدة في هرج ومرج ووالدي قد ثارت ثائرتهما وصديقي قد فج رأسه وحصاني قد مات عزمت ألا اعود ابدا الى المدرسة ولا الى دار والدي وقررت ان ابقى في خدمة ضون ديغو او بالاحرى في صحبته وذلك برضى والديه التام لما كانا يريانه من ولائي نحو الفتى. فكتبت الى والدي معلما اياهما باني لم اعد بحاجة الى الذهاب الى المدرسة لاني وان كنت لا احسن الكتابة فذلك لا يضيرني لان المطلوب في محاولة التخلق باخلاق الفرسان هو الا يحسنها المرء. ولذلك اتخلى عن المدرسة لكي لا احملهما نفقة وعن دارهما لاوفر عليهما المتاعب. واعلمتهما بمقري الجديد وبالشروط التي نعبت فيها وباني لن أراهما حتى اتلقى منهما اذنا بذلك.

الفصل الثالث

في ذهابي الى مدرسة داخلية بصفة خادم لضون دييغو كورونيل

وعندئذ عزم ضون ألونصو على ارسال ولده الى مدرسة تقبل طلابا داخليين ليبعده من جهة عن حياة الرفاهية وليوفر على نفسه مشقة القلق عليه من جهة اخرى وعلم ان في شقوبية كاهنا اسمه كبراه (1) منصرفا الى تربية أبناء النبلاء.

---

1) كابرا Cabra. ويظهر ان الكاهن الذي وصفه كيبيدو هنا قد وجد حقيقة. ويستدل على ذلك برسالة بعثها الى المؤلف صديقه خوان آدان دي لابارا وفيها يقول: علمت بشقوبية... وكم يطول بي القول عما ضحكته حين زرت الاب كابرينا. ولقد احدث تصويره الكامل لي بعد الان

فارسل اليه ابنه وارسلني معه لارافقه واخدمه. فسقطنا يوم الاحد الجديد (٢) بين يدي الجوع انحسيم لان ذلك البؤس لا يقبل الزيادة وكان لاب كبيرا كالسطاده طويل القامة لا غير صغير الرأس اشقر الشعر ولا يحتاج الى زيادة في التعريف به من يعرف المثل القائل لا قط ولا كلب من ذلك اللون وكانت عيناه قريبتين من قفنه فيبدو كانه تطلع من وراء مقطفين ومن شدة غورهما وسوادهما يصلح موضعهما ان يكون حانوتا لاحد التجار وقد اكلت انفه بثور انتجها الزكام وهي

مطابقا للصورة التي رسمنا له لان المسكين قد زادت حالته سوءا واصبح على شفير الفناء بحيث تدعو الى الشفقة . وحين علم انه المعلم الذي صور في فصلك قال لي انه اولى بك ان تكون اكثر مروءة واقل عقوقا ولم يبق للمسكين تلامذة الان وليس بوسعه ان يقيم القداس وانما هو هيكل عظمي يعيش مما وفره في ايامه البيضاء .

(٢) هو الاحد الاول بعد عيد الفصح او القيامة

ان لم تكن ثمرة الرديلة فلان في ذلك نغقة. اما اللحية فقدفقدت لونهاخوفامن الفم المجاور الذي كان يبدو من الجوع المضنى كانه يهددها بالافتراس. والاسنان ينقصه معظمها واظن انها نفيت من ذلك المكان لتكاسلها وتقاعدها عن العمل (3) والعنق طويل كعنق النعامة مع جوزة ناتئة كانها تستعد لمعادرتها سعيا وراء غذائها بعد ان احدقت بها الفاقة، والذراعان ناشفان واليدان كرزمة من الزرجون. واذا تطلعت الى نصفه الاسفل حلته شوكة او بركارا، طويل الساقين هزيلهما، بطيء السير. اذا غضب قليلا سمع لعظامه قرقعة كقرقعة الواح سان لازارو (4) وان تكلم صعد الكلام من

---

(3) كان النفي من العقوبات المفروضة عند اذاك على المتشردين الكسالى

(4) الواح سان لازارو هي الواح ثلاثة تحمل مربوطة بخيط يمر في ثقبين وتمسك اللوحة الوسطى وتحرك فتحدث قرقعة، وتستعمل لاستجداء الصدقات لمستشفيات سان لازارو

صدره. كبير اللحية لم تمسها قط يد الحلاق تجنبا للانفاق. وكان يقول انه يفضل الموت على ان يرى يد الحلاق على وجهه لما تحدثه هذا الامر من كره في نفسه. اما شعر رأسه فيجزه له احد الطلاب. وفي الايام المشمسة يلبس قلنسوة العقة المقوب مزينة بالدسم خلت من شيء كان فيما مضى جوخا ومبطنة بالحزازة فكان البعض يقولون عند رؤيتها عارية من الشعر انها من جلود الضفادع والاخرون انها من نسيج الوهم. فتخبر عن قرب سوداء وعن بعد مائلة الى الزرقة. وكان يرتديها بدون زنار ولا قلب ولا اردان فيبدو بشعره الطويل وجبته القصيرة المتدلية كأنه من خدام الموت. اما نعلاه فكل منهما كان كافيا لان يكون لحدا لفلسطيني (1). واما عن مسكنه فماذا نقول؟ انه كان خاليا حتى من العنكبوت وكان يبعد الفيران عنه خوفا من ان تقرض له بعض الكسر التي يحتفظ بها

---

(1) كان يقال عن شخص انه فلسطيني اذا اريدت المبالغة في ضخامة جسمه

ومن الارض تخذ سريرا مد فوقه الفراش فينام دائما على جانب واحد لئلا ينلف المقايم. وبالاحتصار كان صاحبنا غاية في الفقر ومثالا للبؤس. فبين يدي هذا الرجل وقعت انا وضون ديغو وفي ليلة وصولنا دلنا على غرفنا والقى علينا عظة قصيرة لم يطلها لئلا يسرف في الوقت. واشار علينا بما يجب ان نعمله وشغلنا بهذا حتى ساعة الغداء وحينئذ ذهبنا الى قاعة الاكل وكانت العادة ان ياكل الاسياد اولا بينما نقوم نحن الخدام بخدمتهم. وكانت القاعة المذكورة عبارة عن غرفة ضيقة وقد تجمع حول مائدة واحدة خمسة اشخاص. واول ما بحثت عنه عيناي في تلك الغرفة هي القطط، ولما لم ارها سالت عنها خادما قديما نرى عليه لهزاله علامات الاقامة في ذلك المثوى فانسحق علي عند سماعه هذا السؤال وقال كيف تسال عن القطط؟ فمن اخبرك ان القطط تحب الصوم والتقشف؟ اجل ان سمنك يدل على حداثة عهدك بهذا المكان فحين سمعت هذا القول بدأ الغم يدب الى نفسي وازددت خوفا حين رايت ان جميع من

سبقونا الى سكنى هذا المثوى كانوا كالمخاصف كان وجوههم قد طليت بمراهم (الدياكيلون) (6) فجلس الاب كابرينا والقى البركة ثم اكل الحاضرون اكلة ابدية لا ابتداء لها ولا نهاية فجيء اولا بمرق في قصاع من الخشب لو اكل نرسيسو (7) في واحدة منها لكان من صفاء ذلك المرق في خطر اشد من من خطر الغدير ولاحظت مغتما ان الاصابع الهزيلة كانت تسبح سعيا وراء حمصة يتيمة وحيدة كانت في قعر القصعة وبعد كل حسوة يقول

---

(6) الدياكيلون مرهم كان يستعمل في الجراحات لازالة الدمامل

(7) نرسيسو Narciso في الميثولوجية هو ابن النهر سيفسو Cefiso وعروس الماء ليريوبيا Liriopea وكان غاية في الجمال لكنه لم يفتح قلبه لعواطف الهوى وتروي الاسطورة انه وقف ذات يوم جانب غدير صفا ماؤه كالبلور فابصر صورته معكوسة فيه وفتن بجمال ذاته ايما افتتان وغطس ذراعيه في الماء ليقبض تلك الصورة التي ظنها لشخص آخر

كابرا الحق يقال انه لا شيء كالقدر (8) مهما تقول المتشدقون، وما عداها رذيلة ونهم وما كاد يفرغ من ترداد هذه العبارة حتى جرع ما في القصعة دفعة واحدة قائلا: «هذا كله عافية وذكاء» فقلت في نفسي «قاتلك الله (9)» حين رأيت غلاما هزيلا كأنه جاء من عالم الارواح وبين يديه صحفة فيها لحم كانه قطعة من بدنه. وتقربه لقتة مغامرة. فقال المعلم: «ألفت لذلك؟ اجل، انه لا يطيب شي

---

8) كلمة Olla في الاسبانية تعني في الاصل القدر وهو الاناء المعروف لكنها اطلقت ايضا على اكله تتركب من لحم وشحم وخضر وحمص وبطاطا يضاف اليها شيء من المقانق توضع كلها في قدر وتغلى حتى تطيب. وهي الاكلة الوطنية الشعبية في اسبانيا الى يومنا هذا.

9) اتى المؤلف بتورية في كلمة ingenio فاستعملها اولا بمعنى ذكاء وثانيا بمعنى حيلة فآثرنا تعريب الجملة الثانية بقولنا «قاتلك الله» وهو المقصود.

حجل مثلها. كلوا فان صدري لينشرح حين أراكم تأكلون ثم وزع على كل واحد منهم قدرا ضئيلا من اللحم بحيث نفذ في ثلثي ما أصاب كل واحد بين ما التصق بأظافره وعلق بين اسنانه واثناء هذا كان كابرا يتطلع اليهم قائلا: كلوا فانكم تفتيان ويسرني ان ارى فيكم هذه الشاهية، فتأمل اصلحك الله ما احسنها من توابل لمن كانوا يتشاءبون جوعا.

واخيرا فرغوا من الاكل وبقيت فوق الخوان بعض الكسر وفي الصحفة بعض الاهب والعظام. فقال المعلم: فليبق هذا للخدم اذ من حقهم ان يأكلوا ايضا ولا ناكله نحن كله اما انا فكنت اقول في نفسي بلاك الله وما اكلته بسوء ياشقي! فيالله من تهديد رميت أمعائي به. ثم القى البركة وقال: فلنترك المكان للخدم واذهبوا حتى الساعة الثانية وروضوا اجسامكم لئلا يضركم ما أكلتموه، فلم اتمالك حينئذ من الضحك ملء شدقي وغضب المعلم غضبا شديدا وقال لي ان تعلم الحشمة وزرد

على مسامعي ثلاث او اربع حكم قديمة وذهب الى حال سبيله. فجلسنا نحن وحيث رأيت الصفقة خاسرة وامعائي تطلب الانصاف هجمت على الصحفة بصفتي اكبر الخدم واقواهم كما هجم الاخرون ولقمت من الثلاث كسر اثنتين والاهاب الوحيد الذي كان فيها فاخذ البقية يدمدمون متذمرين فدخل كابرا حين سمع الجلبة وقال «كلوا كالاخوة فان الله قد رزقكم ما تاكلونه متحابين ولا تنازعوا فان لديكم ما يكفي الجميع ثم عاد يتشمس وتركنا وحدنا. هذا واني اؤكد لحضرتك انه كان بين الخدم واحد من بسكايا اسمه سري بلغ به نسيانه كيف يؤكل ومن اين انه رفع كسرة اصابته الى عينيه مرتين دون ان يصيب في توجيه يديه الى فمه. ثم طلبت ان اشرب حيث ان الباقين الذين كادوا يكونون صائمين لم يطلبوا ذلك. فاعطوني كأس ماء وما كاد الكأس يمس شفتي حتى كانت يد الغلام المستحيل روحا الذي تكلمت عنه سابقا يمتد اليه ويتاخذ

مني كما لو كان ماءً مقدسا فقمت والغم يملأ نفسي حين رأيت انني في دار يشرب فيها الفم نخب الامعاء فتعجز هذه عن مقابلته بالمثل (10)

وشعرت بحاجة الى التبرز وان لم اكن قد اكلت فسألت احد الاقدمين عن المرحاض فقال: لست ادري اذ ليس في هذه الدار من مرحاض وعلى كل حال ان برازا تبرزه مرة واحدة طيلة اقامتك هنا يمكنك ان تخرجه اينما كان، فهاأناذا قد مر عني شهران في هذه الدار ولم احتج الى ذلك سوى مرة واحدة يوم دخولي كما تريد ان تفعل أنت الان وذلك مما تعشيته في داري عن الليلة السابقة. فكيف أصف ما استولى علي من الحزن والغم حين سمعت هذا القول اجل. لقد كان ذلك عظيما الى حد انني بعد ان تأملت في ضآلة ما دخل جسمي لم أجرأ بالرغم عن رغبتي بابراز شيء مما في داخله.

---

(10) اي ان ما يدخل الفم قليل بحيث لايصل الى الامعاء فلهذا لا تقدر هذه ان تقابل من يشرب نخبها بالمثل

تسلينا حتى حلول الليل، وكان ضون ديغو يسألني اثناء ذلك عما عساه ان يفعل ليقنع معدته بأنها اكلت لانها لم تكن لتصدقه. وكانت تطوى الساعات خاوية في تلك الدار كما كانت تقضيها متخومة في دار اخرى. واخيرا اقبلت ساعة العشاء لان ساعة العصر مرت دون ان يأتي احد على ذكر العدوقة. فتعشينا اقل مما تغديناه بكثير ولم يكن في العشاء لحم عجل بل قلدل مشوي من اسم المعلم (1) وتأمل رعاك الله اذا كان ابليس نفسه يقدر على ابتداع امر كهذا فقد كان المعلم يقول «في العشاء الخفيف صحة البدن لان المعدة تبقى عاطلة» ويتبع قوله هذا بلائحة لا نهاية لها من الاطبا الجنسيين ويكثر الثناء على الحمية قائلا انها تنفي عن المرء الاحلام المزعجة لعامة ان من في داره لا يمكنهم ان يحلموا بشيء آخر سوى انهم ياكلون. فتعشوا وتعشينا جميعا ولم يتعش أحد.

---

(1) اي من لحم الماعز لان المعلم اسمه كابرا Cabra ومعناها «ماعز»

ثم سرنا لنرقد لكن مضى الليل ولم تغمض لنا عين لا لي ولا لضون ديغو. اذ كان هو يهى شكواه الى والده طالبا منه ان يخرجه من ذلك المكان وأنا انصحه ان يفعل ذلك وان كنت في الاخير قد قلت له «أتعلم يا سيدي علم اليقين ان كنا في عالم الاحيا؟ لانى أتصور اننا قتلنا في مناوشة البقالات وانما نحن الان انفس تتعذب في المطهر. وعليه ارى انه من العبث ان تقول لابيك ان يخرجنا من هنا اذا لم يقم احد بالصلاة من أجلنا بسبحة ذات حبات كبيرة ويخلصنا من العذاب بتقديمه قداسا يقام في مذبح مميز بغفران كامل»

وبين هذه السمرات والقليل الذي رقدناه كانت ساعة النهوض اذ دقت الساعة السادسة فنادانا كابرا الى الدرس. فذهبنا واصغينا اليه جميعا. اما انا فقد أصبح ظهرى وخاصرتاى تسبح في داخل القميص والسراويل تتسع لسبع سيقان مثل ساقي وعلت الطرامة اسناني فبرزت صفراء مجلببة باليأس. وامرت بقراءة الفاصل الاول على

مسمع من بقية التلامذة. لكن جوعي كان كبيرا بحيث فطرت بنصف الكلمات ولن يتردد في تصديق ما أقوله من عرف ما حكاه لي غلام كابرا اذ قال لي انه رأى بأم عينه جوادين فريسيين، (12) دخلا الى تلك الدار وخرجا بعد يومين ضامرين رشيقين يطيران في الجو سرعة. وانه رأى دراوس غليظة ادخلت اليها أيضا ثم خرجت بعد ثلاث ساعات وقد صارت سلوقية عداءة. وانه في مدة الصوم رأى مرة اناسا كثيرين منهم من ادخل رجليه ومنهم يديه ومنهم جسمه كله في رواق الدار مستمرين على تلك الحالة برهة غير وجيزة، وان اناسا كثيرين غيرهم كانوا يفدون من الخارج لهذه الغاية فحسب. وسألته مرة عن ذلك لان كابرا قد غضب لسؤالي اياه فقال لي ان منهم من هو مصاب بالجرب ومنهم من

(12) اي آتيين من فريسيا او بمبان - الى ذلك النوع من الخيل التي تمتاز بقوة القوائم وعرضها.

به تورم من البرد وبوضعهما في تلك الدار يموتان جوعا بحيث لا يأكلان بعد ذلك اليوم (13) وقد اكد لي ان ذلك صحيح، وانا الذى عرفت الدار أصدق ذلك القول. وأقول هذا لكى لا تعتبر كلامي من باب المبالغة

ولنعد الان الى الكلام عن الدرس. فقد ألقاه المعلم علينا ثم رددناه كلنا معا. وعلى هذا النمط الذى وصفته واصلت العيش. وانما اضاف كابرا شيئا من شحم الخنزير الى اكلة المرق بسبب شئ لم اطلع عليه قيل له خارجا عن

---

(13) الجرب والتورم الناشئ عن البرد Sabañones مرضان ينتشران في الجسم بسرعة كأنهما يأكلانه. وعن ذلك نشأ في الاسبانية مثل قديم فيقال «آكل من التورم الناشئ عن البرد» وهذا ما سمح للمؤلف بالتلاعب في الكلام فشبه المرضين بشخصين اكولين اذا ادخلا دار كابرا هلكا جوعا ولا يأكلان فيما بعد جسم المريض

صفاً نسبه (14) وكان عنده صنيديق من الحديد كله ثقوب كالمصفاة. فيفتحه ويضع فيه قطعة من شحم الخنزير. ثم يشده ويدليه مربوطا بخيط داخل القدر ليتسرب اليها شيء من المرق من خلال الثقوب ويبقى الشحم لليوم التالي (15) ثم : ان

---

14) كان اليهود المهتدون حديثا الى النصرانية يحتفظون بشيء من الكره نحو لحم الخنزير ولهذا كانت تنكر علهم صفة القدم في الديانة المسيحية وفي ذلك تحقير كبير

15) . وزعموا انهم (اهل خراسان) ربما ترافقوا وتراملوا تناهدوا وتلازموا في شراء اللحم واذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ واخذ كل انسان منهم نصيبه فشكه بخوصة او بخيط ثم ارسله في خل القدر والتوابل فاذا طبخوا تناول كل انسان خيطه وقد علمه بعلامة ثم اقتسموا المرق ثم لا يزال احدهم يسل من الخيط القطعة بعد القطعة حتى يبقى الحبل لا شيء فيه ثم يجمعون خيوطهم فان اعادوا الملازقة اعادوا تلك الخيوط لانها قد

له فيما بعد ان في هذا تبذيرا كبيرا فاكتفى بان يجعل قطعة الشحم تطل على القدر اطلالا.

فعلى هذه الحاله كنا نقضي الايام كما يمكنك ان تصور وقد بلغ الامر بي وبجون ديغو اننا حيث لم نجد سبيلا للاكل فتشنا عن طريقة تمكننا من ألا نقوم في الصباح فصممنا على التمارض لكننا لم ندع السخونة لانه اذا لم تكن انكشفت الخديعة بسهولة. وان ندع الما في الرأس او في الاضراس لم يعتبر هذا الالم عائقا كافيا لملازمة الفراش. فقلنا اخيرا اننا مصابون بألم في الامعاء لاننا لم نبرز منذ ثلاثة أيام مؤملين ان المعلم لن يبحث لنا عن دواء حرصا على ألا يصرف فلسين لشرائه. لكن الشيطان دبر الامور بالعكس حيث انه كانت لديه حقنة ورثها من ابيه الذي كان صيدليا فحين عرف دائنا هيأ حقنة ودعا عمته وهي عجوز تبلغ السبعين من العمر وقال لها ان تضعها

تشربت الدسم. (الجاحظ. كتاب البخلاء ص 24-25 طبعة ليدن سنة 1900)

لنا وبدأوا بضون ديغو فخجل المسكين وارتبك وبدلا من ان ترميها العجوز في الداخل رمتها بين القميص وفقار الظهر وبلغت قفاه وهكذا جاء زينة في الخارج ما كان معدا لان يكون بطانة فبقي الفتى يصيح وعندئذ جاء كابرا وحين رآه امر بان احقن بالباقي ثم تعاود الكرة مع ضون ديغو. وكنت أرتدي ثيابي اذاك. لكنه لم يجدني نفعا اذ امسكني كابرا واشخاص آخرون وحقنتني العجوز بالحقنة لكني ارجعتها لها حالا فاصبتها في وجهها فغضب علي كابرا غضبا شديدا وقال انه سيطردني من داره اذ قد اتضح أن كل ما ندعيه انما هو خداع صرف لكن لم يشأ سوء طالعي أن يطردني فابلغنا ضون الونصو شكوانا لكن كابرا كان يحمله على الاعتقاد باننا انما نعمل ذلك تهربا من حضور الدرس. ولذلك لم تجدنا التوسلات نفعا ثم اتخذ المعلم تلك العجوز لتطبخ وتخدم التلامذة وصرف الخادم لانه رأى معه يوم الجمعة صباحا بعض فتات من الخبز. أما ما تحملناه من هذه

العجوز فلا يعلمه الا الله. اذ كانت صماً لا تسمع شيئا البتة. وتفهم بالاشارة، عمياً كثيرة، الصلاة الى حد ان سبحتها تفككت يوما فوق القدر فجائتنا بيا صحبة انتى مرق كلته فاخذ البعض يقولون لعله حمص اسود. ولاشك انه جي به من الحبشة. ويقول الاخرون أيكون حمصا في حالة الحداد؟ من مات له؟» واما سيدي فقد ابتلع احدى الخرزات فانكسرت واحدة من اسنانه وهو يمضغها. وكان من عادتها ان تقدم لنا يوم الجمعة بيضا مكسوا بقدر من الشعر المتساقط من رأسها يؤهله لممارسة المحاماة (16) اذ كان من الامور العادية اتخاذ الرفش الصغيرة المعدة لنقل الجمر بدل المغرفة وارسال جفنة من المرق مبلطة بالحصى. وقد عثرت الف مرة في القدر على هوام وعودان ومشاقة مما كانت تغزله فالتهمته كله ليدخل الامعاء ويزيد في حجم الداخل اليها.

---

(16) كان من عادة المحامين في ذلك العهد ارخاء لحاهم

وهكذا قضينا حتى حلول الصوم وفي مطلعه سقط احد الرفاق مريضا وامتنع كابرا عن استدعاء الطبيب حرصا على المال حتى اصبح الفتى يطلب الاعتراف اكثر من كل شيء آخر. وحينئذ استدعي احد المعالجين وبعد ان جس نبضه قال ان الجوع سبقه الى قتل ذلك الرجل (17) ثم جاءوه بالقربان الاقدس وحين شاهده المسكين ـ وكان قد مر عليه يوم كامل دون ان ينبس ببنت شفة ـ قال ياسيدي يسوع المسيح! لقد كان دخولك الى هذه الدار لازما لاقتنع بانها ليست هي الجحيم، فانطبعت هذه الكلمات في قلبه. ثم لفظ الفتى المسكين النفس الاخير. فدفناه في جنازة حقيرة لانه كان غريبا. وبقينا كلنا مدهوشين. وانتشر الخبر الفظيع في المدينة كلها وبلغ مسامع ضون الونصو كورنيل. وبما انه لم يكن له سوى ابن واحد زال اغتراره اذاك بقساوة كابرا واخذ يعير اذنا صاغية الى كلام شبحين ـ اذ كنا قد بلغنا هذه الدرجة من

---

(17) تهكم قاس على اطباء ذلك العهد

الهزال. فجاء ليحرجنا من تلك المدرسة وكان يسالنا عن انفسنا ونحن بين يديه وقد شاهد من حالتنا ما حمله على الاغلاظ في القول للمعلم (بيخيليا)(18) وأمر بنا فحملنا على كرسيين الى الدار وودعنا رفاقنا الذي كانوا يتبعوننا برغباتهم واعينهم مصعدين التاوهات التي يصعدها الاسير الذي يبقى في الجزائر (19) حين يرى رفاقه يغادرون الاسر

---

(18) سماه هنا بيخيليا vigilia ومعناها في الاسبانية التنحس او الانقطاع عن اكل اللحوم والبيض والحليب مبالغة في وصفه بالشح اي انه جسم التنحس فيه.

(19) كان اسم الجزائر في ذلك الزمن مقرونا الى فظائع الاسر لانها كانت اعظم قاعدة للقرصان ومن جملة من وقعوا بين ايديهم في الربع الاخير من القرن السادس عشر امير الادب الاسباني ميغيل دى سرفانطيس وبقي في الاسر خمس سنوات.

الفصل الرابع

في تعافينا وذهابنا للدراسة في قلعة هناريس

دخلنا دار ضون الونصو فالقونا على سريرين بعناية كبيرة لئلا تتبدد عظامنا التي أضناها الجوع وجاؤوا بكشافة يفتشون عن اعيننا في الوجه كله اما انا وقد كان تعبي اكثر وجوعي اشد ـ اذ كنت على كل حال اعامل كخادم ـ فقد مضت برهة غير يسيرة قبل ان يعثروا على عيني. ثم جاءوا ناطباء فأمروا بان ننظف بمسافر من ريش كما ننظف الروافد (1) التي وراء المذابح. والحق يقال اننا كنا معذبين ولا عذاب الشهداء وأمروا

---

(1) أتى المؤلف هنا بتورية في كلمة retablo التي معناها «رافدة وراء المذبح» ومنها التعبير retablo de duelos أي رافدة الالام الذي معناه «معذب»

أيضا بان يعطى مرق الدجاج. اه! من لي بمخبر اول لعوق واول طائر بالشموع التي اوقدتها امعاؤنا فرحا اذ كل شيء كان عندها جديدا.

وأمر الاطباء ان لا يرفع احد صوته في غرفتنا مدة تسعة ايام لان معدتينا كانتا خاويتين يسمع في داخلهما صدى كل كلمة تلفظ.

فبهذه العناية وغيرها بدأنا نسترجع الحياة. غير ان فكوكنا لم تكن لتقوى على التحرك اذ كانت سوداء ثابتة. فاشير بان يعدلوها لنا كل يوم بواسطة يد الهاون. وبعد اربعة ايام بدأنا نخطو بعض الخطوات ولما نزل كأشباح رجال آخرين. وبنحولنا وهزالنا كنا كأننا من سلالة نساك الصحاري.

وكنا نقضي النهار في رفع تشكراتنا الى الله الذي فكنا من اسر كابرا الغشوم ونتوسل الى المولى عز وجل الا يسمح بوقوع واحد من النصارى بين يديه القاسيتين واذا حدث اثناء الاكل ان تذكرنا ما كنا نطعم في دار المعلم ازداد جوعنا

ازدیادا تتضاعف معه نفقة ذلك اليوم. وكثيرا ما كنا نقص على ضون الونصو كيف كان يقبح لنا النهم حين يجلس امام الخوان مع انه لم يعرفه قط في حياته. وكثيرا ما يقهقه حين نخبره بانه كان يدخل ضمن الوصية الالهية القائلة «لا تقتل» الحجال والديوك وكل ما لا يريد ان يعطينا اياه وكنتيجة لكل هذا الجوع نفسه، اذ يظهر انه كان يعتبر من الخطايا لا قتل الجوع فحسب بل وتربيته حسبما يؤخذ من طعامه.

وهكذا انقضت ثلاثة اشهر واخيرا عزم ضون الونصو على ارسال ابنه الى قلعة هنارس ليتم دراسة النحو. فسألني عما اذا كنت اريد مرافقته ولم أكن لارغب الا في الرحيل عن ارض يسمع فيها اسم ذلك اللعين مضطهد الحشا. فعرضت عليه ان أكون خادما لابنه وعين له احد الخدمة قهرمانا يدبر شؤون الدار ويقدم له حسابا عما ينفق من المال الذي كان يرسله لنا بحوالات على رجل اسمه خوليان مرلونا. ووضعنا الامتعة في عجلة

رجل يدعى دييغو مونخي وكانت تتألف من سرير نصفي وسرير آخر من امراس في اسفلها دواليب لتوضع تحت السرير الاخر الذي كان لي وللقهرمان المسمى ارانداء ومن خمسة فرش وثماني ملاحف وثماني مخدات واربع بسط وصندوق يحتوي على الملابس الداخلية والسمط وبقية عفاش الدار. وركبنا نحن في عربة عند الاصيل قبل الغروب بساعة ووصلنا عند نصف الليل الى خان «بيبيروس» (2) لا بارحته اللعنة وكان صاحب الفندق طرارا من الموريسكوس (3) فبالغ بالحفاوة

---

(2) خان «بيبيروس» Venta de viveros. كان هذا الخان قائما على الطريق بين مدريد والقلعة فيحل فيه الطلاب في ذهابهم وايابهم. وقد اشتهر بما كانوا يقومون به فيه من مداعبات. وورد ذكره في عدة مؤلفات هزلية من ذلك العهد

(3) الموريسكوس: الاسم الذي اطلق على بقايا المسلمين في الاندلس. ثم ظل مستعملا لمن اعتنق منهم النصرانية

بنا. وبما انه كان على اتفاق مع رجال العربة – الذين وصلوا بالامتعة قبلنا اذ كنا نسير على مهل – التصق بها ومد يده لمساعدتي على النزول منها وسألني اذا كنت ذاهبا للدراسة. فاجبته ان نعم، فقادني الى الداخل حيث كان سفيهان بصحبة بعض الفاسقات وكاهن بصلي، وتاجر شيخ شحيح يحاول ان يتناسى حاجته الى العشاء وطالبان من ذوي المعاطف القصيرة (4) يفتشان عن شيء يلتهمانه. فقال مولاي على صغره وحداثة عهده في الفندق: «يا صاحب الثوى! اعطني ما عندك لي ولخادمين» فأجاب فورا احد السفهاء: انما كلنا خدام لحضرتك ولا بد لنا من القيام بخدمتك! أي صاحب الفندق! فليكن بعلمك ان هذا السيد يشكرك على كل ما نقوم به. فافرغ ما ادخرته وما كاد ينتهي من هذا الكلام حتى

---

4) ذوي المعاطف القصيرة. كان الطلبة الفقراء الذين يرافقون طلبة اغنياء كخدم لهم يتميزون عنهم باثوابهم

وصل واحد آخر ونزع المعطف عن ضون دييغو قائلا: «فلتسترح حضرتك يا سيدي» ووضع المعطف على مصطبة هناك اما انا فقد استولت علي عند رؤيتي كل هذا روح الكبرياء وصرت كأني رب الفندق، وحينذاك قالت احدى الفاجرات «ما أحسن سمته وانبله! ألمدراسة يذهب؟ او انت خادمه؟» فاجبت معتقدا بان الامر كما يقولون باننا انا والاخر خادماه، فسألوني عن اسمه وما كدت اتلفظ به حتى وصل احد الطالبين متباكيا وعانقه معانقة حارة ثم قال: «آه يا سيدي ضون دييغو. من كان ليقول لي منذ عشر سنين اني سأراك اليوم على هذه الحالة! تبا لي من مسكين. ان حالتي قد تغيرت الى حد انك لم تعد تعرفني» فدهش ضون دييغو ودهشت انا ايضا بحيث اقسمنا فيما بيننا اننا لم نره قط. واثناء ذلك كان الطالب الاخر يتفرس في ضون دييغو. ثم قال لصديقه أهذا هو ذلك السيد الذي طالما حدثتني عن أبيه؟ اجل لقد شاء حسن طالعنا ان نلتقي به ونتعرف عليه على

كبره، صانه الله! ثم أخذ يرسم على صدره اشارة الصليب. وبعد هذا كله من لا يصدق انهما زيـا معنا؟ اما ضون دييغو فقد عرض عليه مساعدته وبينما كان يسأله عن اسمه خرج صاحب الفندق وبسط السماط واذ شم رائحة الاحتيال قال: «دعوا هذا فبعد العشاء تتحدثون اما الآن فقد يبرد الطعام. ثم وصل احد السفهاء فوضع مقاعد للجميع وكرسيا لضون دييغو، وجاء الاخر بصحيفة وقال الطالبان «فلنعش حضرتك الآن واما نحن فسنقوم بخدمتك ريثما يهيئون لنا شيئا مما حضر. فصاح ضون دييغو قائلا: «حاشا ان يكون ذلك. لا بل تجلسان وتخدمان». فأجاب السفهاء - مع ان كلام ضون دييغو لم يكن موجها اليهما - «لا يا سيدي! فيما بعد. اذ لما يفرغ من اعداد كل شيء». اما انا فحين رأيت البعض يدعون والاخرين يدعون انفسهم استولى علي الغم وخفت من وقوع ما وقع لان الطالبين تناولا السلطة التي كانت تملأ قصعة لا بأس بها وتطلعا الى مولاي

قائلين «ليس من اللائق ان تبقى هاتان السيدتان بلا أكل حيث يوجد سيد من قدرك فلتامر حضرتك بان نصيبهما لقمة فما كان منه الا ان دعاهما تأدبا فجلسنا امام الخوان وبأقل من اربع لقم انتا هما والثالبان على السلطة» فلم يتركوا منها سوى قلب خسة ازدرده ضون دييغو. وحين ناوله اباه ذلك الطالب الخبيث قال: كان احد اجدادك وهو عم والدى اذا رأى خسا اغمى عليه فرحا. أجل لقد كان رجلا كل الرجل. وما كاد يفرغ من كلامه هذا حتى تناول قريصا من الخبز وتناول رفيقه قريصا آخر حيث ان الفاجرتان كانتا قد ابتلعتا رغيفا كاملا غير ان الذى فاق الجميع أكلا هو الكاهن ولكن بالنظر فقط. ثم جلس السفيهان امام نصف جدى مشوي وشريحتين من شحم الخنزير وفرخي حمام مطهيين وقالا: «ياحضرة الاب! علام انت هناك ؟ اقترب ومد يدك فان مولاى ضون دييغو يغمرنا جميعا بفضله» وما كادا يقولان هذا حتى كان الكاهن جالسا معهم.

وحين رأى سيدى ان الجميع قد تراكموا عليه بدأ يغتم. وتقاسموا كل شئ فيما بينهم. واعطوا ضوز ديبغو بعض العظام والاجنحة اما البقية فقد التهمه الكاهن والاخرون. وكان السفيهان يقولان لا تتعش كثيرا ياسيدي فانه مضر، فيجيبهم الطالب الملعون وعلاوة عن ذلك من الواجب ان نعتاد على قلة الاكل للاقامة في القلعة، (ة) وكنـا انا والخادم الاخر نتضرع الى الله ان ترق قلوبهـم فيتركوا لنا شيئا وبعد ان أكلوا كل شيء التفت احد السفيهين وقال وبحي من خاطي! اننـا لم نترك شيئا للخدم. الويل لكم! ياصاحب الفندق اعطهم ما توافر لديك وهاك هذا الدينار، فقاطعه فجأة نسيب مولاي الشرير – اعني الطالب الاخر – قائـلا اسمح لي باحضرة الشريف ان اقول لك انك لاتعرف كثيرا من اصول المجاملة أترى انك تعرف ابن عمي؟ أجل! انه ليطـعم خدمه وحتى خدمنا لو كان لدينا خدم كما أطعمنا نحن فرد

(ة) يعني قلعة هنارِيس

عليه الاول قائلا. «لا تغضب ياصاح، فاني لم أكن لاعرفه حق المعرفة. وحين رأيت انا هذا المكر الكبير اغدقت عليه من اللعنات ما كنت أعتقد أنه لا آخر له

وزفع الخوان واشار الجميع على ضون دييغو بالرقاد اما هو فاراد ان يدفع ثمن العشاء لكن الباقين اجابوه بان لديه متسعا من الوقت ليقوم بذلك في اليوم التالي. وامضوا شطرا من الوقت في السمر واستفسر ضون دييغو الطالب عن اسمه فاجاب قائلا انه يسمى ضون فلان كورنيل أحرقه الله بنار جحيمه أنى كان هذا الكذوب! ورأى الرجل الشحيح قد رقد فقال «أتريد حضرتك ان تضحك؟ فلنعد لعبة على هذا الشيخ الذى لم ياكل سوى اجاصة طول الطريق مع انه وافر الثروة» فقال السفيهان نعم ما راى الطالب؟ افعل ما بدا لك فانت في ذلك مصيب، فتقدم الطالب وسحب من تحت رجلي الشيخ النائم خرجا وفضه فاذا فيه صندوق فاقبل الجميع كمن يقبل على صوت النفير

يدعو الحرب. وفتحوه فاذا هو مملوء من الحلوى فاخرجها الطالب ووضع مكانها أحجارا واعوادا وغير ذلك مما وقعت يده عليه، ثم برز فوق ما وضعه ووضع فوق البراز نحو اثنتي عشرة آجرة قديمة ثم أغلق الصندوق وقال : ما هذا بكاف فان معه زقا. ثم اخرج الخمر من الزق واتى بمخدة من عربنا فجردها من غشائها وبعد ان صب في قعر الزق قليلا من الخمر ملأه صوفا ومشاقة ونده ثم ذهب الجميع ليرقدوا ساعة أو نصف ساعة بقيت ووضع الطالب كل شيء في الخرج، وجعل حجرا كبيرا في قبعة الرداء واخيرا مضى ليرقد. وحين وافت ساعة الذهاب افاق الجميع سوى الشيخ فقد ظل نائما. فنادوه وحين نهض لم يقو على رفع قبع الرداء فنامل ما فيه واذا بصاحب الفندق يصيح به عن قصد : يالله! ألم تجد ايها الشيخ ما تذهب به سوى هذا الحجر؟ ما راى حضراتكم لو انه مضى دون ان اراه؟ واني لافضل هذا الحجر

على مائة دكة (6) لانه يشفي وجع المعدة: وكان الشيخ يقسم ايمانا معلظة أنه لم يضع هذا الحجر في القبعة.

وحسب السفيهان ثمن العناء فاذا به يبلغ ستين بليونا. أجل: ان خوان دي لبعانوس (7) ليعجز عن فهم هذا الحساب وكان الطالبان يقولان فيما اننا سنخدم حضرتك في القلعة فاننا مقابل ذلك نعتبر انفسنا براء من النفقة، ثم فطرنا قليلا وتناول الشيخ خرجه وحل رباطه في الظلمة تحت الرداء لئلا نرى ما يخرجه ولا يتقاسمه مع أحد. وامسك كسرة اجرة مدهونة والقاها في فمه وضغط عليه بضرس ونصف سن كانا باقيين له ولولا اليسير لاضاعهما فاخذ يبصق ويبدي امارات الاشمئزاز والالم فوصلنا كلنا اليه والكاهن في المقدمة مستفسرين اياه عما حصل له. وشرع الرجل

---

(6) دكة ducado نقد ذهبي اسباني قديم

(7) Juan de Leganos يظهر انه شخص خيالي تضرب به العامة المثل في الذكاء.

يستعيذ بابليس ورمى الخرج فوصل اليه الطالب
قائلا. -وراءك يا ابليس، ان الصليب فوقك، وفتح
آخر كتاب صلاة الكاهن وحملوه على الاعتقاد
بان به مسا حتى أقر اخيرا بحقيقة ما جرى
وطلب منهم ان يتركوه يتمضمض بقليل من
الخمر جاء به في الزق فتركوه واخرج الزق وفتحه
ثم صب في كأس قليلا من الخمر فخرج من الزق
خمر بري اوبر الحي ممزوج بالصوف والمشاقة
بحيث لا يمكن ان يشرب ولا ان يصفى وحينئذ
عيل صبر الشيخ لكنه عند ما رأى القهقهات
تتصاعد فضل السكوت وركوب العربة مع السفيهين
والنساء. اما الكاهن والطالبان فامضوا حيارا
وجدنا نحن في العربة وما كدنا نشرع بالسير
حتى أخذ الجميع يهزؤون بنا علانية مبينين ان ما
فعلوه بنا انما كان سخرة. وكان صاحب الفندق
يقول ياحديث العهد تكفيك فاتحات قليلة كهذه
لتشيب ويرد الكاهن قائلا: كاهن انا فثم تقام
لك قداسات بدل هذا. ويصيح الطالب اللعين

قائلا: يا ابـن عمي! في المرة القادمة حك جلدك حين تعض لا بعد ذلك» اما نحن فتغاضينا عما كانوا يقولونه- والله يعلم كم كان خجلنا كبيرا.

وبين هذه وتلك وصلنا المدينة وحللنـا في احد الفنادق وامضينا النهار كله ـ اذ كنا قـد وصلنا الساعة التاسعة ـ في عد ثمن العشاء الفائت دون أن نتمكن من تقويم حساب ما انفق.

الفصل الخامس

في دخولنا قلعة هناريس ودفع ضريبة الثامنة وما لحقني من هزء لجدتي في المدرسة

وقبل ان بلغني الملل رده عادرنا الفندق الى الدار التي اكتريناها لنا وكانت واقعة حد ج باب سنتياقب (1) مقام الطلاب حيث يسكن الكثير منهم في دار واحدة وان لم يكن في دارنا هذه سوى ثلاثة طلاب آخرين لا غير. وكان صاحبها من الذين يؤمنون بالله مجانسة فحسب او مكرا وخداعا وهؤلاء هم المعروفون بين العامة باسم الموريسكوس والمنتمون الى هذا الصنف كبيرون.

---

(1) باب سنتياقب ـ كان هذا الباب واقعا في شمالي المدينة قرب الكنيسة والشارع اللذين يحملان اليوم هذا الاسم

وكذلك ذوو الانوف الواسعة تشم كل رائحة ما
خلا رائحة سم الخرير (؟) اقول هذا مع اعترافي
بالسل الذي يصف به كما هي وانهم يعتدون

وقد استقبلني صاحب الدار بوجه عابس ولا
استقباله العربان الافدس وليس ترى اكثر صنعه
هذا تحملا على احترامه أم من صنعه [illegible]
من الشعوب [illegible] تكون رجال سوء من كان ذا
[illegible] وضعنا امتعتنا وعددنا السرير وبقينا
بعداء [illegible] تلك الليلة وحين اصبح الصباح اذا
تجمع [illegible] قد اقسموا امام البوم يطالبون
مولاي [illegible] ضريبة [illegible] وقال هو يجهل
معنى ذلك [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible]

فانسللت اثر ذلك بين فراشي اتقاءً لما قد يقع
ولم يبق خارجاً سوى نصف رأسي كأني سلحفاة
وظلوا دقيقتين من اللبس فاعتلوا ما خلعوا
وحينئذ اخذوا يصيحون باعلى اصواتهم صياحاً
[illegible] قائلين نحيي الرفيق ونعمل في حصن
صدقه [illegible] مع عبارات الاقدمية [illegible] من
[illegible] تاجر [illegible]
[illegible] وبعد هذا [illegible] له
[illegible]
[illegible]
[illegible] بعض التلامذة [illegible]
وهكذا [illegible] اما انا [illegible]
[illegible] آخر [illegible]
[illegible] كانت [illegible]
[illegible] لاجرة وبداوا [illegible]
[illegible] كان [illegible]
في نفسي لكن ذلك لم [illegible]
او سبعة وبداوا يضحكون فاحمرت وجناي! — !

سمح الله بذلك فيما بعد! ـ اذ امسك في الحين واحد منهم كان الى جانبي انفه بيديه وابتعد عني قائلا: من رائحة هذا العازار نرى انه يحتاج الى الى من يقيمه من الموت (1) فابتعد الجميع اذاك عني وسدوا انوفهم. فظننت حينئذ انني سانجو فسددت ايضا انفي بيدي وقلت: ان حضراتكم لعلى حق: اجل، ان رائحته لنتنة فضحكوا كثيرا مما قلته وكانوا قد بلغوا حين ابتعدوا ما يقارب المائة وابتدأوا حينئذ يستجمعون ما في افواههم وحناجرهم وبحت من خلال السعال والاشداق تفتح وتغلق ان نفثات كثيرة تتهيأ للفتك بي. واثناء هذا تقدم طالب منتساوي (2) مزكوم ورماني بنفثة كبيرة وقال متباهيا «اليك ما اصنع اما انا فرأيت نفسي اذاك في مأزق حرج وقلت: والله انني سـ... ولكن غيثا من البصاق الغليظ سقط علي بشدة فحال بيني وبين تمام الجملة التي بدأتها.

---

(1) يريد بذلك انه نتن كالميت البالي

(2) اي اصله من مقاطعة المانتشا

وكان وجهي مغطى بالمعطف. وكنت في حالة من الهياج بحيث كان الجميع يسددون سهام نفثاتهم نحوي وبالله كيف كانوا يصيبون المرمى. وهكذا اصبحت كالمغمور بالثلج من قمة رأسه الى اخمص قدميه. لكن احد الناكرين حين رآني منتصبا ورأى وجهي لم يصب بشيء اسرع نحوي قائلا بغضب كبير: كفى! لا تقتلوه. وبما انني كنت لاعتقد من تصرفاتهم هذه بانهم قاتلي لا محالة كشفت عن وجهي لاستطلع الخبر واذا بذاك الذي كان يصيح يرميني بنفثة بين عيني. فتأمل مبلغ غيي في هذه الحالة! ثم اخذت تلك الجماعة الجهنمية تصيح صياحا ثقيلا علي. وقد استنتجت مما رددوه علي من معلقهم انهم ينتظرون قدوم طلاب جند ليستمشوا توفيرا لاجرة الاطباء وثمن الادوية. وبعد هذا كله ارادوا صفعي على قفاي. لكنهم لم يجدوا مجالا لوضع يديهم علي دون ان يذهبوا نصف الزبد الذي على معطفي الاسود الذي ابيض بسبب ذنوبي وآثامي فتركوني وشاني وبقيت كصحيفة

الشيخ مبللا بالبصاق، فسرت الى داري وما اصبت في دخولها الا بعد جهد النفس. ومن حسن طالعي ان الوقت كان صباحا اذ لم اصطدم الا باثنين او ثلاثة من الغلمان الطيبي القلب دون شك لانهم اقتصروا على الهزء بي ثم مضوا في حال سبيلهم. فدخلت الدار وحين رآني الموريسكو اخذ يضحك ويأتي بحركات كمن يحاول البصق على فخفت من ان يفعله وقلت له: «بالله عليك ياصاح! لست انا «المسيح المجلود (6)» ويا ليتني لم افه بها لانه نفحني برطلين من الضربات على كتفي

---

6) Ecce-homo «هذا هو الرجل». هذه هي العبارة التي لفظها بيلاطوس البنطي امام اليهود بعد جلد المسيح. ويطلق الان هذا الاسم على صورة المسيح مجلودا وكذلك من نوع المجاز على رجل ابغشه الوجه. وقد اخطأ المؤلف هنا استعمال هذا التعبير لان صاحب الفندق من اصل مسلم لا يهودي فلو كان يهوديا لكان من شان هذه الكلمة ان تثير غضبه

بالعبارات التي كانت بين يديه وبعد ان استلمت هذا الحلوان صعدت الى الطابق الاعلى شبه كسيح وقضيت برهة طويلة في البحث عن نقطة امسك بها الجبه والمعطف واخيرا نزعته عني وعلقته على السطح وارتميت على الفراش وبعدئذ جاء سيدي وبما انه وجدني نائما وكان يجهل الحادثة الكريهة التي اصابتني فقد غضب واخذ يقفسني بسرعة الى حد انه لو زاد على ذلك قفستين لاستفقت اصلع. فقمت معربدا مستكبا فانتهرني سيدي وقد ازداد غضبه قائلا: اهكذا تخدمني يا بابلوس؟ ام انها حياة اخرى؟ اما انا فحين سمعت قوله «حياة اخرى» ظننت انه الموت فقلت: اجل. ان حضرتك تشجعني في عملي. انظر الى تلك الجبة وذلك المعطف اللذين قاما مقام فوط لاكبر انوف سوهدت في جوانب الاسبوع المقدس وما كدت اردد [illegible] كلمات حتى اخذ الدمع ينحدر من [illegible] رأى نحيبي صدق قولي وبحث عن الجبة [illegible] ورق لي وقال: افتح عينيك يا بابلوس فان الامر

هنا الشديد وليس لك من يسهر عليك سوى نفسك، واخبرته بكل ما وقع لي فامرني بنزع ثيابي وبحملي الى مرقدي حيث كان يرقد اربعة خدام اخرين لرئيس الدار وهناك نمت. وعند الليل بعد ان تناولت غداء وعشاء طيبين وبفضل ما نمته شعرت بنفسي قويا كما لو انه لم يقع لي شيء البتة لكن حين تبدأ النكبات بالسقوط على المرء يظهر انها لا نهاية لها فتستمر متسلسلة بجر بعضها البعض فقد اقبل بقية الخدم ليرقدوا وبعد ان حيوني سألوني عن سبب ملازمتي الفراش وعما اذا كنت مريضا فقصصت عليهم قصتي. فأخذوا يرسمون على وجوههم اشارة الصليب كأن نفوسهم لا تخشى اي شر قائلين: ان شنيعة كهذه لا تقع حتى بين اللوثريين (1) انفسهم! آه كم من الشر في الناس! ويقول الآخر: ان عميد المدرسة هو المسؤول لانه لا يضع حدا لهذه الامور، اتعرف الذين فعلوا هذه الفعلة؟ فاجبته ان لا وشكرتهم على

---

(1) اتباع لوثر مؤسس البدعة البروتستانطية

المعروف الذى كان يلوح انهم سيقومون به نحوى. وخلال هذه المسامرة فرغوا من نزع اثوابهم ورقدوا بعد ان اطفأوا الضوء ورقدت انا بدوري وقد خيل لي انى بين والدى واخوتي.

وحوالي الساعة الثامنة عشرة اذا باحدهم يقفز بصياحه قائلا: «آه انهم يقتلونني! اللصوص! اللصوص» وكادت تدوى على سريره اصوات ووقع مقارع فرفعت رأسي وقلت: «ما هذا؟» وما كدت انكشف حتى كانت مقرعة غليظة ذات جدل تنهال على ظهري. فمددت ايدى وحاولت النهوض وكان الآخر يمسكني ايضا انما المقارع تنهال على وحدي. فرأيت اصيح قائلا: «بعدل الله» لكن المقارع كانت تنهال علي بسرعة الى حد انه لم يبق لي من وسيلة — اذ كنت رميت باللحف الى اسفل — سوى الاختباء تحت السرير. وهذا ما فعلته. وفي الحال حذا الثلاثة الآخرون الذين كانوا نائمين يصيحون ايضا وسمعت ان المقارع كانت لم تزل تدوى فخمنت ان واحدا قريبا منه يضربنا جميعا. وبينما هذه المقارع تلت

الذي كان بجانبي الى سريري وبرز فوق الفراش ثم عضى البراز. وبعد ان عاد الى سريره انقطع دوي المقارع وقام الاربعة صائحين قائلين: «انها لخدعة كبيرة ويجب ان لا تمضي هكذا» اما انا فكنت لم ازل تحت السرير اشتكي ككلب شد الباب على ذنبه، منكمشا كالسلوقي الاشنج فتظاهر الاخرون بانهم يغلقون الباب وحينئذ خرجت من حيث كنت وصعدت الى سريري مستفسرا الباقين عما اذا كانوا قد اصيبوا باذى. فاذا بالجميع يشكون كمن اشرف على الموت.

فنمت وتغطيت ورقدت ثانية. وبما اني كنت انقلب في الفراش وانا نائم فقد وجدت نفسي حين استفقت وسخا من قدمي حتى وسط جسمي ونهض الجميع وبقيت انا نائما معتذرا عن اللباس بالمقارع التي نلناها ليلا. وما كنت لاتحرك من الجانب الذي ارقد عليه، وكان الخجل مستوليا علي بينما كنت افكر فيما اذا كنت ياترى قد اتيت بتلك الفعلة الشنيعة من جراء الخوف وسط

ذلك الاضطراب دون ان اشعر بالامر ام حيث كنت نائما. وملخص القول اني كنت بريئا متهما دون ان اعرف كيف ادفع التهمة عن نفسي.
ووصل الرفاق الى ذكين مداحين ليسألوني عن حالي فاجبتهم انها سيئة للغاية لانني تلقيت مقارع كثيرة. وسألتهم عما يمكن ان يكون ذلك فقالوا: لعمري انه لن يفلت من ايدينا لان الساحر سيعلمنا به. ولكن لندع هذا ونر هل احسست بجراح ذلك عكس الشكوى وما كادوا يقولون هذا حتى تقدموا لرفع اللحاف رغبة في فضحي. واثناء هذا دخل سيدي قائلا: امن الممكن يابلوس ان اعجز عن حملك على اطاعتي؟ انها الساعة الثامنة وانت لم تزل في الفراش قم قبح الله وجهك. فقص عليه البقية القصة كلها مدافعة عني وطلبوا منه ان يتركني نائما. وكان احدهم يقول: واذا كنت حضرتك لا تصدقه فلنقم ونمسك باللحاف لنرفعه لكي كنت عاضا عليه باسناني لئلا يروا البراز. وحين رأوا ان لا نتيجة من انتاج ذلك

السبيل صاح احدهم قائلا : يالله! يالها من رائحة كريهة ورد ضون ديغو الكلام نفسه لان ذلك كان حقا ثم اخذ الجميع يفتشون لعل في الغرفة مبولة ويقولون انه لا يمكن القاء هنالك. وقال احدهم: ان هذا لحسن جدا لمن ازاح الدرس وفتشوا الاسرة ورفعوا الفرش ليروا تحتيها ثم قالوا «لا شك ان تحت سرير بابلوس شيئا ما. فلننقله الى احد اسرتنا ولنفتش تحته اما انا وقد شاهدت ان الصفقة خاسرة وانهم لا محالة مكتشفون امري، فتظاهرت بالصرع وقبضت على عيدان السرير مقلبا وجهي وحيث كانوا واقفين على الحقيقة بالغوا في نكايتي قائلين : يا للمسكين، فامسكني ضون ديغو باصبعي الوسطى واخيرا تمكن الخمسة معا من رفعي. وحين رفعوا الملحفة كادت الدار تميد من قهقهاتهم اذ وقعت ابصارهم على شيء جديد لم يكن فرخا وحسب بل حمامة كبيرة (8)

---

8) Palomin فرخ حمام. وتطلق مجازا على لطخة من البراز في اسفل القميص وبهذا المعنى

وكان الماكرون يتظاهرون بالتأسف على قائلين.
يا له مسكين اما انا فتظاهرت بالاغماء فاشاروا
على مولاي بان يكثر من جذب اصبعي الوسطى
ومن كثرة ما جذب معتقدا انه ينفعني بذلك
فك لي تلك الاصبع. وحاول البقية ان ينيلوني بعض
المقارع على فخذي ويقولون. لا شك ان المسكين
قد ذهب الآن حين اصابه الصرع والله يعلم ما
كان يجول اذاك في نفسي مما خفي من حجز
ومن فك اصبعي ورفعي ذاتي على وشك ان
اضرب بالاسواط. واخيرا تظاهرت بالعودة الى ذاتي
خوفا من ان اضرب اذ كانت الامراس قد وضعت
فوق فخذي. وبما انهم كانوا يتصرفون عن خبث
فبالرغم عن اسراعي في التظاهر بالعودة الى ذاتي
تركوا لي في كل فخذ علامة قدر اصبعين، ثم
تركوني قائلين: بالله يا لك من هزيل وكنت
أبكي غضبا فيقولون متعمدين. لا داعي لبكائك

استعملها المؤلف وقابلها بكلمة حمامة Paloma دلالة
على كثرة الطلخات وكبرها

لان ما نفعله انما هو من اجل صحتك لا عقوبة على تبرزك ثم وضعوني في السرير بعد ان غسلوني وذهبوا.

وحين خلوت بنفسي ما برحت أفكر في كيف ان ما وقع لي في القلعة خلال يوم واحد يربو على كل ما وقع لي عند كابرا. وعند الظهر ارتديت ملابسي ونظفت الجبة قدر طاقتي – اذ غسلتها كما تغسل الخرق – وانتظرت سيدي الذي ما كان يصل حتى استفسرني عن حالي. واكل جميع من في الدار واكلت انا ايضا وان يكن بلا شهية ثم اجتمعنا لنتحدث في الرواق وبعد ان تهكم الخدم الاخرون علي اتضحوا اخرا عن الحيلة التي دبروها لي ليلا. فضحك الجميع وازددت انا خجلا وقلت في نفسي: حذار حذار يا بابلوس، وعزمت اذاك على انتهاج حياة جديدة ومذاك تصاحبنا وعشنا كل من كنا نسكن تلك الدار كالاخوة. ولم يزعجني احد بعد ذلك اليوم لا في المدرسة ولا في صحون الديار.

الفصل السادس

في فضائع الوصيفة وما اتيت به من كياسة

يقول المثل السائد وهو في القول مصيب «افعل حسبما ترى» ولشدة ما تاملت في هذا المثل عزمت على ان اكون ماكرا مع الماكرين وان اكون امكرهم اذا امكن الامر. ولا ادري اذا كنت حققت رغبتي لكني اؤكد لحضرتك اني بذلت جهدي في ذلك

واول ما فعلته اني حكمت بالاعدام على كل الخنازير التي تدخل دارنا وعلى جميع ديوك ربة الدار التي تجتاز من حوشها الى غرفتي. فحدث ذات يوم ان دخل خنزيران من ازهى ما شاهدت في حياتي وكنت اذاك مع بقية الخدم وسمعتهما ينخران فقلت لاحدهم. «امض وانظر من ينخر في دارنا» فعاد قائلا انهما خنوصان فما سمعت هذا

حتى استولى على الغضب وبادرت اليهما قائلاً ان النجيء لدار الغير لمنتهى المكر والقحة واعقبت كلامي بطعنة خنجر في صدر كل منهما بينما اوصدنا الباب، ثم اجهزنا عليهما قفوا. ولئلا تسمع الضجة التي كانا يحدثانها جعلنا نرفع اصواتنا بالصياح كما لو كنا نغني. وهكذا قضينا نحبهما بين ايدينا ثم اخرجنا الكرشين وجمعنا الدم وشحماهما فيلا فوق شيء من العش في الحظيرة. بحيث انه حين قال استاذنا كان كل شيء منهيا وان لم يكن على غاية ما يرام. ما عدا الكرشين فاننا لم نفرغ من تحويلهما محيدا وما ذلك لعدم الاسراع لدينا والحق يقال قد تركنا فيهما دفعا للمخاطر نصف ما كان في داخلهما

ثم اطلع ضون ديبغو والقهرمان على الامر وحنقا علي حنقا شديدا اجبر معه النازلين في الدار الذين كادوا لا يتمالكون من الضحك ان يتصدوا للدفاع عني. وكان ضون ديبغو يسالني عما اقوله فيما اذا اتهمت وقبضت علي يد العدالة. فاجبته

باني استنجد بالجوع الذي هو حرم الطلاب وان لم يجدني ذلك نفعا اقل: بما انهما دخلا الدار دون ان يقرعا الباب كمن يدخل داره ظننت انهما لنا فضحك الجميع من الاعتذار وقال ضون ديغو .بالله عليك ياباblوس! كيف انك تحسن التخلق بثوب من حولك. فقد كان مما يستلفت النظر مشاهدة مولاي على غاية ما من الهدوء والتدين ومشاهدتي انا على غاية من الشطارة اذ كنا على طرفي نقيض احدنا يبالغ في الفضيلة والاخر في الرذيلة.

اما الوصيفة فكانت لاتتمالك من الفرح لانني كنت واياها يدا واحدة فائتمرنا ببيت المؤونة وكنت انا وكيل الخرج يهوذا (1) ومنذئذ ورثت في هذه المهنة شغفا بالسل مما اشتريه. فاللحم لم يكن يتبع بين يدي الوصيفة الترتيب البياني لانه كان يسير دائما من اكثر الى اقل. ومتى امكنها ان

(1 اشارة الى يهوذا الاسخريوطي الذي باع السيد المسيح

نستبدل بالضان لحم ماعز او نعجة لم تحجم عن ذلك واذا وضعت في المرق عظاما لم يدخله شيء من الهبر وهكذا كانت تعد قدرا من الطعام كأنها مسلولة من شدة الهزال. ومرقة لو جمدت لامكن أن نصنع منها سموط من خرز. وتمييزا للعيدين كانت تضيف الى القدر لتسنها بعض اطراف من شحم الغنم، وكانت تقول لمولاي بمحضري: «الحق يقال انه لا مثيل لبابلوس في الخدمة لو لم يكن شاطرا» فلتحتفظ به حضرتك اذ يمكن غض الطرف عن شطارته مقابل امانته فانه يأتي بخير ما في السوق فاثني على ذلك مثلما قالت عني. وهكذا كانت الدار واقعة في أحابيل خديعتنا. فاذا اشترينا زيتا او صابونا او شحم خنزير بالجملة خبأنا النصف، وحين يظهر لنا الامر مناسبا نقول انا او الوصيفة: «رويدا! رويدا في النفقة. فوالحق ان واظبتم على الاسراف فان خزينة الملك لا تكفيكم، وها قد نفد الصابون او الزيت. احال! لقد نفد سريعا. ولكن فلتامر حضرتك

بشراء كمية جديدة وانا الكفيلة بانها ستدوم اكثر بكثير من السابقة' اعطوا مالا لبابلوس، فيعطوني المال ونبيع حينئذ النصف الذى كان مخبئا ونصف ما نشتريه. وهكذا في كل شيء. واذا حصل اني اشتريت مرة شيئا من السوق بثمنه الحقيقى فكنا نتنازع عن قصد انا والوصيفة فتقول هي غاضبة:

'لا تقل لي يا بابلوس ان هذه السلطة تساوي درهمين، فاتباكى واصيح واذهب الى مولاي لاقدم له شكواي ملحا عليه في ان يرسل القهرمان الى السوق ليتاكد من الامر كى تسكت الوصيفة التي كانت تصر على رأيها عن عمد. فيذهب القهرمان ويسأل عن الثمن ويعرفه. وبعدئذ نضطر الى استسلام رب البيت والقهرمان اللذين كانا يثنيان على تصرفاتي من جهة وعلى غيرة الوصيفة من جهة اخرى. فيقول لها ضون دييغو مغتبطا بي: 'لو ان بابلوس يجرى في ميدان الفضيلة كما يجرى في ميدان الامانة! هذا هو الاخلاص بعينه فما تقولين فيه؟'

وهكذا ظللنا نمصهما كالعلق. واني اراهن على أن فرائصك سترتعد من عظم ما بلغت في آخر السنة كمية المال المنفق ولاشك انه كان كثيرا. لكنه لم يكن ثمة موجب للارجاع لان الوصيفة كانت تعترف وتتناول كل ثمانية ايام ومع هذا لم ار منها قط رغبة في ارجاع شيء ولا توبة على ما نفعله بالرغم عن قداستها كما أخبرتك اذ كانت تحمل في عنقها سبحة في منتهى الكبر بحيث ان حمل حزمة من الحطب كان ارخص من حملها. وكانت تتدلى منها رزم من الصور والصلبان والخرزات الكبيرة وتقول انها تصلي بتسبيحها من اجل المحسنين اليها وتعد نيفا ومائة قديس شفعاء لها. وفي الحقيقة كانت بحاجة الى كل هذه المساعدات لتعوض عما ترتكبه من الخطايا. وكانت ترقد في غرفة فوق غرفة سيدي وتردد من الصلوات اكثر مما يردده الاعمى. فتبدأ بصلاة «القاضي العادل» وتنتهي بـ«علينك السلام ايتها الملكة» وتردد هذه الصلوات باللغة اللاتينية عن قصد، متظاهرة بالبراءة مما

يحملنا جميعا على ان نستلقي على ظهورنا من شدة الضحك وكانت بارعة في امور اخرى فتستهوي الارادات وتستميل الاذواق وذلك يوازي ان يقال عنها انها قوادة لكنها كانت تعتذر امامي قائلة ان هذا الفن جاءها عن سبيل الوراثة كما تلقى ملك فرنسا نعمة شفاء داء الخنازير (2)

وقد تظن حضرتك اننا كنا دائما على اتفاق تام ولكن من يجهل انه اذا كان صديقان جشعان يعيشان معا لا بد ان يحاول كل منهما غش الاخر؟ فحدث ان الوصيفة كانت تربي دجاجا في حوش الدار وكانت لي رغبة كبيرة في اكل واحدة منها وكان عندها نحو اثني عشر او ثلاثة عشر ديكا كبيرا وذات يوم بينما كانت تطعمها اخذت تناديها مرارا بيو بيو (3) فما كدت اسمعها

---

(2) كان من جملة الاساطير الرائجة اذ ذاك ان ملوك فرنسا يتمتعون بنعمة شفاء داء غدد العنق المسماة بالخنازير.

(3) لفظة تستعمل لمناداة الدجاج في اسبانيا

تنادي بهذه الكلمات حتى اخذت اصيح قائلا: يالله 'بتها الوصيفة! يا لبتك قتلت شخصا او سرقت خزانة الملك ـ وكلاهما مما اقدر على السكوت عنه ـ ولا فعلت ما فعلته وهو مما لا يجوز لي أن اسكت عنه؟ يا لتعسي وتعسك!» وحين رأتني أستعيذ واستلبذ اضطربت بعض الشيء وقالت: «ماذا فعلت يا بانلوس؟ ان كنت تسخر بي فالله تعالى لا ترد عتمني»

ـ كيف اسخر؟ أف لهذا الامر! اذ لا يمكنني الا أن اعلم بالقضية محكمة التفتيش والا حرمت

فصاحت قائلة: «محكمة التفتيش؟» واخذت ترتجف واضافت بقولها: «هل خالفت الايمان بشيء؟» فقلت: «هذا شر ما في القضية اياك والهزء بقضية التفتيش بل اعترفي بجهلك وقولي انك ترجعين عما فهت به ولكن لا تنكري اللعنة والعصبة» ومن شدة خوفها قالت لي: «واذا رجعت يابانلوس عما قلته اتعاقبوني؟» قلت لا! وانما يصفحون ذلك فقالت: اني ارجع عما قلته ولكن قل لي

انت الإن عن اي شيء لاني ورحمة موتاي لا اعرف انى قلت شيئا، قلت: امن الممكن الا تشعرى باى شي؟ فوالله لا ادرى كيف اقوله لك لان المعصية جسيمة الى حد انها تملأ قلبى جبنا الا تذكرين انك ناديت الارواح بقولك بيو! بيو، مع ان بيو اسم لبابا واب صواب الله ورؤساء الكنيسة؟ فابلعي الآن هذه المعصية،

فصرت كالميت ثم قالت احل يا باموس قد فهمت من قول الكاهن مسيح الله اني ان كانت تلك الكلمات قد صدرت عن مكر وسوء نية! اني ارجع عنها وبالله عليك هلا وجدت من طريق تعذرك عن السعادة بي لاني ان رأيت نفسي امام محكمة التفتيش مت هلعا قلت: ان اقسمت امام مذبح مقدس انك لم تضمري مكرا حين لفظت تلك الكلمات فانه يمكنني اذاك ان احلي عن السكانه ولكنه من اللازم ان تعطيني هذين الديكين الذين كلا حين تدعيهما باسم الاحبار المقدسين لاذهب بهما الى احد ضباط محكمة التفتيش

فيحرقهما لانهما اصبحا محكومين بالهلاك. وبعد كنه عليك ان تتسمى ان لا تعودي قط الى ارتكاب هذه المعصية»

فقالت وقد تمالكها الفرح: اليكهما الان يا بابلوس وعدا اقسم اليمين» فقلت لازيدها اطمئنانا -ان شرما في الامر يا سمربادا - حيث كان هذا اسمها - اني اعرض نفسي للخطر. اذ سيقول لي ضابط محكمة التفتيش اني انا المخطئ وقد يلحقني منه جور بسبب ذلك. فاذهبي بهما انت لانى وحقي خائف على نفسي» وحين سمعت مني هذا الجواب قالت: «بالله عليك يابابلوس: هلا اشفقت علي وذهبت بهما اذ لن يصيبك ادنى ضرر» فتركتها تكثر لي من التوسل واخيرا - وهذا ما كنت اريده - صممت النية وحملت الديكين واخبأتهما في غرفتي. ثم تظاهرت بالخروج وبعد ذلك عدت قائلا: لقد تم كل شيء على احسن مما كنت اعتقد» فالضابط كان يريد ان يتبعني ليرى المرأة لكني خدعته واقنعته» فاخذت تضمني

الى صدرها مكثرة من معانقتي واعطتني ديكا آخر فذهبت به الى حيث تركت رفيقيه ثم حملت الثلاثة الى صانع المعجنات فطبخها لنا واكلتها مع بقية الخدم. وبلغ خبر الحيلة مسامع الوصيفة وضون دييغو. وهلل لها جميع من في الدار تهليلا كبيرا واخذ الحزن من الوصيفة كل مأخذ فكادت ان يقضي عليها. ومن شدة حنقها كانت ممن افشاه سنى في الشراء على قاب قوسين ولو لم تكن مجبرة هي ايضا على السكوت لافتضح بالامر.

• • •

حين رأيت العلاقات قد ساءت بيني وبين الوصيفة بحثت عن وسائل جديدة للانبساط. فوقعت على ما كان الطلاب يسمونه غزوا او احلاسا. وفي هذا المضمار وقعت لي امور مضحكة.

ففي احدى الليالي بينما كنت سائرا حوالى الساعة التاسعة ـ وفي تلك الساعة نقل التجول ـ في الشارع الاكبر اذا بي اشاهد دكانا لبيع الحلوى وفي داخله محمل من الزبيب فوق منضدة فاسرعت في السير وتقدمت وامسكته ثم عدوت

فعدا ورائي بائع الحلوى وبعض الخدام والجيران'
وبما اني كنت احمل القفة تيقنت انهم سيلحقون
بي رغما عن اني كنت اتقدمهم اذاك. فحين درت
حول احدى الزوايا جلست فوقها ولففت رجلي
بالمعطف سريعا واخذت اقول ورجلي في يدي:
«آه غفر الله له. لقد داسني» فسمعوا مني هذا
القول: وحين وصلوا الي اخذت اقول: «استحلفكم
بهذه السيدة الرفيعة، واضيف اليها العبارات المألوفة
الآتية: «في ساعة نحس وبسبب هوا، فاسد (14)» اما
هم فاقبلوا يزعقون وقالوا لي: «هل مر من
هنا رجل ما ايها الاخ؟» فقلت: «نعم لقد تقدمكم
وقد داسني هنا حين مر. والحمد لله»
فما كادوا يسمعون جوابي حتى استأنفوا
العدو وابتعدوا وبقيت وحدي فحملت القفة الى

---

14 هذه عبارات كان المتسولون يرددونها
في ذلك العهد وفحواها انهم اصيبوا بما اصيبوا
به من الكوارث في ساعة نحس وبسبب هوا
فاسد.

الدار وقصصت اللعبة التي لعبتها ولم يريدوا تصديقي مما حملني على دعوتهم الى الليلة التالية ليروني استلب الصناديق، فجاؤوا وحين ابصروا ان الصناديق داخل الحانوت واني لا اقوى على اخذها بيدي اعتبروا استيلائي عليها من رابع المستحيلات وخصوصا ان بائع الحلوى ـ بعد ان حرى امس ما جرى لصاحب الزبيب ـ كان يقظا فجئت وحين اصبحت على اثني عشرة خطوة من الدكان قبضت السيف الذي كان عبارة عن حبال دقيق وسميك في رأس ولا شعر له وجريت بعدو فدخلت الدكان قائلا: نمت وغرزت السيف امام بائع الحلوى. فارتمى طالبا الاعتراف بينما كنت اغرز السيف في احد الصناديق فاخترقه وبواسطته اخرجته وذهبت به. فتعجبوا كثيرا حين شاهدوا الحيلة وقهقهوا طويلا من ان بائع الحلوى كان يحسب اني بمحصود قائلا انه دون شك قد خرج وان فاعل هذه الفعلة رجل وقع له معه خصام من قبل. لكنه حين التفت ـ وكانت الصناديق التي

حول الصندوق الذي ذهبت به قد تبعثرت حين اخرجته ـ ادرك الحيلة فاخذ يرسم اشارة الصليب ويكرر رسمها مرارا ومرارا. واعترف اني لم التذ قط بشيء كهذا. وكان الرفاق يقولون اني اقدر وحدي على تمويز البيت من جنى غزواتي وهذا في لغة الشطار (١) مرادف للسرقة.

وحيث كنت فتيا ورأيتهم يثنون على مهارتي في النجاة من هذه المكايد دفعني ذلك على مواصلتها ففي كل يوم كنت ارد وحول ازري بعض جرار استلبتها من الراهبات طالبا منهن ان يسقينني وقد حملهن ذلك على ان لا يعطين شيئا دون ضمانة سابقة. ووعدت ضون ديغو وجميع الرفاق بان اسلب الحراس الليليين انفسهم سيوفهم ذات ليلة. فعينت الليلة وذهبنا معا وانا في الطليعة.

فحين لحنا عن بعد رئيس الشرطة اسرعت

---

(١) كان الشطار يضعون اسماء خاصة لجميع الاشياء مختلفة عن اسمائها المعروفة، فتألفت لديهم لغة خاصة يتفاهمون ويتعارفون بها.

اليه مضطربا بصحبة واحد من خدام الدار وصحت قائلا: ارجال العدالة؟، فاجابوا بقولهم: «نعم» قلت: اهو صاحب الشرطة؟» قالوا «نعم» فركعت على ركبتي وقلت: ياموﻻى: بين يديك دوائي وانتقامي وخير كبير للرعية. واذا كنت راغبا في القبض على مجرم كبير فاسمح لي بان اسمعك كلمتين على حدة فمال الى ناحية بينما كان الجلاوزة يجردون سيوفهم والمأمورون يضعون ايديهم على العصي. وقلت له: يا سيدى! لقد جئت من اشبيلية متعقبا ستة رجال من كبار المجرمين كلهم لصوص وقتلة وبينهم واحد قتل امي واخي ليسرقهما وهذه الجريمة ثابتة عليه، وهؤلاء اللصوص قدموا مرافقين حسبما سمعته يقول، جاسوسة فرنسية، ومما سمعته منهم يلوح لي انها جاءت ـ وهنا خفضت صوتي ـ من جانب انطونيو بيريث (6) فعند ما سمع صاحب

---

(6) كان هذا كاتم اسرار الملك فيليب الثاني ثم غضب عليه فالتجأ الى فرنسا سنة 1593 وفيها توفي سنة 1611

الشرطة اسم انطونيو بيريث قفز قفزة في الهواء وقال: «واين هم الان؟» قلت: «في الفندق. واني ارجو حضرتك ان لا تتأخر، وارواح امي واخوتي ستكافئك بصلواتها، والملك سيكافئك ايضا». قال: الى الامام ولا نتاخر، اتبعوني كلكم! اعطوني ترسا قلت بعد ان ملت به ناحية من جديد: «ياسيدي ان عملت هذا فاتت هنالك لامحالة، وانما المناسب هو ان يدخل الجميع واحدا واحدا بلا سيوف لان اللصوص في الغرف ومعهم مسدسات صغيرة، فاذا رأوا اناسا يدخلون حاملين سيوفا، وهم يعرفون انه لا يحملها سوى رجال العدالة اطلقوا مسدساتهم فالاوفق حمل الخناجر ومبادرتهم من الوراء والقاء القبض عليهم لاننا كثيرون» فانطلت الحيلة على صاحب الشرطة بسبب طمعه في القاء القبض عليهم واثناء هذا بلغنا الى مقربة من الفندق. فنبهت صاحب الشرطة فامر بنزع السيوف واخفائها تحت الاعشاب في حقل يكاد يكون محاذيا للدار فوضعوها وساروا في طريقهم. وكنت انا قد اشرت على

الخادم الذي رافقني بان يستولي على السيوف حالا حين يتركونها ويذهب بها الى الدار. ففعل حسبما اشرت عليه وحين دخل الجميع الفندق بقيت في المؤخرة وبما انهم دخلوا ممتزجين باناس آخرين كانوا داخلين ايضا تسللت الى زاوية الشارع وانصببت منها في زقاق ينتهي بالقرب من لابيطورباه عاديا كالغزال.

اما هم فدخلوا ولما يجدوا احدا اذ لم يكن هنالك سوى طلاب وشطار - وكلاهما واحد - اخذوا يبحثون عني ولم يعثروا علي فداخلهم الريب من امري وذهبوا الى حيث تركوا سيوفهم فلم يجدوها. ومن ذا الذي يقص ما قام به صاحب الشرطة تلك الليلة من المراجعات لدى العميد؟ فقد دخلا جميع المنازل وكشفا عن الاسرة وبلغا دارنا اما انا فلكي لا يعرفونني كنت مرتميا على السرير وقد لففت منديلا حول رأسي وحملت شمعة باحدى يدي وصلبا بالاخرى ووقف الى جانبي احد الرفاق متزييا بزي كاهن يساعدني

لاتقبل الموت بينما كان الاخرون يصلون مرددين الطلبات. فوصل العميد وصاحب الشرطة. وما ان رأوا ذلك المشهد حتى غادروا الغرفة دون ان يخطر ببالهم انه من الممكن ان تكون اسلحة الحراس فيها. ولم ينقبوا البتة. وانما اقتصر العميد على تقدمة صلاة قصيرة من التي تقدم عن الموتى لراحة نفسي، وسأل الحاضرين عما اذا كنت قد انقطعت عن الكلام. فأجابوه بالايجاب، وخرجا يتلمظان غيظاً لعدم وقوعهما على اي اثر والعميد يقسم ان يسلم المذنب متى عثر عليه الى يد العدالة، وصاحب الشرطة يغلظ الايمان بانه سيعلقه على اعواد المشنقة ولو كان من ابناء الاشراف.

وبعد ذلك قمت من الفراش. وما زال الناس في التبعة يتذكرون هذه الحيلة حتى اليوم (7)

ولئلا اطيل الكلام اضرب صفحا عن وصف

---

7) يقولو مؤلفو «محكمة الانتقام العادل» (ص 162) «من المحتمل ان تكون هذه الحادثة قد جرت حقيقة وان يكون كيبيدو نفسه بطلها»

كيف اني انخذت سوق البلدة جبلا فكنت اغذي مدخنة الدار طيلة السنة من صناديق الجزاريـن والصاغة ومناضد البقالات ـ اذ لم انس قط مـا اصبت به من اهانة يوم انتخبت ملك الديوك.(8)ـ كما اني اتجاوز عن الضريبة التى كنت اتقاضاها من مزارع الفول والكروم والبساتيـن المجـاورة فبهذه الامور وغيرها اخذ نجمي يعلو نجوم النقبة في سماء الشطارة والحيلة. وكان الاسياد يحمونني وينشطونني وقلما يتركونني في خدمة عنون دبيغو الذي لم احد قط عن احترامه لما كان يكنه لي من الحب الشديد.

---

8) انظر الفصل الثاني

الفصل السابع

في رحلة ضون ديغو واستخباري بوفاة والدي وما عزمت عليه في شؤوني للمستقبل

وفي هذه المدة تلقى ضون ديغو من والده رسالة طيها رسالة اخرى بعث بها الي احد أقاربي واسمه الونصو رامبلون. وهو رجل متصف بكل فضل ومعروف في شقوبية لعلاقته بالعدالة، اذ ان جميع الاحكام التي نفذت هنالك منذ اربع سنوات كان هو منفذها. اجل! لقد كان جلادا ولكنه كان نسرا في هذه المهنة، وان رؤيته وهو يقوم بها كان لما يدفع المرء الى تمني الموت شنقا وهذا نص الرسالة التي بعث بها الي من شقوبية الى القلعة:

رسالة

«ولدي بابلوس ـ اذ كان يدعوني ولده

لشدة حبه لي ـ ان المشاغل الكبيرة في هذه المدينة حيث استعملني صاحب الجلالة حالت دون قيامي بهذا الامر لانه ان كان في خدمة الملك من شر فهو كثرة العمل وان كان لنا عوض عن ذلك في التشرف بخدمته. وانه ليؤلمني ان اوافيك باخبار غير سارة: فوالدك توفي منذ ثمانية ايام وقد ابدى عند وفاته من الشجاعة ما لم يبده حتى اليوم رجل آخر عند ملاقاة الحمام: اقول هذا بلسان من رفعه على الاعواد. فقد امتطى الاتان دون ان يدخل رجله في الركاب وارتدى قميص الاعدام فكانت كانها فصلت له. ولم يكن كل من رآه على هذه الهيئة مسبوقا بالصلبان الا ليعتقد بانه سائر الى المشنقة. وكان يتقدم بلا تصنع: ملتفتا الى النوافذ محييا بأدب جميع من اهملوا اشغالهم ليشاهدوه. واصلح شاربيه مرتين: وكان يامر المرشدين بان ياخذوا قسطا من الراحة بينما يغدق الثناء على ما يفوهون به من كلام حسن وجميل. واخيرا بلغ المشنقة: ووطأت احدى رجليه درجها. ولم يصعده

زاحفا ولا متماهلا، واذ رأى احدى المراقي منلفة التفت نحو مامور العدالة وقال له ان من الواجب اصلاح تلك المرقاة لشخص آخر لان الجميع لا يملكون رباطة جأشه. وان قلمي لعاجز عن وصف الاستحسان الذي قوبلت به هذه الملاحظة من جانب الجميع. ثم جلس فوق وازاح الى الوراء تجعدات الملابس وتناول حبل المشنقة واداره حول عنقه وحين رأى الراهب يحاول ان يعظه التفت اليه قائلا: ايها الاب! اني اعتبر العظة قد القيت فهات شيئا من فعل الايمان ولنكمل سريعا لاني لا اود ان يقال اني مسهب وهكذا كان، واوصاني ان اضع له الكمة من جانب وان امسح لعابه. وهكذا فعلت، فسقط دون ان تنقبض رجله او يأتي بحركة وبقي محفوفا بوقار لا يرجى وراءه وقار. فقطعته اربعا (1) وجعلت الطرق له لحدا والله يعلم كم

---

(1) كان من جملة العادات القديمة ان تقطع جثة المجرم بعد قتله اربع قطع وتعرض كل منها في احدى الامكنة العمومية.

يعز علي ان اراه غنيمة باردة تنتهشها الغربان لكن في ظني ان صانعي المعجنات في هذه الدنيا سيعزوننا بايوائهم اياه في المعجنات التي تباع باربعة دراهم الواحدة (2)

اما من حيث والدتك فانها وان تكن ما زالت قيد الحياة فالكلام عنها قد يكاد يكون شبيها بما سبق: وذلك انه مودعة في سجن محكمة المفتش في طليطلة لانها كانت تنبش الموتى دون ان تكون نمامة. ويقال انها كانت تقبل كل ليلة فحمة في العين الفاقدة انسانها. ووجد في دارها من السيقان والاذرع والرؤوس ما لا يوجد في كنيسة عجائبية واقل ما كانت تقوم به رتق

---

2) اشارة الى اشاعة رائجة اذاك مفادها ان بعض صانعي المعجنات كانوا يستعملون لحوم الموتى ويدخلونها في مصنوعاتهم وقد وردت هذه الاشاعة في عدة مؤلفات من ذلك العهد لكن البحث التاريخي اثبت انها لا تستند على شيء من الصحة

البكارة واعادة العفاف الى العذارى. ويقال انها اشتركت في الطواف الذي اقيم يوم عيد الثالوث الاقدس لاربعمائة من المحكوم عليهم بالموت واني أتألم لما يلحقنا بسبب ذلك من العار جميعا وانا بنوع خاص لاني بعد كل شيء من موظفي الملك وهذه القربى لما يشينني.

يا بني! ان والديك قد خلفا هنا مالا مخبأ قد يقارب الاربعمائة دكة. وانما انا خائنك وكل ما لي سائر الى يدك حتما، فبوسعك اذاً ان تاتي الي وبما نعرفه من اللغة اللاتينية والخطابة يمكنك ان تصبح بارعا في فن الجلادة اجنبي حالا حفظك الله الخ...

ليس بوسعي ان انكر انني اسفت جدا لهذا العار الجديد، لكنني فرحت نوعا ما. اذ ان من مفاعيل عيوب الاباء انها تسلي الابناء في مصائبهم مهما عظمت. فاسرعت راكضا صوب ضون دييغو وكان يقرأ رسالة ابيه وفيها يامره بالرجوع وبالا يستصحبني معه لما كان قد بلغه من حالي وتصرفاتي

فاطلعني على ما امره به والده وقال لي انه يؤلمه
أن يتركني وان كان يؤلمني في الواقع اكثر منه
واضاف قائلا انه يدبر لي البقاء في خدمة صديق
له من النبلاء فضحكت من كلامه وقلت: يا سيدي
لقد اصبحت شخصا آخر كما ان افكاري قد تبدلت
ايضا. وها انذا صرت اتطلع الى العلى ويهمني
ان ازداد سطوة ومقدرة. لانني ان كنت املك
حتى الساعة حجرا في الحلقة (3) فكل واحد عن
تي فيها الآن ولدي. (4)

وخبرته كيف فارق الحياة ابيا شريفا وكيف

---

(3) كانت العادة ان يجتمع الناس للحديث فيؤلفون (حلقة) يجلس فيها كل على حجر. وكان لكل واحد من ذوي المكانة حجر خاص لا يجلس عليه احد فاصبح القول عن واحد ان له حجرا خاصا في الحلقة مرادفاً للقول بانه ذو مكانة واعتبار.

(4) اني المؤلف هنا يتلاعب في كلمة حلقة فالمقصود بها ثانيا المشنقة

قطعوه رباعا وكيف كتب لي خالي الجلاد عن هذا وعن حبس والدتي. وقد امكنني ان اكشف عن نفسي امامه دون حياء لانه يعرفني حق المعرفة. فتاسف كثيرا وسألني عما افكر ان اصنع فاعلمته بما عزمت عليه. وفي اليوم الثاني توجه ضون ديبغو الى شقوبية والالم يحز نفسه وبقيت انا في الدار مخفيا مصيبتي. واحرقت الرسالة لئلا تضيع فتقع بين ايدي شخص آخر ويطلع على ما فيها. واخذت اعد العدة للسفر الى شقوبية بقصد الاستيلاء على اموالي والتعرف على اقاربي كي ابتعد عنهم.

الفصل الثامن

في الكلام عن الطريق بين القلعة وشقوبية وما جرى لي فيه حتى ربخاس (1) حيث بت تلك الليلة

وكان يوم انفصالي عن خير حياة ارى نفسي قضيتها. والله تعليم كم آلمني ترك هذا العدد الوافر من الاصدقاء والمعجبين بي. فبعت سرا للستركل ما كنت املكه ومن ثمنه وبفضل بعض الاكاذيب جمعت ما يقرب من ستمائة بلون. ثم اكتريت بغلة وغادرت المثوى الذي لم يكن لي ان احرج منه سوى ظلي. من لي بمخبر عن غم الاسكاف تدينه عني وتاوهات الوصيفة على اجرتها وصاحب الدار على الكراء؟ فالواحد كان يقول: ...

---

(1) ربخاس Rejas قرية من مقاطعة صوريا

كانت نفسي تحدثني بهذا دائما، ويقول الاخر :
«اجل! عن حق كانوا يقولون لي انه مخادع»
وبالاختصار خرجت محفوفا بعطف البلدة واحترامها
الى حد اني تركت بغيابي نصف اهلها يبكون
والنصف الاخر يضحكون ممن يبكون.

وبينما كنت اقطع الطريق متاملا في هذه
الامور اذا بي التقى بعد مجاوزتي طوروتي (2)
برجل يمتطي حصانا يخاطب نفسه ويمشي مسرعا
وهو غارق في بحر احلامه بحيث لم يرني مع اني
كنت قد وصلت الى جانبه فبادلته التحية وسالته
الى اين، وبعد ان اجبنا كل على سؤال الاخر
اخذنا نبحث فيما اذا كان الترك مزمعين على
الزحف وفي قوات الملك واخذ يشرح لي كيف
يمكن احتلال الاراضي المقدسة وكيف ان الجزائر
واقعة بين ايدينا لا محالة. ففهمت من خلال حديثه

---

(2) طوروتي Torote جدول ينبع في مقاطعة
وادي الحجارة ويصب في نهر هنارس بين القلعة
وطوربخون

انه مصاب بوسواس الاصلاح العمومي والحكومي(13)

وواصلنا هذا الحديث المألوف بين الشطار متنقلين من موضوع الى آخر حتى انتهى بنا الى الكلام عن فلاندبس، وهنا شرع صديقي بتنهد ويقول: ان هذه الولايات تكلفني اكثر مما تكسف الملك حيث قد مرت علي اربع عشرة سنة وانا اطوف بمشروع من شانه لو لم يكن مستحيلا ان يضع حدا فاصلا لكل هذه المشاكل، فقلت: واي امر هو هذا الذي فيه ما تذكر من نفع كبير لكنه مستحيل وغير ممكن التحقيق؟. فرد علي بقوله. من قال لك انه غير ممكن التحقيق؟ بل انه يمكن تحقيقه. اما كونه مستحيلا فذاك امر آخر ولولا رغبتي في ان لا اؤلمك لاخبرتك به، غير انه

---

13 كانت الفوضى في الشؤون العمومية اذاك سببا لظهور عدد كبير من المؤلفات التي يرمي واضعوها الى اهداء الملك الى سبل الاصلاح فكثرت من جهة اخرى التلميحات الهجائية الى هؤلاء المصلحين.

سيعرف فيما بعد لانى مصمم الان على طبعه مع جملة مشاريع اخرى بينها واحد اطلع فيه الملك على وسيلة لاحتلال مدينة اوسطند (1) من طريقين» فرجونه ان يخبرنى بهما. فاخرج من جيبه رقعة رسم عليها حصن الاعداء وحصننا وقال: انك ترى إن الصعوبة كلها ليست الا في هذه القطعة من البحر، فانا آمر بامتصاص ما فيها من الماء بالاسفنج فيزول ذلك الفاصل فما سمعت هذا الهذيان حتى بدرت مني قهقهة عالية فنفرس في قائلا: «لم ادل بهذا الامر لاحد الا ضحك كما ضحكت انت لانه يبعث في الجميع فرحا كبيرا، قلت: «لا شك انى لم اسمع قط امرا اكثر جدة وامتن اساسا من هذا. ولكن فات حضرتك انه متى امتصت المياه

---

(1) دامت محاصرة الجيوش الاسبانية تحت قيادة المركيس دي سبينولا لهده المدينة من شهر يوليو (تموز) سنة 1601 الى سنتمبر (ايلول) من 1604 وهذه الاشارة تسمح بتعيين تاريخ وضع هذا الكتاب.

الموجودة حيئذ عاد البحر فدفع الى مكانها مياها اخرى » فقال: «لن يصنع البحر هذا لانى استدركت هذه القضية ايضا» وفضلا عن ذلك لدى اختراع لاغرق في البحر اثنتي عشرة ولاية من تلك الناحية

فلم اتجرأ على رد كلامه خوفا من ان يقول لي ان لديه مشروعا لاسقاط السماء اذ اني لم ارقط في حياتي حمقا يعادله. وقال لي ان ما فعله خوانيلو (5) ليس شيئا وانما يحاول هو الان رفع كل مياه نهر تاجه الى طليطلة بطريقة اخرى اكثر سهولة ولما سألته عن هذه الطريقة قال انما هي من باب السحر والتعزيم. فتامل رعاك الله اذا كان احد في العالم قد سمع شيئا آخر كهذا. واخيرا قال لي: «واني لا افكر في تنفيذ هذا المشروع اذا لم يعطني الملك اولا رتبة دوراد وذلك

---

5) خوانيلو Juanelo خوانيلو طوريانو ـ اصله من كريمونا وقد تمكن من رفع مياه نهر تاجه الى اعلى نقطة في طليطلة باسلوب استنبطه وظل قائما نحو ثلث قرن على عهد فيليب الثاني

من حقى الصريح لان لدي حكماً قديمـا يثبت انتمائي الى طبقة الاشراف . وبين هذه المحادثات والمماحكات بلغنـا بلدة طورخون (6) حيث بقي رفيقي اذ اقبل اليها لمشاهدة احد اقاربه..

اما انـا فواصلت السير وقد كـدت اموت ضحكا من المشاريع الخيالية التي كان رفيقي يقضي فيها وقته. واذا بي لحسن الحظ اشاهد عن بعد بغلة طليقة والى جانبها رجل واقـف ينظر في كتاب ثم يرسم خطوطا يقيسها ببركار ثم يدور ويقفز من جهة الى اخرى وبين فترة وفترة يضع اصبعا فوق الاخر ويعود الى القفز آتيا بحركات لا تعـد ولا تحصى. فحسبته لاول وهلـة سـاحرا ـ اذ وقفت بعيدا اناملة ـ وكدت لا اجرأ على التقدم واخيرا عزمت عـلى ذلك وحيـن وصلـت اليـه احس

---

(6) طورخون Torrejón اسم بلدة من مقاطعة مدريد والاسم نفسه مستعمل لعدة قرى اسبانيـة نكنها تتميز بعضها عن بعض باسم آخر تضـاف اليه هذه اللفظة التي معناها «البرج الصغير»

دي فاغلق الكتاب وحين وضع رجله في الركاب زلت به فسقط. فرفعته وقال لي «لم احسن احتساب الحد الاوسط لاصنع الدائرة عند الركوب فلم افهم ما قاله لي. ثم خفت مما كان لان النساء لم يلدن مولودا اكثر حمقا منه. وسالني اذا كنت اسلك في اتجاهي الى مدريد خطا مستقيما او منكسرا فاجبته ان منكسرا دون ان افهم كلامه. ثم سالني عن السيف الذي كنت احمله مدلى فوق جنبي فقلت انه لي. وبعد ان تامله قال. من الواجب ان يكون جانبا المقبض اطول مما هما عليه الان لاتقاء الجراح التي يحدثها في الوسط تكرار الطعنات. واخذ يرسل القول مل شدقيه حتى اضطرني الى استفساره عن اية حرفة يحترفها فقال انه فارس حقيقي وان فروسيته تثبت في اي مكان كان» قلت وقد هزني الضحك: «الحق يقال اني ظننتك لاول وهلة ساحرا حين رأيتك في هذه البرية ترسم تلك الدوائر» قال: «انما خطرت لي جولة في الدائرة الرابعة مع الانتقال من نقطة الى

اخرى لعقل سيف الخصم وقتله دون ان ينبث ببنت شفة وكنت اقوم حينئذ بنقل هذا الخاطر الى عبارات حسابية. فقلت: وهل في هذا حساب»؟ قال: « لا حساب فحسب بل لاهوت وفلسفة وموسيقى وطب ايضا قلت. «أما الاخير لا اشك فيه لان هذا الفن انما يعنى بالقتل فقال: «تهزأ فانك ستعلم الان كيف يستعمل الفرجون ضد السيف لتوسيع الضربات الى حد انها تضم الدورات الحلزونية التي يرسلها السيف قلت: انى لا افهم شيئا البتة من كل ما تقوله لى.» قال: «ان هذه الامور قد وردت كلها في الكتاب المسمى «نجاد السيف» وهو كتاب حسن جمع من الاعاجيب الشيء الكثير ولتصدق قولي سأريك حين نصل الى بلدة ريخاس حيث نبيت هذه الليلة ما افعله من الغرائب بواسطة سفودين، ولا يكن في نفسك ريب في ان كل من قرأ هذا الكتاب يمكنه ان يقتل كل من اراد» قلت: «أما ان يكون هذا الكتاب يعلم الناس شر وسائل الفساد او ان

يكون مؤلفه احد الدكاترة، فقال: كيف نقول احد الدكاترة فحسب؟ اجل ان مؤلفه عالم كبير واكاد اقول انه اكثر من ذلك. (7)

وفي هذا الحديث وصلنا الى بلدة رنخاس وجلسنا في احد الفنادق وحين نزلنا نبهني بصوت مرتفع ان أؤلف بساقي راوية منفرجة ثم اقف مستقيما على الارض بعد ضمهما ليصبحا متوازيين فابصرني صاحب الفندق ضاحكا فضحك بدوره وسألني اذا كان ذلك القائد هنديا (8) لما سمعه من كلامه، فظننت عندئذ اني فقدت رشدي

7) كل هذا المقطع تهكم لاذع على الكاتب ضون لويس بانشيكو دي ناربايث مؤلف كتاب عظمة السيف وقد اشرنا مفصلا في كتابنا كيسدو امير الظرافة الى الخصومة بينه وبين كبيدو وما جرت اليه.

8) لعلها اشارة الى بانشيكو ناربايث لسكناه مدة طويلة في الجزائر الخالدات، وكان سكانها الاصليون يطلق عليهم كسكان اميركا اسم الهنود.

ثم وصل الى صاحب الفندق وقال له : «اعطني ايها السيد سفودين لزاويتين او ثلاث واني مرجعهما لك بعد هنيهة» فصاح الفندقي متعجبا يا يسوع! أعطني هذه الزوايا فان زوجتي تشويها وان كانت طيورا لم اسمع اسمها قط.» فقال: « انها ليست طيورا » واضاف بقوله ملتفتا الي: «تامل رعاك الله ما هو عدم المعرفة» ثم عاد الى الفندقي وقال : «اعطني السفودين فانما احتاجهما للمسايفة ولربما كان ما تراني اصنعه اليوم خيرا لك من كل ما ربحته طول عمرك ». ولكن السفافيد كانت مشغولة فاستعضنا عنها بمغرفتين وكان مشهد لم تر في العالم مدعاة الى الضحك مثيله وكان صاحبنا يقفز قفزة ويقول: «بهذا الدور ابلغ درجات الوجه. الان اغتنم هذه الحركة التي ندرت عن توان لاسدد الضربة القاضية. هذه يجب ان تكون طعنة وتلك ضربة». وكان يدور حولي بمغرفته تفصلني عنه مسافة واسعة وبما اني لم اكن لاثبت فى مكان واحد كانت

مسايفته اشبه ما تكون بمطاردة قدر تفور فوق النار. وقال لي: وفي النهاية هذا هو الصالح لاتلك السكرات التي يعلمها هؤلاء الماكرون من اساتذة المسايفة الذين لا يحبون سوى تعاطي المدام.

وما كاد يفرغ من كلامه هذا حتى خرج من احدى الغرف خلاسي مكشرا عن انيابه يرتدي قبعة ادخلت في مظلة وسربالا من جلد الجاموس تحت كساء قصير واسع ذات كمين وقد ملئ شرطاء معوج الساقين كالنسر الامبراطوري معقوف اللحية، ذو شاربين عريضين يقيان الوجه، وقد تخصر بخنجر اكثر ثقوبا من شبكة (9) ثم قال وهو يحدق في الارض: اني قد امتحنت وبيدي الاجازة فبالشمس التي تسخن الخبز اني لقطع اربا كل من حدثته نفسه بامتهان من يحترف

(9) يظهر انها اشارة الى فرنسيسكو هرناندث المولاتو (اي الخلاسي) الذى كان من ابرع من نقل السيف في عصره وقد انتقده بانشيكو دي ناربايث في احد كتبه.

الفروسية» اما انا وقد رأيت الموقف حرجا فتوسطت بينهما قائلا للخلاسي انه لم يوجه الحديث اليه. ولذا ليس له من سبيل الى الغضب. فتابع قائلا. «جرد حسامك ان كنت تحمله ولنراية هي الفروسية الحقة. ودعك من المغارف اما رفيقي المسكين ففتح الكتاب وقال بصوت مرتفع: «هذا الكتاب يقوله. وهو مطبوع برخصة من الملك. وانا اؤيد صحة ما يقوله بمعرفة او بدون معرفة» هنا وفي اي مكان آخر. والا فلنقس ذلك». واخرج الفرجار واخذ يقول: «هذه الزاوية منفرجة» وحينئذ جرد الاخر خنجره وقال: انا لا ادري من هو انغولو ومن هو «اوبتوسو(10)» ولم اسمع قط هذين الاسمين ولكني بهذا الذي في يدي ساقطعك اربا» وهجم على ذلك المسكين الذي بدأ يفر من امامه قافزا داخل الدار وهو يقول: لست تقدر على جرحي لاني بلغت درجات وجهك فاصلحنا بينهما انا والفندقي

---

(10) «انغولو» معناها: الزاوية. و «اوبتوسو» منفرجة.

واشخاص اخرون كانوا هنالك وان كنت اكاد لا اقوى على التحرك من شدة الضحك.

ثم ادخلوا الرجل الى غرفته وانا معه. فتعشينا ورقد جميع من كان في الدار وعلى الساعة الثامنة صباحا نهض بلباس النوم واخذ يدور في الغرفة تحت جنح الظلام ويقفز ويردد الف حماقة بلغة حسابية ثم ايقظني انا ولم يكتف بهذا بل هبط الى حيث الفندقي نائم وطلب منه مشعلا قائلا له انه قد اكتشف محلا ثابتا للطعنة المسددة مستقيمة نحو القوس من وسط وتره اما الفندقي فاخذ يستعيذ بالشيطان لايقاظه اياه في تلك الساعة ولشدة ما بالغ في ازعاجه رماه بالحمق. فاذاك تركه وصعد الى غرفتنا وقال لي ان احببت ان تنهض فانك ترى الحيلة التي اكتشفتها لصد الاتراك وخناجرهم العريضة (11) واضاف قائلا انه سيعرض اكتشافه هذا على الملك لانه في صالح النصارى. وهنا

---

(11) في كتاب باتشيكو دي ناربايث درس في الدفاع ضد الاتراك وخناجرهم العريضة

اصبح الصباح فارتدينا ملابسنا جميعا ودفعنا اجرة الفندق. ثم وفقوا بين صاحبي والخلاسي الذي ابتعد بعدئذ وهو يقول ان ما يدعيه رفيقي حسن ولكنه ينتج مجانين اكثر منه فرسانا لان الاكثرية على الاقل لا يفهمونه.

الفصل التاسع

في ما وقع لي مع شاعر حتى وصولي الى مدريد

سلكت طريق مدريد اما صاحبي فودعني ليسلك طريقا آخر وبعد ان كان قد ابتعد عاد على اعقابه مسرعا واخذ يناديني بصوت عال اذ كنا في البرية حيث لايسمعنا احد وقال لي وفمه في اذني: بحياتك الا تبحث بشيء من هذه الاسرار الخطيرة التي اطلعتك عليها في علم الفروسية بل احتفظ بها لنفسك فانك لبيب كيس، فوعدته بذلك ثم غادرني من جديد وشرعت اضحك من السر الظريف.

وهكذا قطعت ما يربو على فرسخ دون ان اصادف احدا وكنت اسير مفكرا في عظم ما يعترض سبيلي الى التخلق بالشرف والفضيلة من عقبات كثيرة اذ لا بد لي من سد ما تركه والدي من نقص

في هذا الميدان ثم الحصول على مقدار كبير بحيث تستحيل معرفتي من خلال ذلك النقص. واذ بدت لي هذه الافكار شريفة اخذت اشكر نفسي عليها واقول في باطني: «لابد ان اشكر انا الذي ليس لي من آخذ الفضيلة عنه اكثر ممن ورثها عن اجداده وبينما كنت غارقا في بحر هذه التاملات التقيت بشماس عجوز راكب بغلة في طريقه الى مدريد. فدار بيننا الحديث ثم سألني عن البلدة التي قدمت منها فقلت انها القلعة قال: لعنة الله على هؤلاء الاشرار اذ ليس بينهم رجل عاقل. فسألته كيف ولماذا يقول هذا القول عن بلدة كالقلعة حوت ما حوته من كبار العلماء فاجابني وهو يحترق غيظا: «واي علماء؟ اعلم رعاك الله انني بالرغم عن مرور اربعة عشر عاما علي وانا انظم في قرية «ماخالاهوندا» (1) ـ حيث كنت وافيها ـ الاناشيد لخميس الجسد وعيد الميلاد. ولم ير هؤلاء

---

(1) ماخالاهوندا Majalahonda ـ قرية من مقاطعة مدريد وتسمى اليوم ماخاداهوندا

الذين تسميهم علماء ان يمنحوني جائزة على بعض اناشيد قدمتها للمباراة وها اذن سانلوها على مسمعك لنرى اجحافهم بحقي في حكمهم. ونبدأ بقرأ مابلي.

ايها الرعاة! أليس من النكت اللطيفة ان تكون اليوم عيد قدس جسد المسيح؟

الا انه يوم حبور يتواضع فيه الحمل الطاهر الى حد انه يزور بطوننا وفي وسط هذه الافراح يدخل الافواه البشرية

الا فانفخوا في الابواق الطويلة لان سعادتنا يا ايها الرعاة

اليس من النكت اللطيفة الخ ..»

ثم قال لي: ما عساه ان يقول افضل من هذا مبتدع النكت نفسه؟ تامل ما تتضمنه من المعاني كلمة «الرعاة» فقد كلفتني اكثر من شهر درسا فلم انمالك من الضحك الذي كان ينفجر من عيني وانفي وقهقهت قائلا: انه لشيء عجيب! وانما لي عليك اعتراض وهو انك تقول عيد قديس «جسد المسيح» بينما ان ما يسمى

«جسد المسيح» ليس قديسا من جملة القديسين
بل اسم اليوم الذى انشئ فيه «سر القربان المقدس»
فاجابني هازئا: «ما شاء الله! اني اريكه فى التقويم
حيث تجده مكتوبا في عداد القديسين. واني
اراهنك على صحة ما اقول. فلم اقو على محاجته
لاني كنت اكاد اهلك ضحكا لما رايته من جهله
الفاضح. بل قلت ان ابياته جديرة بكل مكافأة
واني لم اقرأ قط شيئا الطف واعذب منها» فقال:
«كيف لا؟ فاسمع اذا لاقرأ عليك جزءا من
كتيب وضعته اكراما للاحدى عشر الف عذراء
حيث اخص كل واحدة منهن بخمسين منظومة
من ذوات الثمانية ابيات وانك لترى عجبا
فرحونه تجنبا لاستماع هذا القدر من ملايين
الثمانيات الا يردد على مسامعي شيئا من الالهيات
وهكذا اخذ يتلو علي معزلة اكثر مراحل من
طريق القدس. وكان يقول لي: لقد وضعتها
في يومين، وانما هذه هي المسودة» وكان ما بين
يديه يربو على خمس ملازم اما عنوانها فهو «سفينة

نوح ، وتدور حوادثها بين الديوك والفيران والخيل والثعالب والخنزير الوحشية كما في حكايات جحى. فاثنيت على حق ابتكارها ونظمها فاجابني قائلا: «ان ذلك من ابتكاري ولم يسبقني اليه احد وانما الجدة فوق كل شي. وان تمكنت من حملها الى المسرح فستلهج الالسنة كلها بذكر هذا الحدث ، قلت: امن الممكن تمثيلها ما دام انه لا بد من مشاركة الحيوانات فيها وهذه لا تنطق؟ قال: اجل، انما هذه هي العقبة الكأداء ولولاها لما كان لهذه الرواية من مثيل ولكني فكرت بحملها الى المسرح مستعملا فيها الببغاوات والشحارير والعقاعقة التى تنطق. وفي المشاهد الهزلية التي تمثل في الفترات المتخللة بين فصل وآخر استعمل القردة»

قلت: «لقد صدقت فهي منظومة رفيعة جدا»

قال: «انما نظمت ما هو ارفع منها اكراما لامرأة احبها فها هي تسعمائة منظومة ومنظومة من الرباعيات - فكان كأنه يحصى الدراهم دنانير -

نظمتها متغزلا بساقي مولاتي، فسألته هل رآها فاجاب ان لا لارتباطه بحرمة الكهنوت ولكن الافكار التي ابتدعها قد احيلت نبوءات وانا اعترف حقا اني بالرغم عن طربي باستماعه خفت من مقدار كهذا من الشعر الرديء فحولت الحديث الى محار اخرى وكنت اذا قلت له انني ارى ارانب قال: سأبدأ اذاً بقصيدة اشبههما فيها بهذا الحيوان، واخذ يتلوها. فاقول لالهيه: هل ترى تلك النجمة التي تشاهد نهاراء فيقول: «حين افرغ من هذه ساقرأ عليك القصيدة الثلاثين حيث اسميها نجمة فكأنك تعرف مرامي في هذه القصائد» وحين رأيت اني لا اقدر ان اسمي حاجة لم ينظم حولها جهالة ما حزنت الى حد اني احسست بغبطة واسعة حين اطللنا على مدريد مؤملا ان يسكت حياء وخجلا. وانما جرى الامر بالعكس اذ اخذ يرفع صوته حين دخلنا الشارع ليظهر عن نفسه. فرجوته ان يعدل عن ذلك مبينا له انه اذا اشتم الصغار منه رائحة الشعراء فلن تبقى واحدة من بقايا

البقول الا رمينا بها لرمي الشعراء بالحمق في مرسوم وضعه ليم واحد كان من جملنهم ثم عاد الى الصراط القويم. فسألني جزءا ان اقرأه له ان كان لدي منه نسخة، فوعدته بان اقوم بذلك في النزل. وقصدنا نزلا كان من عادته از يحط رحاله فيه فوجدنا على الباب اكثر من اثنسي عشر اعمى. فبعضهم عرفه من رائحته والبعض الاخر من صوته وهللوا مرحبين به فعانقهم جميعا ثم اخذ فريق منهم يسأله صلاة للقاضي العادل شعرية حكمية تحمل على المقطبب وسأله فريق آخر صلاة من النوع ذاته من اجل نفوس الموتى واخذوا يسهبون في الكلام حول هذا الموضوع وتناول عيقى ثمانية ملايين عربونا من كل واحد منهم. وصرفهم ثم قال لي:

لا بد ان يدر على هؤلاء العميان اكثر من ثلاثمائة مليون فاسمح لي الان ان اختلي قليلا لانظم بعضها. وحين نفرغ من تناول الغذاء نسمع قراءة المرسوم، ياللحياة البائسة! اذ ليس ما يعادل بؤسا حياة المجانين الذين يكسبون قوتهم بجنونهم.

الفصل العاشر

في ما فعلته في مدريد وما جرى لي حتى وصلت الى ثرثديا (1) حيث بت ليلتي

اختلى الوافه قليلا ليعد للعميان خرافات وترهات وخلال هذا حانت ساعة الغداء فتغدينا ثم طلبوا ان تقرأ البراءة وحيث لم يكن لدى شغل آخر اخرجتها وقرأتها. وها اني انقلها هنا لما فيها من قارص الكلام وصالحه لما اريد التأنيب عليه فيها وهذا نصها:

براءة بشأن الشعراء الخالين من كل معنى وفائدة وجوهر.

---

1) ثرثديا Cercedilla بلدة من مقاطعة مدريد تقع على مقربة من الاسكوريال وهي من اماكن الاصطياف.

وما كدت اقرأ هذه الترجمة حتى صعد
الوافه قهقهة كبيرة وقال: علام لم تصرح سابقا؟
فوالله لقد ظننتك في بادئ الامر تعنيني بكلامك
واذا به موجه الى الشعراء الخالين من فائدة وجوهر
فحسب، فاعجبني قوله هذا كما لو انه من الشعراء
المجيدين الذين لاتحصى لهم قلتهم. وتركت المقدمة
وشرعت بقراءة الفصل الاول وقد جاء فيه ما ياتي:
«حيث ان افراد هذا النوع من الهواء المعروفة
بالشعراء هم اقاربنا وتجمعنا واياهم النصرانية وان
كانوا فيها من الواهنين: وحيث انهم يقضون
طيلة سنتهم في عبادة الحواجب والاسنان والشرط
الحريرية والاخفاف وارتكاب معاصي اغلظ واكبر
- نامر ان يجمع الشعراء العموميون والفاجرون
خلال اسبوع الالام كما تجمع النساء الباغيات
ويرشدوا للرجوع عن غوايتهم وان يسعى لردهم
الى حظيرة الايمان. واننا نعين لهذه الغاية دورا
لايواء التائبين.
وايضا وبالنظر الى القيظ الشديد السائد على

ما ينتجه شعراء شمس من منظومات حارة لا ترى الليل ابدا ـ وهي كالزبيب ذبولا لكثرة ما يستعملونه فيها من شموس وكواكب ـ نفرض عليهم الصمت المطلق في شؤون السماء(2) ونعين اشهر محرمة على ربات الشعر كما توجد اشهر محرمة للصيد والقنص لكي لا تنفد من جراء هذه السرعة التي ينفقونها بها.

وايضا حيث ان هذه الطائفة الجينمية من الرجال المحكوم عليهم بالتصور الدائم(3) الذين جعلوا ديدنهم تشظية الالفاظ وقلب المعاني، قد اعدوا النساء من مرضهم هذا نعلن اننا نعتبر انفسنا مأوزين بهذه الصفقة من الشر الذي حملنا اياه في بدء العالم واننا حبا بالفقراء المحتاجين نامر بان تحرق قصائد الشعراء كما تحرق الاهداب

---

2) يقصد بها الكواكب

3) التصور ـ الشعراء التصوريون هم الذين غالوا في اتباع مدرسة غونغورا وكان كيبيدو من الد اعدائهم

القديمة ليستخرج منها الذهب والفضة والدرر.
لانهم في معظم اشعارهم يجعلون محبوباتهم من
كل انواع المعادن».

وهنا لم يقو الوافه على تحمل هذا القول
فانتصب واقفا وقال: لا! بل الاولى ان نجرد من
اموالنا كفاك قراءة فاني عازم على رفع دعوى
بهذا الشأن لا بالالف والخمسمائة (4). بل اول قاضي
انا لئلا امس ثوبي الاكليريكي وكرامتي بضرر.
وسانفق كل ما لدي في ملاحقة هذه الدعوى.
والا اليس من الحيف ان اتحمل انا هذه الاهانة
لاني اكليريكي؟ واني سأثبت ان قصائد الشاعر
الاكليريكي لا تخضع لهذه البراءة واريد بعد ذلك
ان ابين الامر امام القضاء وعند ما سمعت منه

---

4 «الالف والخمسمائة» استئناف نهائي كان
النظر فيه لاحدى غرف مجلس قشتالة. فالدعاوي
التي لم تنجح في بقية درجات المحاكم كانت تستانف
اليها نهائيا. بعد ان يودع المستانف (1500 دوبلا)
ومن هنا بقي هذا الاسم.

هذا القول ساورتنى الرغبة في الضحك ولكنى منعا للتوقف ـ اذ كان الوقت قد فات ـ قلت له: «يا مولاي! ان هذه البراءة انما قد وضعت من قبيل الداعبة ولا جبر فيها ولا ارغام لانها خالية من كل سلطة» فقال وهو يضطرب «يا لي من خاطئ! ولقد كان الاجدر بك ان تنبهني الى ذلك اولا فتوفر علي اكبر هم. اتعرف اي وقع لكلام كهذا في نفس من لديه ثمانمائة الف منظومة نقدا؟ تابع القراءة والله يسامحك على ما احدثته في قلبي من ذعر وهلع» فتابعت قائلا:

«وايضا حيث انهم بعد ان تخلوا عن اسلاميتهم ـ وان كانوا ما برحوا يحتفظون ببعض الآثار ـ احترفوا حرفة الرعاة فترى الماشية هزيلة لشربها دموعهم وتنشيطها بنفوسهم الملتهبة كما ان موسيقاهم تسحر البابها فلا تكلأ» ـ نامر ان يتركوا هذه الحرفة. وان تعين مناسك يلتجئ اليها محبو العزلة منهم. اما الاخرون منهم فلينصرفوا الى سياسة الخيل

لانها حرفة تتيح لمحترفها الفرح والفرصة لصب قوارص لسانه.

فصاح الوافه قائلا: لا بد ان بكون واضع هذه البراءة يهوديا متخنثا لواطا ذا قرون. ولو علمت من هو لهجوته هجاء مرا يرزح تحته الى الابد وما قولكم في ان فتى أمرد مثلي يجب عليه ان ينعزل في منسك او ان رجلا وافها يجب ان ينصرف الى سياسة البغال؟ مهلا أيها السيد ان هذه الاهانات لا تطاق فقلت: لقد قلت لك سابقا انها مداعبات وكمداعبات يجب ان تؤخذ ثم واصلت القراءة:

- وأيضا منعا للسرقات الكبرى يجب ان لا ينقل قصائد من اراغون الى قشتالة ولا من ايطاليا الى اسبانيا. ويعاقب الشاعر الذي يرتكب هذه المخالفة باجباره على تحسين زيه وان تكررت المخالفة يجبر على ان يكون نظيفا طيلة ساعة فوقعت هذه النكتة من نفسه موقعا حسنا لانه كان يرتدي جبة خلقا وعليها من الوحل ما يكفي لدفنه

بفركها فوقه اما الشملة فكانت وحدها كافية لتسميد فدانين من الارض

وهكذا بين هزل وجد قلت له ان البـراءة تامر ايضا ،بان تدرج بين اليائسين الذين يشنقون نفوسهم او يرتمون من عل النساء اللواتي يعشقن رجالا ليسوا سوى شعراء. وان يحرمن مثلهم من الدفن الديني. واننا بالنظر الى وفرة الغلـة التي حصلت من رباعيات واغاني وقصائد من ذوات الاربعة عشر بيتا خلال هذه السنوات الخصبة تامر بان تحال الملفات التي تنجو من ايدي التبالين الى المراحيض دون مراجعة، وختاما وصلت للفصل الاخير وقد جاء فيه ما يلي:

«ولكن بعد الاطلاع بعين الرحمة علـى ان في المجتمع البشري ثلاثة انواع من الناس هم من البؤس بحيث لا يمكنهم ان يعيشوا بدون هـؤلاء الشعراء نعني بهم الممثلين الهزليين والعميـان والموافهين؛ فنأمر بان يسمح بوجود بعض المتدرجين في هذا الفن على ان ينالوا اجازة من شيـوخ

الشعراء الذين في جهاتهم. وبأن يحرم على ناظمي المهازل انهاء الفصول المضحكة بقرع العصي وظهور الشياطين، والروايات الهزلية بالزواج. وعلى العميان بايقاع الحوادث في تطوان وباقصاء كلمات «اخوى» و«شرف» (5) ونامرهم بألا يقولوا «هوى» حين يقصدون قول «هذا المؤلف» (6) ونامر الشعراء من الوافهين ان لا يستعملوا في اناشيدهم الميلادية

---

(5) انما المقصود اقصاء كلمتي «اخوى و شرف» على الشكل الذى استعملتا به هكذا hermanal للاولى و pundonores للثانية وهو استعمال مخطىء.

(6) تلاعب في الكلام لا يمكن تعريبه لانه قائم على تقارب في نطق الكلمتين بالاسبانية ومن المألوف ارتكاب العامة اخطاء من هذا النوع عند الكلام لعدم معرفتهم بنطق بعض الكلمات على الوجه الصحيح فكان بعض الشعراء الجهلة يقولون zozobrar «ثوثوبرار» ومعناها «هوى» بدلا من قولهم la presente obra «لابرسنتي اوبرا» ومعناها «هذا المؤلف»

قوافي تختم بكلمة «خيــل» او «باسكــوال» وألا يتلاعبوا بالالفاظ او يأتوا بافكار لولبية تتكرر في الاعياد كلها دون ان يتغير منها سوى اسمها.

واخيرا نأمر جميع الشعراء ان يبعدوا المشتري وأبولون والزهرة وغيرهم من الالهة والا كانوا لهم شفعاء في ساعة الوفاة»

ولقد اعجب بما في البراءة كل مــن سمعوا قراءتها وطلبوا مني نسخة منها. ما عــدا الاويفــه فانه شرع يقسم بصلاة العصر وغيرها من الصلوات بان تلك البراءة انما هي هجاء له لما جاء فيها عن العميان وانه لاعلم بما يجب عليه ان يفعله. واخيرا قال. «اني لرجل جالس لينيان (7) في احدى المثاوي وقد آكلت «اسبينال» (8) اكثر من مرتين. وقال

---

(7) بدرو لينيان دي رياثا Pedro Liñan de Riaza شاعر معاصر للوبي دي بيغا.

(8) اسبينال Espinel هو الشاعر الكاتــب ثيثنطي مارتينيث اسبينال Vicente Martinez Espinel ولد سنة 1550 في مدينة رندة وتوفي سنــة 1624

أيضا انه وجد مرة في مدريد على مقربة من لوبي دي ڤيغا بقدر ما هو على مقربة مني الآن وانه شاهد ضون الونصو دى ارثيا (9) اكثر من الف مرة وان عنده رسما للشاعر الالهي «فيغيروا» (10) وانه اشترى السروال الذي نزعه الشاعر باديا (11)

ترك عدة مجموعات شعرية بالاسبانية واللاتينية كما أهم مؤلفاته هي قصة «ماركوس دي اوبريغون» التي تنتمي الى فن (القصص الشطار).

(9) الونصو دي ارثيا Alonso de Ercilla ولد سنة 1533 وتقلب في عدة وظائف واشترك بافتتاح تشيلي في أميركا الجنوبية ثم ألف ملحمة شعرية تدور حول هذا الفتح دعاها «لا اراوكانا La Araucana» وتوفي سنة 1594

(10) فيغيروا ـ فرنسيسكو دي فيغيروا Francisco de Figueroa (1536 ـ 1620؟) شاعر اسباني لقب بالالهي ولم يسلم من شعره الا القليل.

(11) باديا ـ بدرو دي باديا Pedro de Padilla شاعر اسباني من القرن السادس عشر ـ ولد في

حين ترهب وها هو اليوم يلبسه وان يكن في حالة مزرية. وما كان منه الا ان اراانا اياه مما اثار قهقهة الحاضر اجمعين الى حد ان واحدا منهم لم يرد مغادرة المثوى.

واخيرا حلت الساعة الثانية وبما انه لم يكن بد من السير غادرنا مدريد فودعت آسفا ووجهت خطاي شطر المرفأ. فشاءت الارادة الالهيـة دفعا لكل فكرة سوء قد تجول في خاطري ان التقي بجندي، فما عتمنا ان بدأنا نتبادل اطراف الحديث فسألني عما اذا كنت قادما من العاصمة فاجبته اني عرجت عليها مارا فحسب، فاعقب جوابي بقوله: «والحق يقال انها لا تصلح لاكثر من هذا فهي بلدة لسكنى الاناس السافلين. وقسما بالمسيح اني لافضل الف مرة ان اقيم في مكان تغمرني فيه الثلوج الى جسمي مرتجفا كالساعة مقتاتا من الخشب على تحمل المظالم التى يصاب بها اهل الصلاح

ليناريس وتعلم في غرناطة. انخرط في رهبنة الكرمليين سنة 1585

فيها فاعترضت بقولي ان في العاصمة من جميع الاصناف وانهم يقدرون كثيرا ذا الطالع السعيد فانتفض غاضبا وقال «كيف يقدرون؟ فقد قضيت ستة اشهر ألتمس قيادة فصيلة من الجيش بعد ان امضيت عشرين سنة في الخدمة وأرقت دمي في سبيل الملك كما تشهد بذلك هذه الجراح وأراني في احدى كاذتيه طعنة تبلغ شبرا أوضح من الشمس ان سببها احدى المناوشات. ثم أراني في عرقوبيه علامتين أخريين قال انهما أثر رصاصتين لكني استنجت من علامتين كانتا في رجلي أنهما تقشر وورم من البرد. ورفع قبعته وأراني وجهه فاذا فيه ستة عشر رتقا من جراء طعنة شقت منخاره، وكانت في وجهه ثلاث ندبات أخرى جعلته أشبه بالخريطة من كثرة الخطوط فقال لي مشيرا اليها «هذه أصبت بها في باريس في خدمة الله والملك الذى أرى وجهي مقطعا في سبيله. ولم ألق مقابل ذلك الا كلمات جميلة تقوم اليوم مقام الاعمال القبيحة. اقرأ هذه الاوراق وحياتك أنت

الذي لم تشترك بمعركة قط. وحق المسيح ان رجلا مثلي ليشار اليه بالبنان،(12)

وكان صادقا في قوله لما فيه من اثار ولكن من مجرد الضربات التي تلقاها، وأخذ يخرج مدافع من التنك ويريني أوراقا لا بد انها كانت لشخص آخر اتخذ هو اسمه، فقرأتها واغرقت عليه الف ثناء قائلا انه لا السيد (13) ولا برناردو (14) قاما بما قام به فانتفض قائلا:

---

12) أتى المؤلف بتورية في كلمة señalar فاستعملها اولا بالمعنى المجازى (اشار اليه بالبنان) وثانيا بمعناها الحقيقي وهو (ترك أثرا)

13) السيد El Cid لقب البطل الاسباني رودريغو دياث دي بيار الذي عاش من سنة 1040 حتى 1099 ومن جملة مآثره الحربية استيلاؤه على مدينة بلنسية من أيدي المسلمين.

14) برناردو Bernardo بطل اسباني من ابطال الاساطير واسمه الكامل هو برناردو دل كاربيو Bernardo del Carpio ويضاف الى القرن التاسع.

ومن اين لهما مالي؟ لا والله ولا غرسيا دي باريديس (15) ولا خوليان روميرو (16) ولا غيرهما من كبار المحاربين. لعن الله الشيطان! في ذلك العهد لم تكن مدفعية. ووالله ان برناردو ما كان يناضل ساعة في عهدنا هذا. واسال رعاك الله في فلاندس مآثر «الميلادو» تر ما يقولون لك عنه فسالته قائلا: هل انت هو؟ فقال: «ومن غيري يكون اياه

والمؤرخون غير متفقين على مسالة وجوده حقيقة ام لا.

(15) ديغو غارسيا دي باريديس 1466_1530 Diego Garcia de Paredes اصله من بلدة تروخيو كان فارسا مغوارا واشترك في حرب ايطاليا الى جانب ملك اسبانيا ضون فرناندو الملقب بالكاثوليكي وقد وضع ترجمته سنة 1621 الكاتب ضون طوماس تماليو دي بارغاس

(16) خوليان روميرو Julian Romero من قادة الجيش الاسباني في حرب فلانديس حين كان القائد الاعلى لويس دي ريكيسينس

اذا؟ أما ترى الثغرة التي في اسناني (17)؟ ولكن فلندع الحديث حول هذا الموضوع لان من العيب ان يمدح المرء نفسه

وبينما نحن في هذا الحديث اذا بنا نلتقى بناسك راكب اتانا يكاد يكنس الارض بلحيته هزيل البدن. عليه جبة من الجوخ شهباء اللون فحييناه بالتحية المعهودة «الحمد لله» واخذ هو يثني على حقول القمح ومعها على رحمة المولى فقاطعه الجندي قائلا: آه أيها الاب لقد رأيت الحراب حولي اكثف من هذا الزرع ووالله لقد عملت جهدي في نهب مدينة أمبريس (18) أجل والله! وكان

---

17) كلمة ميادو ـ mellado معناها أهتم اي من في اسنانه ثغرة. وهي في الوقت نفسه لقب لاحد الفرسان الذين امتازوا باقدامهم في حرب فلاندس

18) نهبت مدينة امبريس عاصمة البلجيك خلال حرب فلاندس في 18 نوفمبر سنة 1576 حينما كان ضون خوان دي اوستريا قائدا للقوات الاسبانية

الناسك يوبخه على اكثاره الايمانات فاجاب الجندي قائلا: انه لمن الواضح ايها الاب انك لم تكن يوما جنديا فانك توبخني على معاطاتي ما هو من شؤون حرفتي، فاستولى علي الضحك من رؤيته يجعله قوام الجندية وهمت انه محتال لانه لا شيء اكره على عظماء الجنود ان لم نقل كلهم من هذه العادة ثم بلغنا خلف المرفأ بينما كان الناسك يصلي المسبحة في حزمة من الحطب جعلت كرات من الخشب بحيث كان يسمع عند نهاية كل سلام عليك يا مريم قرقعة كقرقعة الكرة في لعبة الحلق (19) والجندي يقابل بين الصخور والقلاع التي شاهدها ناظرا الى اي الاماكن هي المنيعة وفي ايها نجب

وقد دخل الجنود الاسبان المدينة ونهبوها لكن القيادة العليا تصدت للقضية حالا واصدرت امرا باعدام كل من ينهب شيئا

(19) لعبة تقوم برمي كرات من خشب لتمرق داخل حلقة من الحديد ممسوكة بقضيب مغروز في الارض

ن نفاه شدعبة. وكنت انا انطلع اليهما خائفا من مسحة الناسك وحرتها الكبيرة نقدر خوفي من كذب الجندي. وكان هذا يقول: آه لو كان الامر بيدي لسغت قسما كبيرا من هذا المرفأ فاحسن بذلك الى المسافرين حسنا كبيرا .

وبينما نحن في هذه الاحاديث وغيرها وصلنا الى برندزا فدخلنا الثلاثة فندقا وقد حان الليل. وامرنا فاعدت العشاء وكان يوم الجمعة. فقال الناسك اذن فلنستر حسنا لان البطالة ام الرذائل ولكن نعم على تلاوة السلام عليك يا مريم مرارا وخرج ورق اللعب من كمه. فاخذ مني الضحك كل مأخذ حين رأيت ذلك وتعجبت وافقنا اثناء حركات المسحة. فقال الجندي: الا نلعب كاصحاب على شيء من المال لا يتجاوز مئة بليون وهي الكمية التي احبها فقلت وقد داخلني الطمع في اللعب على مئة اخرى. وقبل الناسك بذلك مجاراة لنا وقال انه يحمل ثمن زيت مصباح الكنيسة وهي تبلغ نحو مئتي بليون. واني لاعترف باني

فكرت في ان اكون لصه فامتصه. وانما تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. وذلك اننا شرعنا بلعبة الحظ (21) والانكى ان الناسك ادعى في بادئ الامر جهله تلك اللعبة وسألنا ان نعلمه اياها ثم تركنا نربح مرتين. وبعد ذلك فتك بنا فتكة تركتنا صفر اليدين. فوزنا ونحن فيد الحياة. اذ كان اللص يجمع تركتنا من على المائدة بتقفا يديه باعثا في نفوسنا اسفا واسى. فبخسر اللعبة التي نكون نتداول فيها قليلا نربح اثني عشرة لعبة نكون فيها كسرا. وكان يأخذ عند كل لعبة يربح اثني عشرة ايمانا وقدرها من اللعنات المبطنة بالايمانات. اما انا فكنت اعض اصابعي بينما كانت اصابع الراهب مشغولة تجمع مالي. ولم يترك قدسه دون ان يستشفع به وانتهى به الامر الى ان نربحنا

---

(21) نوع من العاب الورق تدفع فيه ورقة للصراف واخرى للنقاط وتكون الرابحة الورقة التي تلتقي اولا بشبيهها من الاوراق التي تسحب من المجموع

خني الوفض. فسالناه ان يلاعبنا على البسة ولكنه بعد ان ربح مني ستمائة بليون كانت كل ما احمله ومن الجندي المئة بليون التي كانت معه، قال ان ذلك انما هو من قبيل التسلية فقط وان ذلا مما قربه ولذلك يجب عليه ان لا يفكر بملاعبتنا من غير ذلك الغبار واضاف بقوله: «لا تجمعوا فتما ساعدني الحظ لاتكالي على الله، وما انا لم يمكن غاشا بالمقامرة التي حواها فيما بين اصابعه ومعصمه صدقنا قوله واقسم الجندي ان لا يلعب فيما بعد. واقسمت ذلك ايضا وكان الملازم المسكين اذ انه اعلمني حينئذ برتبته العسكرية بلغني يقول: لقد وقعت فيما قبل بين لصوص ومسلمين لكني لم اجرد مثلما جردت هذه المرة ما الراهب فكان يضحك من كل هذا. ثم عاد فاخرج سبحته ليستانف الصلاة. فسالته وكنت قد صحت صفر اليدين ان يعطيني ما انعشي به وان يدفع عنا نحن الاثنين اجرة الثوى حتى نصل الى شقوبية لاننا صرنا لا نملك فلسا. فوعد بان يقوم

بذلك ثم ازدرد ستين بيضة. وايم الحق اني لم ار قط مثل ذلك ثم قال انه ذاهب ليرقد ونمنا كلنا في غرفة واحدة مع اناس كانوا هنالك لان الغرف كانت مكراة لاشخاص آخرين. ورقدت انا والحزن العميق مستول على نفسي اما الجندي فدعا صاحب النزل واودعه اوراقه مع صناديق التنك التي حوتها وصرة من القمصان المهلهلة ورقدنا بعد ان رسم الرعب على صدره شارة الصليب ورسمناها نحن بعد مستعيذين منه. ثم اغفى وبقيت مستيقظا افكر كيف انزع المال منه. وكان الجندي يهذي في نومه متكلما عن المئة دبلون كما لو انها لم تبق له علاج

وجاءت الساعة التي قام فيها الجندي ان يؤتى بسراج موقد فاتوه به واذاه الخادم بالصرة باسم الاوراق فاخذ الملازم المسكين يصيح صباحا ان يجيء له الذي طالما ان نرد اليه خدمته (21) فاضطرب

---

(21) استعمل المؤلف هنا كلمة Servicio سرفيسيو ولها معنيان: مبولة وخدمة، وفي المعنى

الفندقي وإذ كما ألح عليه بأن يأتيه بها ذهب مسرعا وجاء بثلاث مآول قائلا: هاكم واحدة لكل واحد. أتريدون مآول أخرى؟ وذلك أنه ظن أننا مصابون بداء الزنطرية. وعندئذ قام الجندي وسيفه بيده وجرى وراء الفندقي مقسما أنه سيقتله لأنه تهزأ به — هو الذي شهد معركة «بباغطو» و«سان كنطين» ومعارك أخرى غيرها — مقدما له مآول بدلا من الأوراق التي أعطاه إياها. فخرجنا كلنا وراءه لنصده وكدنا نعجز عن ذلك. وكان الفندقي يقول: أيها السيد! لقد طلبت مآول «سرفيسيو» وليس علي أن أعرف أن هذه الكلمة يعني بها في لغة الجندية الأوراق التي سجلت فيها مآثر كل

الأخير تستعمل في الجمع أيضا للدلالة على سنوات الخدمة التي قضاها الموظف أو العسكري وهذا ما قصده الملازم ففهمها الفندقي على المعنى الآخر وقد صح فيهما قول الشاعر كل يغني على ليلاه. وهذا المشهد كله قائم على اختلاف القصد بين الملازم والفندق في كلمة «سرفيسيو»

واحد، ثم هدأناهما وعدنا الى الغرفة. اما الناسك فبقى في الفراش احترازا مدعيا ان الهلع قد اضر به. ثم دفع عنا كراء الفندق وغادرنا البلدة شطر المرفأ حانقين على تصرف الناسك ومن رؤيتنا اننا لم نتمكن من تجريدد من المال

فالتقينا بجنوي (22) - اعنى بهذا الاسم هؤلاء الذين يطاردون المال فى اسبانيا مطاردة الامسحة الدجالين المؤمنين - بصعد نحو المرفأ ووراءه خادم وبيده مظلة شان المتمولين. ففاتحناه بالحديث لكنه كان يوجهه كله الى الكلام عن الدراهم فكانهم قوم ولدوا للمال ثم شرع يسمى بيزانصون ويسألنا اذا كان من الموافق ام لا اعطاؤها مالا. وردد الكلام في هذا الموضوع الى ان سألناه انا والجندى عمن يكون هذا السيد. فاجابنا ضاحكا: انما هى بلدة من ايطاليا يجتمع فيها رجالات المال الذين نسميهم هنالك بالحنابن المريشين (23)

---

22) نسبة الى مدينة جنوة الايطالية

23) لعله يريد بذلك الاشارة الى علو مكانتهم

ليضعوا الاسعار ومن ثم سيطروا على المال وقد
استخلصنا من ذلك انه في بيرانصون تدار دوقة
مرابين. ومولانا عبلة الطريق قاصا علينا انه
مشرف على الدمار بسبب افلاس مصرف له فيه
ما يربو على ستين الف اسكودو، وكان يقسم
لكل امر بذمته وان كنت اعتقد ان الذمة عند التجار
كالبكارة عند امرأة لعذر قد يدع مما ليس له وجود.
ويكاد ان لا يكون لاحد ممن يتعاطون هذه الخدمة ذمة
لانهم سمعوا بانها اذا نمت قليلاً عضت ولذلك اتفقوا
على تركها في المهد.

وبينما نحن نتجاذب اطراف هذه الاحاديث
اذا بنا نبصر اسوار مدينة منغوبية فنبع نارق من
الغبطة في نفسي بالرغم عن نفسي ذكرى ما جرى
لنا مع المعلم كرا لهذه الغبطة فلما بلغت المدينة وعند
مدخلها رأيت ابي على قارعة الطريق منتظراً
فرقت نفسي لذلك المشهد ودخلت وقد تغيرت

اذ كان ذوو المكانة الرفيعة يضعون ريشة في
قبعاتهم.

شيئًا عما كنت عليه حين غادرتها اذ وصلت اليها
الآن ملتحيا حسن الملبس وتركت رفقتي وجعلت
ابحث عمن يعرف خالي حق المعرفة في المدينـة
فلم اجد احدا يبرد غليلي. وهكذا سـألت كثيرا
من الناس عن الونصو رامبلون فلم يدلني عليه
واحد منهم بل كـان جوابهم انهم لا يعرفونه ففرحت
كثيرا لرؤيتي هذا القدر الوافر من اهل الصلاح
في بلدي. وبينما انا في هذا اذا بي اسمع منادي
نصيح معجبا بصوته وخالي يقرع بمقرعته ودنت
ن خالي كان يسوق جماعة من العراة المكشوفي
الرؤوس في طوافهم ويعزف بمقرعته على ضلع خمسة
اعواد تحمل بدل الاوتار حبالا موسيقى احـدى
الاغاني الشعبية التي تغنى في الشوارع. وكنت
ارقب هذا المشهد برفقة رجل قلت له حين سألته
عن خالي اني من عائلة عبيلـة. واذا بـي ارى
خالي ورآني بدوره مروره بجانبي فارتمى علي
يعانقني ويدعوني بابن اخته. فكدت اموت خجلا
وابتعدت دون ان اودع الرجل الـذي كـنت

حادثه. وذهبت مع خالي فقال لي: بمكنـك ان ترافقني ريثما افرغ من هؤلاء القوم فها نحن الان عائدون من الطواف ولا بد لك اليوم ان تؤاكلني اما انا وقد رأيت نفسي على متن حصان واني بين تلك الجمعة اكاد اظهر كواحد من المجلودين وحينه داني نضـره هنالك وهكذا انفصلت عـنه وقد اخذ مني الخجل كل مأخذ الى حد اني لو لم يكن استلام تركني موقفا عليه لما كلمته في حياتي ولما ظهرت بين الناس.

وفرغ من قرع اكتافهم ثم عاد وذهب بي الى داره حيث حلت واكلنا

الفصل الحادي عشر

في ضيافة خالي وزائريه وقبض تركني وعودتي الى العاصمة

كان مسكن خالي بالقرب من الجزر في دار صغار فدخلناه وقال لي : لست هذه الدار بقصر ولكن صدقني يا ابن اختي بانها مناسبة لمحترف مثلي . وصعدنا درجا انتظرت ان ابلغ اعلاه لارى اذا كان يتميز عن المشنقة بشيء ثم دخلنا غرفة منخفضة السقف اضطررنا الى التحرك فيها مطأطئي الرؤوس كمن يتلقى البركة . وعلق خالي المقرعة في مسمار كان هناك الى جانب مسامير اخرى تتدلى منها حبال وانشوطات وحناجر وخطاطيف وغيرها من ادوات حرفته . فسألني لاي سبب لا انزع عني شملتي واجلس فاجبته ان ذلك ليس من عادتي . والله يعلم على اي حال

كنت حين شاهدت دناءة خالي وقال لي ان حظي
كان كبيرا لالتقائي به في فرصة حسنة كهذه اذ
اني سالقى غدا شيئا وانه قد دعا بعض اصحابه
واذاك دخل في الباب واحد من الذين يطلبون
صدقات لاسعاف انفس الموتى مرتديا جبة بنفسجية
اللون تغطي حتى اخمص قدميه وقال وهو يقرع
الصندوق الذي يجمع فيه الصدقات لقد كان
مغاطى اليوم من انفس الموتى بقدر انتفاعك من
المخلودين. فهات يدك ووضع كل منهما اصابع
يد الخمس على وجه الاخر دلالة على الموافقة
والاتحاد ثم شمر جامع الصدقات جبته عن ساقين
معوجتين وسروال من نسيج الكتان واخذ يرقص
سائلا هل جاء كلمطي. فقال ان لا ولكنه ما
كاد يلفظ كلمته حتى اطل علينا في ساعة سعد
زمار بلوطه اعني به راعي خنازير ملتفا بقبعته
محتذي قبقابا. فعرفته ـ حاشاكم ـ من القرن
الذي كان يحمله بيده. ولم يكن ينقصه ليسير

على ما هو مألوف الا ان يحمله على رأسه (1) فحيانا على طريقته. ودخل وراءه خالاسي اعسر الزور يحس قبعة يزيد اطارها على لحف جبل ورأسها على رأس شجرة جوز ويرتدي سروالا من جلد الجاموس وعلى جنبه سيف مقبضه اكثر رؤوسا من مصيدة الملك صقورا (2) اما وجهه فهو عبارة عن نسيج مسرد لانه كثير الندب كأنه مشرح. فدخل وجلس وبعد ان حيا اهل الدار التفت الى خالي قائلا وحقك يا الونصو! لقد احسن الدفع لجلاد كل من الرومو و العارسو فصدى ذو الانفس قائلا: انما اعطيت انا فلتشيا جلاد اوكانبا اربع دكات ليهمز الحمار ولا ياخذ المقرعة ذات الثلاث ضفائر حين جلدت فقال

---

(1) يكنى في الاسبانية بذي قرون من تخدعه زوجته

(2) اتى بتورية في كلمة gavilan فستعملها اولا بمعنى الحدائد المدببة التي تحمي مقبض السيف، وثانيا بمعنى صقر

الجلواز «والله لقد كافأت لورنثو في مرسية احسن مكافأة فقد كان الحمار يسير كأنه يقلد السلحفاة ببطئه لكن ذلك الماكر انالني المقارع خفيفة تحت لم يحدث لي سوى بعض الانتفاخات في الجلد وذلك قاطعه راعي الخنازير مسححا بقوله: «ان صحبي ما زال بخير» فقال المسؤول باسم منقوش نقتعه. ما من خنزير الا ياتي عليه يوم سان مارتين (1) وقال حاملي نصائح: «توسعي ان اعجز على كل من يحملون المقارع ان من وصي به اعامله كما يجب. فمجلودو اليوم دفعوا لي سنتز ابينوتا ونالوا مني مقابل ذلك مقارع صديق بالقرعة الوحيدة الصغيرة»

---

(1) يقع عيد القديس مارتين في 12 نوفمبر (تشرين الثاني) وفي هذا اليوم كان يبدأ ذبح الخنازير المعلوفة لتقدد لحومها لفصل الشتاء. فبقي مثلا قولهم ما من خنزير الا ياتيه يوم سان مارتين اي ان كل واحد لا بد ان تأتيه مصيبة ما عاجلا او آجلا.

اما انا وقد رأيت ما هم عليه من النبل اصدقاء حالي فاعرف بان ماء الحياء ورد وجنتي بحيث لم استطع ان اكتم خجلي ولاحظ ذلك علي الحلواز فقال «والدك هو الذي جلد منذ ثلاث» فقلت ان والدي ليس ممن يعاقبون منهم وحينئذ تصدى حالي للكلام فقال: «انه ابن اخي وهو استاذ في القلعة وذو مقام رفيع هنالك فاعتذروا الي وعرضوا علي كل عطف ومساعدة ولكنت في باطني احرق على ان آكل وانقص درسي وبعد عن حالي.

ثم مدوا الخوان واصعدوا الطعام من مطعم زري قائم وراء الدار بينا لف حول قمعة كما تصعد الصدقات الى المساجين في نقاها قصاع واباريق ودنان لعبت بها ايدي القدم وأبى لاحد ان يصف شمي وعاري! ثم جلسوا حول الخوان وتصدر المسؤول واحتل الاخرون مقاعدهم دون ترتيب ولا اريد ان ادلي بما اكلناه وانما اقول ان اكثر ما كان مما نشرب. فجرع الجلواز ثلاث كؤوس

من النبيذ الاسود. اما راعي الخنازير فحين رآني على تلك الحالة اخذت يده تناول الابريق من يدي على الطائر وتجرع من الكؤوس اكثر مما تفوه به سماعنا من الكلمات ولم تخطر اماً على ذهن احد ولم تكن لاحد رغبة فيه

ثم جر فوق الخوان خمسة قراص من الحلوى من ذوات الاربعة دراهم. فتناول احدهم مرية ماء المقدس وبعد ان دنوا من الاقراص العجيب الصفح تلوا صلاة قصيرة خصوها بالدعاء وتمنى الراحة الابدية لنفس الميت الذي اخذ من جسمه لحم الاقراص (1). وقال خالي: لا شك انك تتذكر يا بني حتى ما كتبت اليك بشان ذلك فعاودتني ذكرى ما في تلك الرسالة. واكل البقية اما انا فاقتصرت على تناول اسفل الاقراص وبقيت تلك العادة عالقة بي ولهذا ما زلت حتى اليوم حين آكل

---

(1) راجع ما قلناه سابقا في الفصل السابع عن استعمال لحم الموتى

اقراصا من الحلوى اتلو السلام عليك يا مريم من اجل نفس من احذ لحم الاقراص من جسمه.

وامتدت الايدي مرة تلو مرة الى الابن من الخمر وبلع بالجلوار والسائل ما جرعاه ان قال احدهما وقد حضرت صحفة من المقانق التسمية بالاصابع السوداء انه هاذا نؤتى بالجسرة مطبوخة. وكانت حال حالي حيث انه مد يده وقبض على واحده معه فقال ـ وقد حانت لمحه صوته وترنب احدى عينيه بينما كانت الاخرى تعوم في السرف ـ ... : بحق هذا الخمر الذى خلعه الرب على صورته ومثاله لم آكل قط لحمة مطبوخة الذ من هذا ... فحس تصرت الخلوار بيده وتناول الصحفة قائلا ... ن هذا ... لسخر ... ورضي الخنازير ... ته ملحا ووضعه في فمه قائلا ... ما احسه من ... لذلب احدث ضحك من جهة وتلمظ ... من جهة اخرى واني سرق فتناول السول صحيفة من دبه قائلا: ان الله قد بارك النطافه وبدلا من ان

بضعها على نفسه ليحتسيها وضعها على خده ثم قلبها واذا به يشوى بذلك المرق. واصبح كله من اعلى رأسه الى اخمص قدميه على هيئة مزرية وحين شاهد نفسه على هذه الحالة حاول ان يقف ولكنه احس بثقل في رأسه فسقط على المائدة ـ وكانت من الموائد التي جرت بسهولة ـ فقسمها ولطخ الاخرين وبعد هذا كله ادعى ان راعي الخنازير دفعه. واذ رأى هذا ان الآخر ساقط عنيه ولا محالة قام بدوره ورفع القرن وضربه به ضربة ثم تماسكا بالايدي. وعض المتسول راعي الخنازير في خده، وحيث كانا متلاصقين اذا بهذا من جراء العثار والسقوط بقي في وجه المتسول كل ما كان قد اكله.

اما خالي وكان اكثرهم تمالكا لنفسه فصار يسال عمن جاء الى داره بكل هؤلاء الاكليريكيين، وحين رأيت انهم صاروا يضربون في الجمع (5) اعدت السلم

---

(5) كناية للدلالة على انهم في حالة سكر لا يعون ما يقولون فكأنهم في عملية الجمع يضربون الارقام بدلا من ان يجمعوها

الى حصانه دبهو . وافلت كلبهما من يد الاخر ورفعت الجلواز الذي كان منطرحا على الارض يبكي بحزن عميق . ودفعت بخالي الى الفراش فما كان منه الى ان ارتمى على مائدة ذات قائمة واحدة ظنا منه انه احد الضيوف ونزعت البوق من يد راعي الخنازير الذي لم اكن لاقوى على اسكاته بعد ان رقد الاخرون اذ كان يصيح مطالبا ببوقه وقائلا انه لا احد يعرف ان يصيح به الحانا سوى ما يعرفه هو وانه يريد ان يعرف الارض وحين لم افارقهم الا بعد ان رأيتهم نائمين وخرجت من الدار وقضيت ما بقي من النهار في الاطلاع على اراضي . وعرجت على دار المعلم كاسر فقيل لي انه توفي ولم احتج الى السؤال عن سبب وفاته لعلمي انه لم يترك في الدنيا شيء يسمى جوعا

عدت الى الدار ليلا بعد ان قضيت خارجها بضع ساعات فوجدت احدهم مستيقظا يدب على يديه ورجليه في الغرفة باحثا عن الباب وهو

بقول انه قد ضاع الدار فانهضه وتركت الاخرين

نائمين حتى الحادية عشرة ليلا واذا استفاقوا

وسأل احدهم وهو دمثلي -كم الساعة؟ فاجابه

- خمر - وشأن السكر لا تراثه - انه لا

- وانما هي ساعة القيلولة وان آخر ساعة

وطلب المسؤول فعنه ... اردوه قولا ... اقد

... الكاده ناعاس ... وبدلا من

ان يقصد ... سار الى السماء ... النجوم

واخذ بصيح مناديا الاخرين قائلا ان النجوم طالعة

في رابعة النهار وان الشمس قد كسفت ضوء

... فرسموا جميعا علامة الصليب وقبلوا الارض

اما انا فعند ما انصرف مكرم المسؤول خامرني الاسى

وعزمت على الاحتراز من امثال هؤلاء القوم وكنت

كلما شاهدت هذه المنكرات والبدعات ازددت

في الرغبة بان ارى نفسي بين قوم اشراف ونبلاء

فصرفتهم واحدا واحدا كما ساعدني الجد وارفدت

خالي الذي لم يكن ليزايله المكر وان زايله السكر

وتمددت انا فوق ملابسي وبعض الملابس الاخرى التي اراد الله ان تكون هنالك

وعلى هذه الحالة قضينا الليل وفي الغد حاولت مع خالي ان اتعرف على تركة والدي واستلمها حالا مدعيا انني مضطر ولا اعرف السبب. فسخط رحته ثم نهض وتحادثنا في شؤوني وقد تعسادي الامر لان خالي رجل كسر السذاجة والامين عن معاقرة الخمر والخمر فعمه من علمي تحصيـ فسه من دروي - وان لم تكن كلها - وهكذا علمي بثلاثمائة دكة رحها المرحوم والدي بيديه وودعها عند امرأة خيرة كان تسرق تحت كنفه في ما تنفد حولها من هذه الكورة عن بعد عشرة فرسخ

وخلاصة القول ولئلا اتعب حضرتك بالاسباب استلمت مالي ولم يكن خالي قد سرقه ولا انفقه فكان قدرا وافرا لو قبس بقلة عقله لانه كان تؤمن ان استعمله للدرس والحصول على شهادات عالية وان ابلغ بذلك رتبة جنرال لاعتقاده

بسهولة بلوغها اذ كان هو نيلها بمقارعه دون جهد (6) وحين رأى المال بين يدي قال: يا بني ان لم تصلح نفسك وتسلك جادة الخير والصلاح جعلتك نعمة كبيرة لان الله من نقتفي اثره وبين يديك مال وفي كل حين وكل ما عندي وما اربحه انما هو لك فشكرته تشكرا جزيلا على هذه النصيحة وقضينا الدهر في حاديث لا طائل وراءها وفي الزيارة للاشخاص المذكورين سابقا وامضي خالي العشية في لعبة عظم العرقوب (7) مع راعي الخنازير والمتسول وكان هذا يراهن على

---

(6) استعمل المؤلف هنا جناسا لا يمكن ترجمته بكلمة كردنال، اذ لها معنيان في الاسبانية: الرتبة الدينية المعروفة وهو المقصود اولا، والخدور التي تسببها في البدن الضربة الشديدة وهو المقصود ثانيا

(7) لعبة تقوم برمي عظم العرقوب في الهواء فاذا سقط على الارض وثبت على جانبه الضيق ربح اللاعب.

القداسات (1) حسن يراهن على اي شئ آخر وكان مشهدهم وهم يتداولون العظم مما يستحق ان يرى: اذ يتناوله رامية من الهواء وبعد ان يهزه في قبضة يده يدفعه الى الاخر وكانت لعبة العظم تغنيهم بديلا عن لعب الورق ومنها يستخرجون م بقابلون به معمل العطش لأنه كان يتخلل المراهنة دائما ابريق من الخمر.

حتى الليل فذهب الاخرا، وقدنا انا وحسن ... في سريره اذ كان قد جهز لي فراشا وحين اصبح الصباح نهضت من قبل ان يستيقظ وذهبت الى فندق دون ان يشعر بي ثم عدت واغلقت الباب وشددته من الخارج ورميت المفتاح الى الداخل من ثقب صغير تمر منه القطط

ولما فتحت ساعة ذهبت الى فندق لاحسي ... وانتظر فرصة مناسبة لانتقل الى العاصمة. وتركت في الفندق رسالة مختومة اخبره فيها بذهابي ووسمه واوصيه بالا يبحث عني لانني لن ارتد اليه فيما بعد.

---

(1) اي على جعل القداسات

الفصل الثاني عشر

في سفري وما حصل لي خلاله حتى بلغت العاصمة

في ذلك الصباح كان يستعد للغدو سوى مكار يقود حمولة الى العاصمة. وكان معه حمار فاكتريته منه وخرجت انتظره امام الباب وما ان خرج حتى امتطيت الجحش وبدأنا نقطع تلك المرحلة. وبينما نحن سائرون كنت اردد في باطني قائلا: ألا فابق هنالك ايها الجبال، يا عارا على الصالحين وفارسا على الرقاب.

وكنت افكر في انني ذاهب الى العاصمة حيث لا احد يعرفني – وذاك خير تعزية لي – وانه لا بد لي ان اتكل على حذاقتي وحدها. وعزمت على ان انزع عني هنالك ملابس الطلاب الطويلة واستبدل بها اثوابا قصيرة على زي العاصمة

ولكن فلنرجع الآن الى ما عمله خالي بعد أن
داعته "الاهنة" التي تضمنها ـ الخ التي بعثها
حسيب باشي .

رسالة

حضرة السيد البونصو بالماون: بعد أن انعم
الله علي بنعم غشاوة كانت تحول من أمام عيني والدي
كرمه وابتداءه والدي في حلطفة ـ من حيث
على الأقل أعرف أنها لن تخرج ـ ـ حق
ـ ـ ـ من نعمة سوى أن يفعل ذلك ـ نعم
دائما وعليه أني أريد أن أكون وحيد سلالتي
ـ د من المستحيل أن يكون منها اثنان ـ ما ـ فع
بين يديك ونقطعني كما عهدت بالآخرين فلا
تسأل عني لأني متنكر ـ من قرية واحدة
لك والله

ولا حاجة الى الكلام عما قد يكون حصل
ـه من قرص التقول ورماني به من سب وشتيمة
ولنرجع الى ما وقع لي في طريقي : فقد كنت

اسير ممتطيا حماري المنشاوي (1) متمنيا الا التقي باحد واذ بي ارى من بعيد نبيلا يقبل رهوا وقد القى عليه معطفا وتقلد سيفا ولبس سروالا يبلغ الركبة واحتذى حذاء يغطي الى ما فوق ساقيه. فسر حسن الهنداء. وكان طوقه مفتوحا وقبعته محنية الى احد جنبي رأسه. فظننت انه من نبلاء وانه ترك عربته الى الوراء فادركته وسلمت عليه فنصر لي وقال. انك بحضرة الاستاذ تسير على متن هذا الحمار اكثر اطمئنانا وراحة مني على هذا الجهاز. فاجبته وقد فهمت من قوله انه يعني بذلك العربة والخدم الذين تركهم الى الوراء: حقا اني اعتبره اهدأ من ركوب العربة التي – وان كان جنابك قادما بكل رفاهة في العربة التي تركها وراءه – اجد ضيقا كبيرا في تمايلها من جنب الى جنب فقال مضطربا ايه

---

(1) نسبة الى المانشا وهي مقاطعة اسبانية. والبها تنسب دون كيخوطي بطل قصة سرفانطيس الشهيرة

عربة تعني؟ واذ التفت الى الوراء بعنف سقط
سرواله لأن التكة انقطعت ولم يكن لديه سوى
واحدة. فكدت اموت ضحكا من ذلك وحينئذ
سألني أن أعيره تكة. اما انا وقد ابصرت انه لا
ترى من القميص الا كفتها فقلت: بالله عليك يا
سيدي! ان لم تحضر حذلك فلن اقوى على مساعدتك
لأنه ليس لدي سوى تكة واحدة فاجاب وهو
يشد بيده على سرواله الذي قد عبر مفصل على
قامته «ان شئت تمزح فلا حرج لأنني لا افهم ما
تعني» عاشرتك في خدمة وافصح لي عن حالته
- في باب الافتقار - الى حد اننا ما كدنا نقطع
نصف فرسخ حتى اعترف لي بانني ان لم اسمح
له بركوب الحمار فلن يكون له سبيل الى بلوغ
العاصمة لاعيائه من السير ماداً بقبضة يده على
سرواله. فداخلت نفسي الرأفة ونزلت عن الحمار
وحيث انه لم يكن بوسعه ان يعقد السروال فقد
حضرت الى ذرعه واركبته وقد هالني ما [illegible]
حسن مسلكه: ولكن [illegible]

طالة في ما عطله من العجز سوى انه نعسيما
فقال وقد احس بي رأت منه ذلك ما حصره
انشدا من كل ساع لذهب ونملك الك حين
ضرب خوفي ممسوحا وحسن هندمي ضمت اني
من انشاد الكوندي دي نرلوس (2) فقال هند

---

(2) الكوندي دي نرلوس – هو بين
فرسان وقد وضعت قصة شعرية حول حبه
ووفائه لهذه نبيلة كانت تسمى الزوجة
زكت مرة عند بعض سعيه له ذا لعقد
عنه توم ومن رجع من الشرق منها ان تتزوج
حتى سن حتى فبعد مرور خمسة عشر عاما
على بضاع اخبار عنه فاضطرت للسوس في
زوجها سائل سي موت الكوندي وتزوج
بالكوندسا زوجه مستعده صون رولدان ولكن
الكوندي دي نرلوس رجع بعد ان قام بمغامرات
خطيرة وراد ان ينار لسرقه المهان ولكن
الاساطير والاشراف تدخلوا في الامر واصلحوا
بينه وبين رولدان وعملوا على ارجاع الكوندي

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] مؤكدا [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] حتى لا [illegible] [illegible]

هذا [illegible] [illegible] حتى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] في [illegible] [illegible] مما [illegible] فيها [illegible] [illegible]

في [illegible] [illegible] من [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] كما [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] حصره [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] على الناس [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

14 [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

وليس توسع من لاسى عنده ان تكون من طبقه
الاشراف (١٣) وقد اثرا.. فيه عكوك اسرته
حين رقص ذات يوم قصبه طاولا صاحب مطعم
... ن ... سه معان سرحس من الحجر مدعما
... س مه حر وف مذهبه ولكن ال ... ون
... في ... در مه في الحروف واكسر
... ومع هذ كمه في الحروف قد قلله وبعد
عد حي ... ى لم ... ي ... فع عنده
... (١٤) في ... روه وليس ... رود ...

---

(١٣) ... فوق ... هـ نقطع عنده
... مكن ... ها ... مر ...
... في لغه ... و عصا ... الاملا
(١٤) ليس ... عنه ... مر ... ى
... على ... الوع وعادل اسم العرى لا
... سروى ... وقد ... عمل الموقع حماسا
حر واحد اسل ... الحصعى لا انجاري فكانت
... ابه ... حاجه ذلك المرتفع الى التجد لانه
ان ... ما ... اس له ما ... فوقه

ـنحو عوعمـ ـى 'موترو ـ 'دا صـان حمار
كل هذه 'لسم ـ فد وقعد كلها في كعاله قدمه
ولم نسو ي ما ىىعه سوى عـ صور ولكـي
سو حالعي ' حد مر حنح الله 'لا مر ـس
حـاله قد ه 'سمه حمله في حـامه ـس هو 'لحال
في 'رمدور و 'سدور' و ـودور و ـ 'ـدور
د ـورـدور وغيرها (7)

---

(7) كلمه اصوـ معـ ا ـ ر ـ ـ في
و ـ ـ عـر خـملي سعـ ـ ـ وـ ـوى
ـعـ ـ رقعه ـ ـ ع سعماتها في حد اوحـ
ـعمول العـ حري عـره ـ ـد عقد 'ـوت
'كتوكـس و في عد' سـر مؤعـ ـوه ه
ـحد حد ـ حـه ـ ـ 'ن وع 'لـس ـاحـد حـعر
ـ ـحوه و'حد ـور ـيـ ـه ـ ـ ـ
ـحمله كـعـ 'مام ـ ه حمده في حـده و'ـ ـ
حا' ـعده ـه وـعـها' 'ما اى 'ـ ـوـ 'ى
ـرقها ـ ـور ا ى حلاـ 'ـوـدور ا ى ' ـ ـ
لكـ ـ ـ ـ ـ ا ى ـ ـ ـ ـو ـور ا ـ عكار

واى لاعرف دىں كلانا هدا السال وان
سروده الصاحبك فد لنى وسرحت حاطرى
فسا ء عں ده وى ىر هو داهب ولادا فعال
ىحسر كان اىه سه وهى صوں حورىو
بود عص ىحوعومس ىى مورو ى حوردان
وحوىقال ء ىر فص سهاكسر صمنا ىده
.. عوں ىمىى لد للدوى خرس

وحرى عد ىس ىه ىقص ى معاصه
ىمكى ىحس حاں ىىه فى دره صعىره مه
سه ىحه مىى على عد عومى وهو لا ىعى
حد ىمع ى ىقوس ىمس ىعى ى وىں
ىسرب حس سىع ىحر ىحسع وحس ىصىں

ه عى اصوىا فسعىل ىوم دوى ىعفه
لوىصه ى ىوعه ووضع قى ىسه مسوقا كلمه
اسمورا

هىا ون ىسرف فى اعىال الالعاب فلم
حدى مىه مه دى ىدىه وىعاله ى و ىالصعمه
مسىره

لسريده بحد مو لد مسوته كن قام و صاف
عوله ما دخلنها فد وحلت حربي من ماسه
سوں و حرمت فرانا سرحوفه او مئلده امد
سى ت او من سعه ته هو محرم لان محاره في
لعاعده كما لسر حول كل ما ممسه دهما اما
انا عرس اعرج حي كلمه وحوله سحه من
ــ دوى تصرف ب عص على الله وسع
من عس في العاصه من عم على ساكه ده كون
سما ان الامر على ـ تصرفي تعسر وتعد
ــ عصرون على ما هو بهم وبما لمسون
ما هو لعير فعال امر هذا الصف احكمون
والدلت من الصف اخر وعول الله معنى
محب متعه كل نوع في مد عده الامكنه
وان اردت ان اعلو علمت كلامي فاسمع
حوادي وحسى فقدر من كل شئ

الفصل الثالث عشر

وفيه يوجز أسرار السر وما وعد به
من فقه حياته وعبادته

سمت ب معرف ود ن في اعرجيه راسما

حير مس وعلمهم شاهيه وعمرهم وبي فيها

حرف الامور كلها وهذا سمر الاسرار وحقى

آخر وان فيها نوع من الناس على ما كلسي

يعرف بهم مالت ساسب وبه مثل و ى سى

آخر يجدر منه وأما سمر فيما سمسم بعضت

محالة معصا سمون د عر ن ددكانه والعصر

يحر حالة ومر عيد وجوه ونحري وكلس

وأخلة سمعا وتا م يكون ذاوى الطاوى

لا سع نعوت من سـ لعب لعب الباعث العشي

ومما لـ عب أولياء وعبث المطاعم وصوف بالعسر

وجر قوم باكل الذكر ويصهر انه ذلك مسمى

ومدحن وحد درنا مروية فحد مس كسا ملاى
عشاء الصار والصور وقسور الفوكه وال...
مستوى ... الحرث وحلودها وان هذ حمعه
من سد الملا سعحبر به بهار وحس بلحب
الصف سرع ... فيقول احدنا امن الممكن
ان لا تكون في سلطة كافيه لاجبر هذه الفئاه
على الكتابة فجميعه لاحد عقو ... سلى فان
معن لاصحب ... حو ه وهو الحد ...
ومن لا عرفنا حو معرفه معاني عنده خمسه
ومعنى ... من لما مسه وتعلو ما انفسه

ما على احسانا على ...
محب ... لا كاد ...
...
... حو معرفه ...
... فه حلس فصدف وان ...
... مدة ... ومن ...
معنى العود امه ان هذ الصار حر ...
انها عنهمن مرا عدده وان ...

جنا ان بلي. وان كان رب البيت يجيد قد
الخبز او الخمر او اللحم او اي شيء كان فاننا
نقول بجادا لعرصه نردد فيها لقمة ما: والان
فلنسمح حضرتك أن يبدأ قوم من بدنك بمهمة
حدد الخون بعد كان من عادة ـ وهنا نذكر
بعد واحد من الاشراف لموفن توكي او كوبدي ـ
سكنه انه نجبه ان يعد رؤنبي قطع لمر منه
الاكل، وما نفرغ من هذه الكلمات حتى نساول
لسكين ونقطع بعض اللقم وبعد قليل نقول: ما
حسن رائحته! احل! ان لي اذقه اهنت الطباخة
ما برع بدها وبرفق القول بالعسل وهكذا بدهب
بالتجربة بصف لصحفة اللحم لانه لحم والشحم
لانه شحم وكل شيء لانه هو

ومتى قمنا هذا الامر فاذا نجد قصعة مررة
من احد الادبرة لكننا لا نتناوله جهرا بل خفية
خشين الرهبان على الاعتقاد بان ذلك من جانبنا
نقشف كثير منه حاجة

وما احمل ان برى احدنا في احدى دور

التعب وما يبذله من عناية في الخدمة فيزداد بقرب
الشموع وبنى بالشمول وبسط الاوراق ويزحف
الى الراتج. وكل هذا للحصول على بلمون حلو ...

ونحفظ عن ظهر قلبنا ما يصيب كل واحد
منا من مجموعة البستنا القديمة. وكما ان في
مكة أخرى ساعة معينة للصلاة لنا ساعتنا للرتق
وما غريب ما نقوم به حينئذ: وحيث ان الشمس
عدونا اللدود لانها تفضح مرقعاتنا وتبرز انه وخرقنا
فاننا نقف صباحا مفتوحي الساقين تحت شمس
فمن على الارض ماترسمه من ظل الخرق والخيوط
متدلاة من الرقع المضافة الى السروال في ما بين
الساقين. فتاتي تمتص تلك الخيبة. ونماذج هذه الرقع
تسقط ... فتلك عندنا ما تريد من الحصة
الوثنية تضيفها الى القسم الامامي. ولذلك من عادتنا
ان نكون والكفار تحميه ... تحت ...
وليس عليه الا عساوة رقبة من الصوف ولا عرق
عند الالتصاق ونحترز من الايام الريحة ونحرص على
الادراج المسيرة ومن ركوب الخيل. وندرس وضعة

تحرسنا من الضوء ففي الايام النيرة نسير والساقان متقاربتان. وحين ننحني للسلام لا نحرك الا الكعاب لانه لو انفتحت ركابنا لشوهدت من سراويلنا نوافذها العديدة. ولا شيء على اجسامنا الا وقد كان من ذي قبل شيئا آخر وله قصته ملاءات دري هذا اللباس العصر ذات الكمين فقد كان منديلا سروالا ومن قبل معطفا وفي ناديء الامر قبعة. وهو ينتظر الآن ان ينقلب باطن جورب وعدة اشياء اخرى غيرها (1) اما الخفاف

---

(1) واشتريت ملاءة مذارية فلبستها ما شاء الله رداء ومحفة ثم احتجت الى طيلسان فقطعتها ولبسته ما شاء الله ثم احتجت الى جبة فجعلته ظهارة جبة محشوة فلبستها ما شاء الله ثم اخرجت ما كان فيها من الصحيح فجعلته مخادا وجعلت قطنها للقناديل ثم جعلت ما دون خرق المخاد للقلانس وجعلت السقاطات وما قد صار كالخيوط وكالقطن المندوف صماما لرؤوس القوارير.

الجاحظ ـ كتاب البخلاء ص112 طبعة ليدن 1900

فتكون قبل مناديل مقلوبة عن مناشف كانت سابقا اقمصة بنات ملاحف وبعد هذا كله نستعملها كورق وعلى الورق نكتب ثم نحوله سحيقا نحيي به الاحذية، فقد رأيت هذا الدواء يشفي احذية لم تكن يرجى لها حياة. وما اقول في فرارنا من النور ليلا لئلا ترى معاطفنا الصلعاء واردينا الجرداء اذ ليس فيها من الشعر اكثر مما في الحصاة. ولا ادري ما هي حكمة الباري في منحنا الشعر في اللحى ونزعه من المعاطف. ولكي لا نستأجر حلاقين اتفقنا على ان نصبر دائما الى ان يطول شعر واحد آخر منا واذاك يتبادل الاثنان نزعه عملا بما جاء في الانجيل وتعاونوا كالاخوة البررة ونحترس من ان يطأ الواحد منا منازل الآخرين حين نعلم ان واحدا يتعامل مع نفس القوم الذين يتعامل معهم واحد آخر وما ادراك بالغيرة بين البطون!.

من واجبنا ان نجول في الشوارع ممتطين جوادا مرة في الشهر وان نكري جحشا وان نركب

[illegible] السه وا [illegible] في مؤخرتها [illegible]
[illegible] في [illegible] مره وبا [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في ا[illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] مكان [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] و[illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] اعاده
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] فلوس

ومن [illegible] على [illegible] قال [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الاسناد ان الشريف يمكن ان تنقصه هذه الامور كلها اما الطوق المنشى فلا، وذلك لان الطوق مفتوحا [illegible] وافرة ولانه وهو منشى يصلح [illegible] ان [illegible] على جهته اد [illegible] المر و [illegible] واعلم حاما با حضرة [illegible] ان [illegible] عدد حاجاته [illegible] في [illegible] عن الحضر (3)
و [illegible] في العاصمة سوا [illegible] الان و [illegible] ام في المستشفى ولكن [illegible] ومن حسن التصرف فهو [illegible] ما [illegible].

ان [illegible] التي [illegible] ذلك الشريف [illegible] اخذت [illegible] لي وسحرتني الى حد اني وصلت وانا [illegible] راجلا الى لاس روثاس (4) حيث

(3) يستعمل المؤلف هنا جناسا في كلمة faltas فمعناها الاول العوز او الحاجة والثاني امتناع الحضر.

(4) لاس روثاس Las Rozas اسم بلدة من مقاطعة مدريد على مقربة من الاسكوريال

قضينا تلك الليلة وتعشى الشريف بمعيتي اذ لم
يكن لديه فلس واحد وكنت من ناحيتي مديناً له
بنصائحه لي لانه فتح عيني بها الى امور كثيرة
ومالت نفسي الى الجمال فاعترفت له عن رغبتي
قبل ان نرقد . فعانقني مسروراً قائلاً انه كان
يؤمل ان تفعل ذلك لانه فعلها في رجل عاقل مثلي
وعرض علي ان يعرفني في العاصمة بعشرة اخوان
الجمال وان افيدهم كلهم في البلد الذي يسكنونه
فقبلت عرضه ووعدته بالدفاع الذي [illegible]
احببتها بل اقتصرت على اعطائه مائة درهم فحسب
وقد كانت هذه الكمية مع ما قلته واقلقه من حسن
كافية لكسب موده.

فاشتريت له من رب المثوى ثلاث بطات
فربط سراويله بها وتمنا تلك الليلة ثم تحركنا
فبلغنا مدينة ناكرا.

الكتاب الثاني

من حياة الشاطر

الفصل الاول

في ما وقع لي في العاصمة منذ وصولي حتى الدل

على الساعة العاشرة صباحا بلغنا العاصمة وحسب الاتفاق قصدنا دار احد اصحاب خوسه طوريو منزلها وحين وصلنا الى الباب قرعه ففتحته عجوز هرمة سيئة الملبس. فسالها رفيقي عن الاصحاب واجابته بانهم ذهبوا يحتسون؛ فبقينا وحدنا حتى الثانية عشرة وقضينا تلك الفترة دون ذاك انساي على احتراق حرقة تمسر الرحيص واقدامي على كل ما نعوله اليمي وعلى الساعة الثانية عشرة والنصف دخل الباب طفل يرتدي جبة من الصوف الذي تبلغ قدميه وقد فاقت جبانه رنانة. فتحدث لانانزيه نجاتين واستأذن حديثهم عن معاناته في وعرضه خدماته علي ثم تكلمنا قليلا واخرج قفازا مع ستة عشرة دلوتا ورسالة جمعها بواسطتها قائلا

انها براءة الاستجداء من اجل احد الفقراء. فافرغ القفاز واخرج واحدا آخر ثم طواهما على عادة الاطباء. فسألته لماذا لا يلبسهما فاجاب لان الاثنين يد وحدة وانما حمله اياهما حيلة ليقال ان لديه زوجا من القفافيز. واثناء هذا كله لاحظت انه لم يزل ملتفا بمعطفه فسألته - كمستدع يريد الاطلاع - عن سبب اشتماله لدثار داعطف فقال: يا بني: في ظهري ثقب واسع تصحبه رقعة من الصوف وبقعة من الزيت وهذا اللثام يغطيها كلها وهكذا اقوى على التجول ثم فتح المعطف ورأيت ان تحت الجبة شيئا ذا حجم كبير فظننت انه سروال اذ كان مظهره شبيها به لكنه حين شمر ليدخل فيتفلى اذا بي ارى انهما دارتاز من الكرتون ربطهما بنطاقه واحكمهما على ساقيه تحت كسوة الحداد بحيث تخدعان الناظر لان صاحبنا لم يكن يلبس لا قميصا ولا سروالا ولذلك كاد ان لا يكون له حاجة الى التفلي

اذ كان على مقربة من العرس. ودخل التقلي (1)
وقلب لوحة كتب فوقها (في الداخل مشغول) حتى لا
يدخل واحد آخر. فحمدت الله حمدا وافرا على
تعويضه الخلق بالشطارة مما يمنعه عنهم من الغنى
وقال صاحبي : وهو لقد افلست وانا مصاب بداء
السراويل (2) وعليه فلا بد لي من الانصراف الى
الترقيع، وسأل عما اذا كانت هنالك بعض الرقاع
فاجابته العجوز — وكانت تمضي يومين من كل
اسبوع في جمع الخرق من الشوارع كما تجمع
غيرها الورق لاحياء ما لا يرجى له شفاء من امور
الفرسان — ان لا وان ضون لورنثو انبيعيث
دل بديوسو اضطر الى ملازمة الفراش خمسة عشر
يوما لاصابته بداء الاقمصة (3) وفقد الخرق

وبينما نحن في هذا الحديث اذا برجل يدخل
علينا محتذيا حذاء السعر ومرتديا كسوة شهد

---

(1) موضع التغلية
(2) اي ان سرواله متقطع
(3) اي لا قميص عنده

اللون وعلى رأسه قبعة شد اطارها من الجانبين الى عل. وحين علم من الاخرين بقدومي اقبل علي وكلمني بعطف كبير. ثم نزع عنه المعطف واذا بثوبه ـ وتأمل رعاك الله ان كان هذا يخطر على بال احد ـ نصفه الامامي من الجوخ الاشهب والنصف الوراني من الكتان الابيض وقد تبلل باطنه من العرق. فلم املك نفسي من الضحك فقال الرجل مخفيا غضبه: احمل السلاح (1) ولن تضحك واني لأراهن على انك لا تعرف لاي سبب جئت بهذه القبعة مشدودة الاطار الى عل. فقلت انه يفعله تظرفا وللفت الانظار اليه قال: «لا! بل لحجب الانظار واعلم اني اعمل ذلك لان القبعة لا شريط يحيط بقعرها وهكذا لا يرى ذات النقص وبعد ان فرغ من حديثه اخرج نيفا وعشرين رسالة ومثلها من البلابين قائلا انه لم يتمكن من ابلاغ تلك وكان مع كل واحدة من هذه الرسائل بلبون اجرة حملها وكان صاحبنا يكتبها بيده ويضع في

---

(1) مثل اسباني يراد به ان «اعمل ما اعمله»

اسفلها امضاء من احب. وكان يكتب رسائل جديدة يختلقها الى اشخاص محترمين ويسلمهم اياها وهو بذلك الثوب ويقبض اجرة ايصالها. وهذا ما كان يفعله كل شهر فهالني ما رأيته من جديد في شؤون الحياة (١).

---

(١) وقد وقع كبيدو نفسه مرة في حبال هذه الحيلة التي نصبها له احد الرهبان اذ وصلته نسخة من كتابه رسائل فارس الكلابة. وهذا نص الرسالة: لقد ضاعت الرسائل التي القيتها عن فارس الكلابة والاساليب الكثيرة والوسائل المختلفة التي تقترحها ليتخلص الرجال من هجمات النساء لكني لم اجد وسيلة واحدة تخلص بها حضرتك من دفع درهمين اجرة ايصال هذه الرسالة فقلت العبرة وعمد علاجا آخر الى فارسك والا فامت كلابته قصيرة. حفظ الله لك روح المزاح والصحة طيلة سنوات عديدة هنيئة وارانى اياه. الامضاء: الدكتور فراي بنيطو برناردو دي موراليس. على

ثم دخل اثنان آخران احدهما يرتدي قباء من الجوخ يغطي حتى وسط سرواله ومعطفا من الجوخ ايضا وقد رفع الطوق لئلا يرى الخيش الذي كان مسرقا اما السروال فكان من اللباد. ولكن لم يكن من اللباد سوى ما يرى اما البقية فمن القماشة الخرق وقد دخل صاحبنا هذا وهو يزعق مع واحد آخر يلبس زيق بدلا من الطوق ويحمل بعض القماقم لانه لا معطف له وينكئ على عكاز وقد لف احدى ساقيه باسمال وجلود لانه لم يكن له سوى نصف سروال يغطي ساقا واحدة. وكان يتظاهر بالجندية وفي الواقع كان جنديا ولكن من اسوأ الجنود وفي امكنة هادئة وكان يتحدث بخدمات عريقة أداها. وبصفته جنديا يدخل أي مكان شاء. إذ قال ذو القباء والسروال يقول: تعيبت ان تعطيني النصف او على الاقل قسما وافرا فوالله ان لم تعطني... فيجيبه الاخر بقوله:

الهامش «سان برناردو» سنتياغو دي غاليسيا في 13 يناير سنة 1613»

؛لا تحلف باسم الله. واعلم اني حين اصل الى الدار يزايلني العرج فاذيقك طعم هذا العكاز، وبين اخذ ورد وما اعتادوه من تكذيب واحدهم الاخر هجم احدهم على الثاني وتماسكا. وعند المشادة الاولى خرج كل منهما باسمال الاخر في يده. فوقفنا بينهما وسألناهما عن سبب الخلاف. فقال الجندي: أمزاح علي؟ انك لن تنال قدر حبة خردل منها. ولتعلم حضرتكم اننا بينما كنا في سان سلبادور، وصل صبي الى هذا الفقير وسأله عما اذا كنت انا هو الملازم خوان دي لورنثانا. فقال نعم لانه رأى في يده شيئا جاء به. فقاده نحوي وقال ملقبا اياي بملازم: فلنر حضرتك ما يبتغي هذا الصبي وحيث فهمت مراده قلت اني انا هو فتلقيت الابلاغ ومعه اثنتي عشرة فوطة واعطيته الجواب لامه التي ارسلتها الى واحد يحمل ذلك الاسم. وها هو الان يطالبني بالنصف واني لاقطع نفسي اربا قبل ان انزل عند طلبه. ولا بد ان يبلغها كلها انفي فحكموا له في القضية وانما

خالفوه في مسألة تمخطه بها و'مروه بان يسلمها الى العجوز لننتفع بها الجماعة فتعمل منها اطراف اكمام بارزة فتلوح كانها قمصان' لان التمخط ممنوع

ثم جن الليل ونمنا متلاصقين كأننا ادوات رصت في غلاف. اما العشاء فلم يخطر على بال احد ومعظمهم لم ينزعوا ثيابهم لانهم ينومهم مرتدين ما يلبسونه نهارا يفون بواجب النوم عراة.

الفصل الثانى

وفيه يتابع الموضوع المبدوء به وغيره من
الحوادث الغريبة

—

اصبح الصباح فتأهبنا جميعا وكنت قد امتزجت بهم كما لو اننا كلنا اخوة · وذلك ان في الشر دائما هذه السهولة والعذوبة الخارجية. وما اغرب ما كان من مشهد ترى فيه احدهم يلبس القميص اثنتى عشرة دفعة لانها تتركب من اثنتي عشرة خرقة. وترى الاخر وقد ضلت رجله في ازقة السروال واذا به يجدها مطلة حيث لا يرغب في ان يراها وترى الثالث يستعين بدليل ليرتدي صدرته· فتنقضي نصف ساعة قبل ان يهتدى اليها.

وما انتهى هذا المشهد ولم يكن بالشيء القليل

قبض كل منهم ابرة وخيطا ليباشروا رتق الخروق فكنت ترى احدهم مادا ذراعه ليرفأ بدون احكام ما تحت ابطه فكأنه انقلب لاماً (1) وترى الآخر جاثيا على ركبتيه محاكيا رقم الخمسة (2) وذلك انه يمد بمساعدة جواربه وترى الثالث وقد ادخل رأسه بين فخذيه ليحكم طي ما يتصل بهما من السروال قد انقلب كبة. واشهد ان بوسكو (3) لم

---

(1) اي ان الواحد منهم حين يمد ذراعه يصبح شبيهاً بحرف اللام الذي يكتب في الاسبانية هكذا L

(2) اي رقم خمسة في كتابة الارقام العربية هكذا: 5 وهو يشبه الرجل جاثيا ومحنيا رأسه.

(3) بوسكو ـ لقب المصور الهولندي خيرونيمو فان أكين (1450 ـ 1516) وقد ولد في بلدة بوالي دوك Bois le Duc واليها ينسب فلذا لقب المصور ببوسكو. وقد بقي كثير من لوحاته في اسبانيا في دير الاسكوريال ومتحف البرادو

ويمتاز فن بوسكو بمزجه الجد بالهزل فيرى

يصور مشهدا اغرب من هذا الذي رأيته، لانهم بينما كانوا يخيطون كانت العجوز تمدهم بالمواد من رقع وخرق بالية من مختلف الالوان كانوا قد اتوا بها نهار السبت. وانتهت ساعة الترقيع ـ اذ كانوا يطلقون عليها هذا الاسم ـ واخذوا ينظرون بعضهم الى بعض ليروا من منهم لم يوفق في عمله، ثم قرروا الذهاب خارجا فقلت لهم اني اريد ان تفصلوا لي ثوبا حيث كنت ارغب في صرف مئة درهم في شراء واحد لانزع عني الجبة.

في لوحاته خليط لم يعهد له مثيل سابق. لكن إخراج هذا الخليط محكم الاتقان وهو ما قالده فنته الكبيرة، وكأن المصور اراد ان يصور باطن الانسان وما فيه من تضارب وخلبط، مما حمل المؤرخ الاب يوسف دي سيغوانسا على القول في مؤلفه تاريخ رهبنة سان خيرونيمو، الجزء الثالث ص 636 طبعة سنة (1605) ان غيره من المصورين سعوا لتصوير خارج الانسان. اما بوسكو فهو الوحيد الذي تجرأ على تصوير باطنه

فقالوا لا، وانما يعطى المال الى المستودع ولنلبسه مما لدينا برسم الاحتياط ولنعين له دائرته في المدينة حيث يكون له ان يفتش ويا كل منها وحده.

فاستحسنت الرأى ودفعت المال ليودع وفي لحظة قصيرة خاطوا لي من الجبة قباء حداد من الجوخ وقصروا المعطف فاصبح صالحا، وما فضل حولوه الى قبعة قديمة جدد صبغها. واستعاضوا عن الشريط الذي يحيط بها بنتف من قطن المحبرة احكموا وضعها. ونزعوا عني الطوق والسروال والبسوني بدلهما سروالا قصيرا لم تكن فيه شقوق (4) الا من الناحية الامامية. اما الجانبان والوراء فكانت من جلود الوعول. ولم تكن الجوارب الحريرية بجوارب حقا لانها كانت تبلغ ما تحت الركبة باربع اصابع. وما بقى حتى الركبة كانت تغطيه موق احكمت فوق الجورب الاحمر

---

4) في ذلك العهد كانت تفتح شقوق عامودية في السراويل لترى تحتها انسجة اخرى من الوان مختلفة يزين بها السروال

الذي جئت به انا. وكان الطوق مفتوحا لتمزقه فوضعوه لي قائلين: «ان في الطوق خللا من الوراء والى الجانبين فان التفت اليك احد وجب عليك ان تلتفت اليه كعباد الشمس. وان اقبل عليك اثنان ملتفتين من الجانبين فتقدم الى الامام دون ان تلتفت وراءك ودع القبعة تقع دائما على القفا بحيث يغطي اطارها العنق ويترك الجبين بارزا. وان سألك احد لماذا تسير على هذا الطراز فقل لانك تقدر ان تسير مكشوف الوجه (٥) في اي مكان كان. واعطوني صندوقا صغيرا فيه خيوط سوداء وبيضاء وابرة وكشتبان ورقع من الحرير والجوخ والكتان والحرير المطلس وغيرها من الرقع وسكينا. ووضعوا الي بطاقة في حقوى وصوفانة وقداحة في هميان وقالوا: «بهذا الصندوق يمكنك ان تتجول اينما اردت دون ان تحتاج الى اصحاب ولا الى انسباء. وفيه ينحصر كل علاجنا فهاكه

---

(٥) ويعني ذلك من الوجه المجازي انه شريف السيرة.

واحتفظ به، ثم عينوا لي حي سان لويس مرتعا ابحث فيه عن معاشي، وهكذا بدأت نهاري خارجا من الدار مع البقية. لكنهم نظرا لجدتي ارسلوا معي كمرشد لابدأ حياة الاحتيال نفس ذلك الذي جلبني وهداني اليها.

خرجنا من الدار بخطى بطيئة والسبحات بين ايدينا وسلكنا طريق الحى الذى عينوه لي: وكنا نسلم على الجميع، على الرجال بنزع قبعاتنا متمنين أو لما نقتدر على فعل ذلك بمعاطفهم وعلى النساء بانحناءات يغبطن بها واكثر منهن يغتبط بهـا الابانبون (6) وكان مرشدى يقول لاحدهم «غـدا ستأتونني بدراهم»، وللاخر: «ارجو حضرتـك ان تمهلنى يوما واحدا لان المصرف سيأتينى بها. وكن واتقا من ذلك، ورأيت واحدا يطالبه بالمعطف وآخر بالتكة وعرفت من ذلك انه صديق اصدقائه الى

---

(6) الابانبون مفرده آبانى وهو لقب يشبـه معناه كلمة أب يطلقه على رؤساء بعض الاديار

حد انه لم يكن عنده شيء ملكه (٦) وكنا في سيرنا
ننساب كالافعى من رصيف الى آخر تجنبا لمنازل
الغرماء. اذ كان واحد منهم يطالبه بكراء الدار
والاخر بكراء السيف والثالث بكراء الملاحف
والقمصان مما حملني على استنتاج ان صاحبي
فارس كراء كالبغلة. وحدث انه ابصر من بعيد
رجلا كان يرهقه ارهاقا شديدا بسبب دين له
لكنه لم يكن عنده مال ليفيه اياه. ولئلا يعرفه
الغريم ارخى وراء اذنيه شعره الذى كان مجموعا
ولصق رقعة على احدى عينيه وشرع يكلمني
بالايطالية وقد امكنه ان يقوم بكل هذا بينما كان
الاخر مقبلا لكنه لم يره لانه كان منهمكا في
الهذر مع احدى العجائز والحق نقال انى رأيت

---

٦) في الاسبانية مثل مضمنه ان ما للانسان
يكون لصديقه ايضا اي انه يضعه تحت تصرفه
وملاحظ المؤلف بهذا المثل دعوة هنا ان الشاطر لم
يكن له [illegible] لديه [illegible]
آخرين [illegible] هو [illegible]

الرجل يدور حول صاحبي كالكلب يريد الهجوم على فريسته ويكرر رسم اشارة الصليب اكثر مما لو كان راقية، ثم واصل طريقه قائلا: «يا لله! ظننت انه هو» ومرددا المثل المشهور: من فقد بقره تخيل دوي الاجراس وكنت اكاد اموت ضحكا من هيئة صاحبي، ثم دخل بهو دار ليجمع شعره وينزع اللزقة عن عينه وقال: هذه عدة نكران الدين فتعلم يا اخي لانك سترى الكثير من هذه الامور في المدينة

وتابعنا السير وحيث كنا في الصباح تناولنا في احدى الزوايا قطعتين من الحلوى الرديئة وجرعة من ماء الحياة من عند احدى الشاطرات التى اعطتنا ذلك مجانا بعد ان رحبت بمدربي فقال: يمكن للمرء بعد تناول هذا ان يسير آمنا وان لم يجد ما ياكله في يومه فاز هذا على الاقل لا ينقصنا فتألمت حين رأيت ان طعام يومنا لم يكن مضمونا واجبته متأسفا على معدتي فقال: «يا قليل الايمان بمهنة الخرق وربهنها. ان الله لا يتخلى

عن الغربان والزرقان (8) حتى ولا عن الكتبة فهل يتخلى عن الهزلى؟ ان معدتك لاصغر من ان يستحيل ملؤها قلت: صدقت ولكني اخشى ان يصغر عنها ما لدى وان تبقى خاوية» وبينما نحن في هذا الحديث دقت الساعة الثانية عشرة وبما اني كنت حديث العهد بهذه الخطة لم ترق لامعائي تلك الحلوى الرديئة التى اكلتها وكنت اشعر بالجوع كما لو انه لم يدخل فمي شيء السنة فالتفت الى صاحبى وقد جددت تلك الدقات ذكرى الجوع في حافظتي وقلت: «يا اخي! ان التألف على الجوع لتدرج شاق! لان المرء خلق اكولا وها انذا اقاد في طريق الصوم وان كنت انت لا تشعر بالجوع فما ذاك عليك بكثير لانك على الجوع ربيت منذ الصغر ـ كما ربي ذلك الملك على السم (9) ومنه اصبحت تقتات ولست اراك تسعى بجد لمضغ

---

(8) جمع زريق

(9) اشارة الى مثريداتس ملك بونطوس الذي ربي على جرع السم لئلا يفعل به فيما بعد

ولذا قررت ان افعل ما بوسعي. فقال: «تبا لك انما هي الان الساعة الثانية عشرة لا غير. وها انت قد ساورتك العجلة! اجل! ان شهيتك على الطعام لدقيقة ومعجلة ولا بد لها ان تتحمل بصبر تأخر بعض الرواتب! هذا ولا الاكل طول النهار اذ ما تفعل الحيوانات غير ذلك؟ ولم يرو قط ان واحدا من فرساننا اصيب بالسهال. ونفضل ان لا نجبر على ان نذل في اقتياتنا (10) وقد قلت لك ان الله لا يترك احدا. وان كانت تساورك العجلة فاني اذهب فاتناول المرق الذي في دير سان خرونمو وهناك املأ معدتي فان تتبعني فتعال والا فليسر كل منا في سبيله». قلت: «مع السلامة. اذ ليس ثوبي قصيرا لاكمله بما يفضل من اثواب الغير (11) وليتبع كل منا طريقه»

---

(10) اي المؤلف يجانس في كلمة provecr ومعناها هكذا اقتات ذاتا لحمها الضمير مع صار من حيث معناها نمر.

(11) اي لست بحاجة الى الآخرين

وكان صاحبي بسير بخطوات يسمع لها وقع شديد متطلعا الى رجليه ثم اخرج فتاتا من الخبز كان يحمله دائما لهذه الغاية في صندوق صغير فنذره على ذقنه وثيابه بحيث كان يظهر بمظهر الاكل اما انا فجعلت اسعل واستاك اخفاء لهزالي وانظف شاربي وقد تلثمت والقيت المعطف على كتفي اليسرى وجعلت العب بسبحة ذات عشر خرزات فقط، فكل من رآني ظن اني اكلت. ولو انهم ظنوا بأني أكلت(12) وأن آكلي هو القمل لما اخطأوا.

وكنت اسير واثقا بدنانيري وان كان ضميري يوبخني على انه مما يخالف انظمة الجماعة ان يعيش من الدنانير من كانت امعاؤه خلفية في

---

(12) جاء المؤلف بجناس في كلمة Comido وهي اسم المفعول من فعل Comer لكنها تستعمل ايضا بمعنى اسم الفاعل، وهنا استعملها المؤلف في المعنيين اولا كاسم فاعل ثم كاسم مفعول في جملة بصيغة المجهول

الحياة. واخيرا عزمت على الفطور واثناء هذا بلغت زاوية زقاق سان لويس حيث يقطن بائع معجنات فرايت واحدة محمصة من ذوات الثمانيــة دراهم تطل من الواجهة مرسلة نفسها الحار الذي تغلغل في انفي فعلقت بها في الحين نظرا للحالة التي كنت فيها ـ كالكلب الضاري: فاحدقت فيها نظــري احداقا يبست منه كالمسحور وان نظرت الى ما ذهبته من الحيل لاختلاسها لرأيت العجب العجاب لكني في آخر الامر عزمت على دفع ثمنها. وبينا انا في هذا دقت الساعة الواحدة. فتألمت الى حد انى قررت ان الج حالا احد المطاعم' وانــا الذي كنت انرقب فرصة ارتمي عليها فقد شاء الله ان التقي اذاك باحد اصدقائي المأذون ملتشيا الذي اقبل مهرولا في ذلك الزقاق وقد لطخت جبته بالاوحال فشابه عجلة ذات دولابين وما ان ابصرني ـ ولم يكن ذلك بالهين لو تاملت شكلي حينئذ ـ حتى هجم علي وتعانقنا عناقا وديــا. وسالني عن حالي. ثم قلت له: ـ ياصاح كم لدي من الامور لاقصها عليك

وانما يؤلمني ان لابد لي من السفر الليلة» قال: «وهذا ما يؤلمني ايضا ولولا ان الوقت قد فات وعلي ان اذهب على عجلة لاكل لتوقفت معك مليا. لان شقيقة لي متاهلة وزوجها ينتظراني». فقلت: «او سيدني حنة هنا؟ فوالله لازورنها ولو اضطررت الى ترك كل شيء. فسربنا لاني اريد ان اقوم بالواجب نحوها.

وقد فتحت عيني حين سمعت انه لم ياكل وذهبت معه وشرعت اخبره باني اعرف مقر احدى النساء ـ وكان قد عشقها كثيرا حين كان في القلعة ـ واني اقدر ان ادخله الى دارها. فعلقت نفسه بهذه الدعوة. ورايت ان الحيلة في قص ما وافق مشتهاه. وبلغنا داره ونحن في هذا الحديث فدخلناها وعرضت نفسي مرارا وتكرارا على اخته وزوجها اللذين لم يؤولا مبالغتي في الاحتشام الا لمجيئي في تلك الساعة فاخذا يعتذران قائلين لو انهما عرفا بان ضيفا كريما مثلي سيحل عليهما لا عدا شيئا لانتقائه. فاغتنمت الفرصة ودعوت نفسي

قائلا اني اعتبر نفسي من جملتهم واني صديق قديم وان المجاملة بيننا من الاهانة. فجلسوا وجلست ولاهون الامر على صاحبي ـ الذي لم يدعني في الواقع ولم تخطر له دعوتي على بال ـ جعلت اغريه بين فترة واخرى بالغناة قائلا له انها سالتني عنه وانه يحتل قلبها وغير ذلك من الاكاذيب المشابهة لهذا. فكان لدى سماعه كل هذا يزداد صبرا وتحملا لرؤيته اياي ازدرد الطعام لاني فتكت باللون الاول منه ولا فتك الرصاص بسربال من الجلد (13). ثم جاء دور قدر اللحم والشحم والخضر فكدت اقضي على كل ما فيها بلقمتين دون سوء قصد وانما كنت اسرع في الابتلاع كانني والطعام بين اسناني لم اكن واثقا من صيرورته الي والله عليم بان تربة مقبرة «لانتيغوا في بلد الوليد(14)

---

(13) جاء المؤلف هنا بجناس في كلمة «Ante» ومعناها اللون الاول من الطعام وهو الذي قصده اولا والجاموس وهو الذى قصد به ثانيا.

(14) كانت تروج بين العامة اسطورة مفادها

ليست اسرع في تحويل الجثث هباء منثورا ـ وهى تفتتها في 24 ساعة ـ مما كنته في القضاء على طعام يومهم كله اذ فقت بذلك سرعة بريدا مستعجلا ولابد انهم لاحظوا جرعاتي المفرطة واستنزافي القصعة ومطاردتي العظام واتلافي اللحم وان صدقت القول اخبرتك ايضا اني بين جد وهزل رصصت جيبي بالفتات. ثم رفع السماط وملت انا وصاحبي الى ناحية نتحدث في شان ذهابه الى دار من ذكرت واكثرت في تهوين الامر عليه وبينما كنا نتحدث امام احدى النوافذ تظاهرت بان شخصا يناديني من الشارع فقلت مجيبا: اياي تنادي ايها السيد؟ رويدا فاني هابط، واستاذنت صاحبي قائلا له اني ساعود فيما بعد وبقي ينتظرني حتى اليوم اذ اني احتفبت عملا بالمثل القائل. «خبز ماكول وصحبة مفصومة» والتقيت به مرارا

ان تربة مقبرة سيدة «لا انتيغوا la Antigua» في بلد الوليد جلبت من انحاء بعيدة وان لها ميزة خاصة وهي انها تفتت الجثث في 24 ساعة.

عديدة فاعتذرت له عن تخلفي قاصا عليه الف كذبة لا مجال لذكرها الان.

وسرت على وجهي في الشوارع كيفما قدر الله فانتهى بي السير الى باب وادي الحجارة (15) فجلست على مقعد من المقاعد التي يضعها التجار على ابوابهم وشاء الله ان تصل اذ ذاك الى الحانوت امراتان - من اللواتي يقترضن على وجوههن (16)

وقد تحجبتا فلم يبن منهما سوى عين واحدة يصحبهما خادم وعجوز فسألنا صاحب الحانوت عما اذا كان عنده مخمل حريري مطرز من النوع الفاخر. واخذت انا حبا بفتح حديث معهما اناعب

---

(15) باب وادي الحجارة - كان هذا واقعا في الشارع الاكبر بالقرب من بلاثرياس. وهو اليوم زقاق مدينة رودريغو، وكان في ذلك العهد غاصا بالحوانيت ومجتمعا للعاطلين.

(16) يقال عن شخص انه يقترض على وجهه اي دون ان يقدم ضمانة لدائنه لانه معروف .

بكلمة «ترسيو (17) و «بلادو و «بيلو» و «أبيلو و «بيلي فلم ادع شاردة ولا واردة تمت اليها بصلة حتى اتيت بها فشعرت بان طلاوتي حملتهما على الاعتقاد باني صاحب الامر والنهي في الحانوت. فعرضت عليهما ما يتمنيانه مخاطرا في عرضي شأن من لايخاف على شيء يخسره، فاعتذرتا مدعيتين انهما لا يقبلان شيئا ممن لا يعرفانه فاغتنمت الفرصة قائلا انه لمن الجرأة ان اعرض عليهما شيئا. ولكني رجوتهما ان يقبلا مني بعض الاقمشة وصلتني من مدينة ميلان وسيحملها اليهما ليلا احد الخدام ـ واشرت الى خادم كان واقفا ازاء الحانوت ينتظر مولاه الذي كان في حانوت آخر ولذلك كان مكشوف الرأس فقلت انه خادمي ـ وجعلت ارفع قبعتي لكل المارة من وجهاء

---

(17) كلمة ترسيو بيلو معناها «المخمل الحريري» وهي تتالف من كلمتين: «ترسيو ومعناها الثالث و بيلو ومعناها شعر

ومعممين (18) محييا اياهم كما لو كانت روابط الصداقة محكمة بيننا دون ان اعرف واحدا منهم لاحملهما على الاعتقاد باني ذو جاه كبير ومقام رفيع، فمن هذا التصرف ومن رؤيتهما اياي اخرج دينارا ذهبيا من الدنانير التى كنت احملها هاما بأن اتصدق به على مسكين استجداني استنتجا اني من عظماء الاشراف، وازمعنا على مغادرة الحانوت لفوات الوقت فاستاذنتاني وشعرت من جهتي بان الخادم ذاهب ايضا، فطلبت منهما مستعطفا كمن يطلب منحة عظيمة سبحة نظمت خرزاتها فى سلك من ذهب كانت تحملها اجملهما ضمانة على انه لابد لي ان اراهما، ونقنا بي بقصد الاحتيال علي بكمية اكبر منها، وسألتاني

---

(18) ترجمت بمعممين لفظة Oxidor وهو اسم كان يطلق اذ ذاك على موظف قضائي عال يسمع الى الدعاوى المرفوعة الى المحاكم الاستئنافية ويفصل فيها، وعلى راسه قبعة خاصة تكاد تشبه العمامة السوداء.

عن داري قائلتين ان الخادم لا يقدر ان يدخل دارهما اية ساعة كانت لانهما من طبقة الكبار. فسرت بهما في «الشارع الاكبر» وحين دخلنا زقاق «لاس كاريطاس» انتقيت احسن واكبر دار ظهرت لي وكان على بابها عربة بلا خيل، وقلت لهما انها داري واضفت قائلا ان الدار وصاحبها والعربة تحت تصرفهما، وتسميت بضون البرو دي قرطبة ودخلت في الباب على مرأى منها، واذكر اني حين خرجنا من الحانوت اومأت بهيئة الامر الى احد الخدم ليأتي الي، وتظاهرت باني اقول له ان يبقوا كلهم وينتظروني هناك وفي واقع الامر سألته اذا كان هو خادما عند عمي الكومندادور (1!) وهكذا تمكنت من ان اتصرف بخدم الغير كما لو كنت من الاشراف حقا

اقبل الليل فالتجانا كلنا الى الدار، واذ دخلت وجدت جندي الحرف وبيده شمعة كبيرة وغليظة دفعت اليه ليرافق جنازة ميت فجاءني، وكان

(1!) رتبة في الجيش او في جمعية الفرسان

صاحبنا هذا يسمى «ماغاثو» واصله من اوليـاس (20) وقد مثل دور «كابيطان» في احدى المسرحيات الهزلية وحارب المسلمين في احدى الرقصات فاذا تحدث الى الذين اشتركوا في حرب فلانديس قال انه خاض غمار حرب الصين واذا تحدث الى الذين اشتركوا في حرب الصين قال انه شهـد حرب فلانديس وكان يحاول تاسيس ميدان وهو لا يحسن الا ان يتغلى فيه ويذكر القصور ولم يرها الا مرسومة على النقود. ويغدق المديح لذكرى ضون خوان (21) وكم من مرة سمعته يقول عن لويس كيخادا (22) انه كان مفخرة الاصحاب. ويكثر من ذكر الاتراك والمراكب البحرية وامراء البحر وكل

---

(20) اولياس Olias بلدة في مقاطعة مـالقة، واولياس دل راي: بلدة في مقاطعة طليطلة.

(21) ضون خوان دي اوستريا شقيق الملك فيليب الثاني وقـائد القوات الاوربية في معركة ليبانطو

(22) لويس كيخادا Luis Quejada بطل اسباني.

ما قرأه حول هذا الموضوع في مقطوعات شعرية كانت رائجة حينئذ. وبما ان صاحبنا لم يكن ليعرف شيئا من شؤون البحر ـ اذ لم يكن فيه من بحري سوى اكل اللفت (23) ـ قال متحدثا عن المعركة التى ربحها ضون خوان في ليبانطو: ان ليبانطو هذا مسلم شجاع قوى الشكيمة وحيث لم يكن المسكين يعرف انه اسم للبحر قضينا معه في استماع هذا الحديث ساعات لذيذة وممتعة.

وبعد ذلك دخل رفيقي مهشم الانف مضمد الرأس ملطخا بالدم وملوثا بالاقذار، فسألناه عن سبب حالته هذه فقال انه ذهب الى دير سان خيرونيمو لتناول المرق الذى يوزع هنالك وطلب جراية مزدوجة مدعيا انها لاشخاص ذوى مروءة

---

(23) اتى المؤلف بجناس في كلمتى naval ومعناها بحرى و nabal ومعنا لفتي اي نسبة الى اللفت وبما ان حرفى B و V يلفظان باء في الاسبانية كانت الكلمتان متشابهتين تماما في اللفظ. وكثيرا ما يرتكب خطأ في الاملاء بسبب هذا التشابه

عضت عليهم انيـاب الفاقة، فنزعوهـا من بقيـة المستجدين ليعطوه اياها. لكن هؤلاء وقد اشتـد حنقهم تبعوه واحصروه في احدى الزوايا وراء الباب يجرع المرق مطمئنا ودار الجدل حول ما اذا كان يجوز للمرء ان يخدع ليزدرد وان ينـزع مـن الاخرين لينال هو فارتفعت اصوات عقبتها عصى وبعد العصى الاخاديد والورم في رأسه المسكيـن وهجموا عليه بالاباريق اما الورم في الانف فقـد احدثه له احدهم بقصعة من الخشب قربهـا اليـه ليشمها بسرعة اكبر من اللازم ثم جردوه من سيفه وعند قيام الجلبة خرج البواب اليهم لـكنه عجـز عن احلال السلم بينهم وقد وجد اخونا نفسه في مأزق حرج الى حد انه صار يقول لهم «انى أرجع لكم ما أكلته» ومع هذا لم يكونوا ليقنعوا لانهم أصبحوا لا ينظرون الا الى انـه كان يطلب مـن اجل أشخاص آخرين آنفا مـن ان يحسب نفسه بين عداد مستجدي مرق الدير وكان احد الطلاب

الطفيليين من ذوي الغزر (24) يصيح قائلا: «ألا فانظروا هذا المركب من خرق كدمية الاطفال. وقد أصبح اشد حزنا من حانوت الحلوى في زمن الصوم واكثر نقوبا من المزمار واكثر نقطا من كتاب موسيقى. مع ان بين من يلتمسون مرق القديس المعظم (25) من يقدر ان يكون اسقفا او اية سلطة دينية اخرى ولا يانف من استجداء طعامه. الا اني حائز على الاجازة في الفنون من سغوينثا (26) وتداخل البواب في الامر حين سمع شيخا من جملتهم يقول انه وان اقبل على المرق الذي يوزع على الفقراء فهو من سلالة القبطان الاكبر وله انسباء من الكبار

وهنا اترك الكلام عن هذا الحادث لان صاحبي اصبح خارجا وخلصت عظامه من الضغط.

---

(24) اي من الطلاب الفقراء الذين كانوا يحملون غزرا لجمع الفتات وبقايا الطعام

(25) اي الذي يوزعه الدير الحامل اسم القديس.

(26) سغوينثا Sigüenza بلدة من مقاطعة وادي الحجارة مشهورة بآثارها القديمة

الفصل الثالث

وفيه يتابع الحديث حول الموضوع نفسه حتى بنتهي الامر بايداعهم السجن جميعا

دخل ميرلو دياس، وقد احبك بسمط من الخزف والخرز سرقها دون ان يخشى الله من دير راهبات عرج عليه مستسقيا لكن ضون لورنثو دل بذروسو فاقه شطارة اذ اقبل وعليه معطف فاخر بدل به حول المائدة الخضراء معطفه الذي لم تبق عليه شعرة واحدة. وكان من عادة صاحبنا هـذا ان ينزع معطفه كمن يريد اللعب ويضعه مع المعاطف الاخرى. ثم يذهب بعد ذلك - اذ لم يكن يشترك قط في اللعب - لياخذ معطفه فيستولى على احسن واجد معطف يبدو له ويخرج وكان يستعمل هذه الحيلة في لعبتي الحلقات والاكر.

لكن هذا كله لم يكن شيئا يذكر بالنسبة لمشهد

ضون كوسمي داخلا وقد احاط به فتيان مصابون بمختلف الامراض العاهات. فمنهم بـدا الخنـازير وغيرهم بالسرطان والاخرون بالبرص ومنهم الجرحى والتدف. وسببه ان صاحبنا ادعى معطاة الرقيـة مستعمـلا بعض التعاويـذ والصلوات التي تعلمها من احدى العجائز وكان يفوق في احتياله الاخرين كـلهم لانه ان رأى شخصا اقبل مستسقيا ولاثما ناتئا تحت معطفه او ليسمع رنين النقود في جيبه او صياح ديوك مسمنة فلا مجال لشفائه. وكـان شره ممتدا ويجبر الناس على اعتقاد كل ما يجب لانه لم يلد من يضاهيه في فن الكذب ولم تخرج قط من فمه ـ ولو سهوا ـ كلمة صدق. وكـان يتحدث عن الطفل يسوع وهو حامل الموت مرددا كلمة "الحمد لله وبكرز فنيكس "روح تقدس معكم جميعا ويحمل جهار الكرة كاملا وهو مؤلف من سبحة ذات حبات غليظة وطرف موط مضرج بدم الانف يرى عنـد مـا يتحرك تحت المعطف ويحمل على الاعتقـاد ـ بتحريكه كتفيـه وظهره

كن يحنك ـ بان العمل مسوح وان الجوع الفناك انما هو صوم اختياري. ويقص قصص تجارب وحين ذكر اسم الشيطان بقول «اعاذنا الله ووقانا» وبقبل الارض حين دخل الكنيسة ويدعو نفسه بالحقير ولا يرفع عينيه الى النساء وانما يرفع انوابهن فبهذه الامور كان مسيطرا على عقول العامة بحيث يستسلمون اليه وكان ذلك كاستسلامهم الى ابلس. اضف الى هذا كله انه كان مغامرا وفضلا عن ذلك ضاغيا. وكان يحلف باسم الله تارة بالباطل وطورا بلا داع. اما من ناحية النساء فكان له اولاده وحبليان من المومنات بتعاوبذه والخلاصة ان وصايا الله التي لم يكن يخالفها (1) كان بغريها

واقبل بولانكو محدثا جلبة كبيرة وطلب

---

1) اتى المؤلف بجناس في فعل quebrantar وله معنيان كسر وخالف ـ فاستعمله بالمعنى الاول ثم استعار المعنى الثاني لابراد فعل «فرى» مبالغة في الكسر

كيسا انتهب اللون وصليبا كبيرا ولحية طويلة مستعارة وجريسا وكان يسير ليلا على هذه الهيئة مناديا تذكروا الموت واحسنوا الى نفوس الموتى الخ ... فيجمع بهذه الوسيلة صدقات عديدة ويدخل البيوت التي يراها مفتوحة فان لم يجد شاهدا او عائقا سرق كل ما وقعت عليه يده وان عثر عليه قرع الجرس قائلا ـ بصوت يصنعه كصوت تائب شديد الندم ـ تذكروا يا اخوتي الخ ...

فكل هذه الحيل الاختلاسية وغيرها من الاساليب العجيبة تعلمتها الى حانبهم خلال شهر واحد. ولنعد الان الى قصتي فقد اريتهم السبحة وقصصت عليهم الخبر فاعجبوا بالحيلة واخذت العجوز السبحة لتبيعها وشرعت تدخن النارجيلة عارضة انها قبلة ابيها لعادة قديمة رأيت بعضها لا كل مسها اذ كان لديها لكل حجة كذبة وخدعة وكانت العجوز كلما خطت خطوة تبكي وتضم يديها واحدة الى الاخرى وتنهد من اعماق صدرها تنهدا الما وتسمى الجمع ابناءها وتلمس

فوق قميص فاخر وصدرة وفستان وشملة كيسا ممزقا من الصوف الخشن استعارته من صديق لها عابد كان يقيم في عقبة القلعة، وكانت العجوز هي التي تحكم العصابة فتشير وتمتثر ولكن شاء ابليس الرجيم - الذى لا يعرف البطالة في ما يتعلق بعبيده - انها بينما كانت ذاهبة الى احد المنازل لتبيع بعض الثياب واشياء اخرى عرف واحد من الناس حاجة له، فذهب وجاء بمامور العدالة فقبضوا على العجوز التي كانت تدعى «الام لبروسكا» ثم اعترفت بالقضية كلها من الفها الى يائها واخبرت كيف نعيش كلنا واننا فرسان نهب وسلب

فتركها مامور العدالة في السجن وجاء الى الدار فوجدنا فيها جميعا، وكان يصحبه ستة جلاوزة - وهم الجلادون المشاة - وقاد جماعة الشطار كلهم الى السجن حيث اشرفت الفروسية على هاوية خطر كبير.

الفصل الرابع

وفيه وصف السجن وما جرى فيه حتى
خروج العجوز مجلودة والاصحاب الى
العار وخروجي انا بضمانة

—

بعد أن قيدوا كلا منا بزوجين من القيود
اودعونا سجنا مظلما وحين رأيت نفسي سائرا
الى ذلك المقر مددت يدي الى المال الذي كنت
احمله فاخرجت دينارا ذهبيا وقلت للسجان:
يا مولاي فتسمعني حضرتك سرا ولكي يصغى
الي اريته الدينار فما زاد حتى دفعني الى جانب
فقلت له ارجو حضرتك ان تشفق على رجل
خير وفتشت عن يديه وبما ان راحتيه كانتا
معتادتين على حمل هذا النوع من الامور فقد

شدهما حالا علــى الاربعة وعشريــن بليونــا (1) قائلا ،ساحقق في شان مرضك وان لم يكــن ذا خطورة انزلتك الى حيث يــودع المقيدون...» ففهمت الحيلة واجبته متذللا فتركني خارجا بينما انزل اصحابي الى اسفل

واني اضرب صفحا عما اثار مشهدنـا من الضحـك في السجن وفي الشوارع. اذ جيء بنـا مقيدين يسوقوننا دفعا وبعضنا بلا معاطف والبعض الاخر بمعـاطف تجر على الارض فظهـرت اجسام مرقعة بلقع واجسام اخرى شابهت مزيـج الحمر الاسود بالابيض فكنت ترى الواحد منا وقد امسك الجلواز بلحمه لتكون يده على شيء تثق انه لا يفلت منها ـ حيث كان كل ما عليه عاية في القدم ـ ومع هذا كله لم يكن ليجد ما يمسكه لان الجوع كان قد فتك به فتكا ذريعا. وترى الاخرين يتركون بين يدي الجلاوزة خرق الاقبية والسراويل. وحين

---

(1) اشارة الى الاسكودو الذهبي الموازى في عرفهم 24 بليونا

رفع الحبل الذي كانوا مربوطين به اذا باسمال كثيرة قد علقت به. واخيرا حين اقبل الليل ذهبت لانام في غرفة الاشراف. واعطوني سريرا وياله من مشهد ان ترى البعض ينامون مغلفين دون ان ينزعوا شيئا من ملابسهم النهارية بينما البعض الاخر ينزعون دفعة واحدة كل ما عليهم من الثياب وآخرون غيرهم يلعبون. وفي آخر الامر اغمضوا اجفانهم واطفئ الضوء

ثم نسينا جميعنا القيود وحيث كان المبرز جانب رأسي ما كاد ينتصف الليل حتى اصبح الامر بين مجيء مساجين واطلاق مساجين (2) فخلت في بادئ الامر حين سمعت الدوى انه رعد وشرعت ارسم اشارة الصليب واستعيذ بالقديسة بربارة. ولكني حين بلغت انفي الرائحة الكريهة ادركت انها لم تكن رعودا من اصل رفيع، وكانت

---

2) يكني بالاسبانية بعبارة اطلاق مساجين، عن الضرطة. اي ان المساجين اخذوا يرتدون الى المبرز فيسمع ضرطهم

رائحتها من الكراهة بحيث اضطررت الى دفن انفى في الفراش وكان البعض منهم قد جاءوا بالاسهال والاخرون بمخادع (3) واخيرا رأيت نفسى مضطرا ان اقول لهم ان ينقلوا المخدع الى مكان آخر. ولكن ما لبث ان احتدم الجدال بيننا حول ما اذا كان يتجاوز الحد في الاتساع ام لا. فلجأت الى استعمال رتبة مقدم (4) اذ خير لك ان تشغلها في صفعة منه في قشتالة (5) وما كان مني الا ان ابلغت التكة وجه احدهم فحاول ان ينهض عاجلا فقلب المبولة واراق ما فيها، وعلى الجلبة افاق الكل. وهناك جعلنا نتقارع بالحبك تحت جنح العتمة لكن الرائحة كانت قوية الى درجة انها

---

3) اتى المؤلف بجناس في كلمة cámara ومعناها غرفة ـ وايضا اسهال ـ واتبعها بكلمة aposento التى معناها غرفة او مخدع

4) اي خير لك ان تكون البادئ في الصفع.

5) مقدم في قشتالة adelantado en Castella كانت رتبة رفيعة في ذلك العهد

اجبرت الجميع على النهوض وبهذا ارتفعت الاصوات بالصياح فظن قائد السجن ان بعض مسجونيه قد فروا فصعد راكضامصحوبا باعوانه وقد شكوا السلاح كلهم فوصل وفتح الباب وادخل الضوء واستخبر عن الامر، فحكم الجميع علي وكنت اعتذر قائلا انهم لم يتركوني اغمض عيني طول الليل من شدة فتحهم اعينهم (6) وظن السجان اني سانفحه بدينار لئلا يزجني في السرداب فتمسك بالمسألة وامر بزجي فيه، فقررت ان ارضى بذلك قبل ان تمتد يدي من جديد الى الصرة. فاقتدت الى السرداب حيث استقبلني الاصحاب بالزغردة والفرح.

بت تلك الليلة دون غطاء واف، ثم اصبح الصباح فغادرنا السرداب ورأينا وجوه بعضنا البعض واول ما ابلغنا اياه هو العطاء من اجل النظافة والا تعرضنا لحيلة مرة المذاق (7) فاعطيت

---

6) كلمة عين تطلق ايضا على الاست في الاسبانية وهذا ما قصد به هنا

7) كانت العادة ان يدفع المسجون الجديد

انا ستة دراهم. اما رفاقي فلم يكن لديهم ما يعطونه فاجلوا الى الليل (8) وكان في السجن فتى اعور طويل القامة، اسيل، كئيب الوجه ذا ظهر مرتفع طالما حمل اسواطا (9) وكان ما يحمله من حديد يزيد على حديد بسكايا (10) وهو عبارة عن زوجين من القيود الغليظة متصلين بسلسلة ضخمة وكانوا يسمونه «الخيان» ويدعي انه مسجون لشؤون

قدرا من المال يسمى «حق الدخول» يتنعم به المسجونون الاقدمون، فمن امتنع عن دفعه دبروا عليه حيلة كأن يضربونه ليلا في العتمة ويصيح الجميع متاوهين في نفس الوقت كأنهم يضربون ايضا.

(8) اي لندبر عليهم الحيلة في الليل

(9) اتى المؤلف بجناس في كلمة cargado ومعناها «محمل» وهي المقصودة في قوله «حمل اسواط» اي جلد، وباضافتها الى كلمة espaldas اي ظهر يتالف منها تعبير معناه «مرتفع الظهر»

(10) مقاطعة من اسبانيا الشمالية

هوائية فظننت انه بسبب بعض الاكيار او المزامير
او المراوح. والذين يسألونه عما اذا كان شيئا
من هذا يجيب ان لا بل بسبب خطايا الوراء
ففكرت انه يعني بها امور سابقة قديمة. ولكني
في نهاية الامر عرفت انه مسجون لكونه لواطيا
وحين كان قائد السجن يوبخه لارتكابه شيطنة
ماكان يسميه «ساقي الجلاد ومستودع الخطايا العام.
واحيانا اخرى كان يتهدده قائلا: «انك تتعرض ايها
المسكين لعقاب النار (1) فوالله اني لقاتلك في
طريقي وكان قد اعترف بالامر هذا وقد حملنا
فسقه على احاطة اكفالنا جميعا بالسواجير الشائكة
ككلاب الحراسة. ولم يكن احدنا ليجرأ على الضرط
لئلا يذكره بموقع اليه. وكانت الصداقة مستحكمة
بين رجلنا هذا وسجين آخر يسمى روبليدو
ويعرف ايضا باسم «الترپادو» وكان هذا يدعي
انه مسجون لسخائه وحين الحوا عليه في السؤال
ظهر انه لسخاء يديه في اصطياد كل ما تقعان

---

(1) لان اللواطيين كانوا يحرقون في ذلك العهد

عليه . وكان قد سيط اكثر من خيل العجلات لان كل الجلادين جربوا ايديهم فيه. وعلى وجهه من آثار (12) الطعن ما لو كشف لما غلبه اكثر اللاعبين نقطا. وكان وحيد الادن افطس المنخار مشقوقه بطعنة. والى هذين الرجلين يتقرب اربعة آخرون - يحسنون الاختلاس كمحترفي السرقة - مقيدون ومحكوم عليهم بشقيق رومولو (13) واما هم فكانوا يقولون انهم عما قريب سيتمكنون من القول بانهم خدموا الملك في البحر والبر. ولا

---

12) اتى المؤلف بجناس في كلمة punto فاستعملها اولا بمعنى «اثر الطعنة او الجرح» ثم بمعنى «نقطة» عند الاشارة الى اللعب بالورق حيث يربح من يجمع لديه اكبر كمية من النقط

13) شقيق رومولو هو «ريمو» وهما حسب الاسطورة مؤسسا مدينة روما. وكلمة Remo معناها في الاسبانية مجداف اي انه حكم عليهم بجدف احدى السفن. وكان هذا النوع من العقوبات شائعا في ذلك العهد

سبيل لوصف الفرح الكبير الذي كانوا ينتظرون فيه حلول ساعة ارسالهم الى تنفيذ العقوبة.

فهؤلاء كلهم - وقد غمهم ان يروا رفاقي لايساهمون بشيء - قرروا تدبير حيلة قاسية عليهم ليلا بواسطه حبل معد لهذه الغاية. فحين اقبل الليل دعينا الى آخر غرفة في الدار ثم اطفأوا الضوء. فاختبأت انا تحت الدكة وبدأ اثنان منهما يصفران والاخر يقرع بالحبل. ولما رأى فرساننا المساكين صفقتهم خاسرة. شدوا اجسامهم - تلك الاجسام الجائعة التى فعلت بها الحكة والقمل فعلتها - بحيث اتسع لهم جميعا خصاص الدكة. فكانوا كالصئبان في الشعر اوكالبق في الفراش وكان يسمع دوي الضربات على الخشبة فيسكت هؤلاء. ولما ابصر اولئك المكرة انهم لا يشتكون انقطعوا عن ضرب السياط وشرعوا يرمونهم بالاجر والحجارة وقطع الردم مما كان مجموعا لديهم. فاصابت واحدة منها ضون طوريبيو على قفاه واحدثت له فيها انتفاخا بعلو اصبعين. واخذ يصيح

قائلا انهم قتلوه لكن المكرة شرعوا يغنون جميعا ويحدثون جلبة بالقيود لئلا يسمع عواؤه فحاول ان يختبئ ولذا امسك بالاخرين ليزج بنفسه تحتهم فوقعت بينهم مشادة كانت تسمع من جرائها قرقعة عظامهم كاللوحات التي يقرعها المتسولون وهنا فاضت روح اقبيتهم ولم تبق عليهم خرقة قائمة وقلت الحجارة والردم وما مر سوى وقت قصير حتى كان في رأس ضون طوربيو من الضربات اكثر مما في قباء مفتوح من الشرائط الحريرية المذهبة (14). ولما لم يجد سبيلا للنجاةمن ذلك البرد المنهال عليه ورأى نفسه على وشك الموت شهيدا ـ دون ان يمت الى القداسة ولا الى الصلاح بصلة ـ صاح قائلا ان اتركوني اخرج وبعد ذلك ادفع ما علي واسلمكم ثيابي رهينة فقبلوا منه بهذا الاقتراح وبالرغم عن الاخرين

---

(14) اتى المؤلف بجناس في كلمة golpe ومعناها ضربة، وايضا زينة في الثوب مؤلفة من شريطة حريرية مذهبة

الذين كانوا يدافعون عن انفسهم معه نهض كما امكنه الامر وقد شج رأسه فمال الى جانبي اما البقية فمع اسراعهم بالاتفاق على ان يحذو حذوه في الوعد كان قد سقط على رؤوسهم من الاجر اكثر مما عليها من الشعر. فعرضوا البستهم مقابل «رسم الدخول» بعد ان فكروا بانه خير لهم ان يلازموا الفراش عراة منه جرحى. فتركوهم وشأنهم تلك الليلة. وعند الصباح طلبوا منهم ان يتعروا. فتعروا واذا بكل البستهم لا تصلح ان يؤخذ منها فتيلة وبقى اصحابنا في الفراش اعني ملتفين بدثار خلق كان الجميع يتفلون فوقه. فما عتموا ان شعروا بالغطاء يتحرك فوق اجسامهم. وذلك انه كان في الدثار من القمل ما هو جائع ولا جوع الكلاب وما يزدرد كالمفطر بعد صوم ثمانية ايام ومنها الضخمة ومنها ما يمكن رميها على اذن ثور. فظن اصحابنا ذلك الصباح انهم سيكونون فطور القمل فنزعوا عنهم الدثار لاعنين حظهم واخذوا يهشمون ابدانهم باظافرهم حكا. اما انا

فخرجت من الدهليز قائلا لهم ان يعذروني اذا كنت لا اطيل مجالستهم لانه يهمني ان لا اطيلها وعاودت يدي السجان بثلاثة نقود من ذوي الثمانية دراهم. وحين عرفت من هو كاتب الدعوى بعثت في طلبه فتى ممن يخدمون مقابل حلوان فجاء وادخلته احدى الغرف واخذت اقول له ـ بعد ان تحدثنا في الدعوى ـ ان لدى مالا ما ورجوته ان يحفظه لي وديعة وان يساعد ما امكنه الامر شريفا منحوس الطالع اقتيد مخدوعا لارتكاب هذه الجريمة فقال وقد انطلت عليه الحيلة «صدقني ان نقطة الدائرة هي بين ايدينا. فاذا اراد احدنا ان لا يكون رجل صلاح امكنه ان يسبب شرا كبيرا وان عدد الذين دفعت بهم الى القوارب (15) مجانا لشهوة في النفس فقط لاكثر مما في الدعوى من الحروف فثق بي وصدقني باني ساخرجك صحيحا سالما

---

15) اي الذين حكم عليهم بجدف القوارب ـ وكان هذا من جملة الاشغال الشاقة التي يحكم بها

وذهب بعد هذا الحديث ولم يلبث ان عاد وسألني من الباب شيئا للخير دييغو غرسيا مأمور العدلية الذي لا بد من كم فمه بكمام من الفضة وذكر لي شيئا آخر عن قارئ الدعوى ليساعد على حذف فقرة بكاملها وقال: اعلم يا صاح ان قارئ الدعوى يكفيه ان يرفع حواجبه ويغلظ صوته ويرفس الارض برجله ليستلفت نظر القاضي الساهي ـ وغالبا ما يكونون هكذا ـ ليقضى على واحد من الناس، ففهمت مراده واضفت خمسين بليونا اخرى ومقابل هذا قال لي ان اقوم طوق المعطف واعلمني بدوائين لمعالجة الزكام الذي اصابني من برد السجن وفي الاخير قال لي: «روح عن نفسك فان ثمانية بلايين تضعها في يد قائد السجن كفيلة بان يخفف من همك. لان هؤلاء قوم لا يأتون بعمل صالح دون فائدة يجنونها منه» فاعجبتني الملاحظة هنا وفي نهاية الامر ذهب في حال سبيله واعطيت السجان دينارا فنزع القيود من يدي وسمح لي بان ادخل داره.

وكان له زوج كأنها الحوت وبنتان كأنهما من بنات ابليس لما اتصفا به من قبح وحمق فضلا عن الفجور بالرغم عن قبح خلقتهما. فحصل يوما ان جاء السجان ـ واسمه فلان بن بلاندونس دى سان بابلو واسم زوجته ضونيا آنـا مورايث ـ ليأكل وهو ينفخ غضبا وكنت انا هنالك فلم يرد ان يأكل فاقتربت المرأة منه وهي تتوقع هما كبيرا وارهقته باسئلتها الملحة كالعادة حتى فار جأشه وقال: «وما عسى ان يكون؟ فان ذلك اللص الخبيث «المندروس» المكلف بالمنازل قد قال لي ـ اثناء مناقشة وقعت بيننا على الكراء ـ انك غير نظيفة» فقالت: «اكل هذه الاذناب ازالها عني هذا الخبيث؟ فوحياة جدي انك لست برجل والا لحلقت له لحيته. اترى انادي خدمه لينظفوني؟» ثم التفتت نحوي وقالت: «الحمد لله فانه لا يقدر ان يدعوني بيهودية مثله فان نصفه محتال والنصـف الاخر يهودى وماله عـلى هذه النسبة ايضـا. ووالله يا ضـون بابلوس لـو سمعته لتاكدت ان عـلى ظهره صليـب سان

اندريس (16)، واذاك قال السجان وهو ينقطع حزنا: «آه يا امرأة! لقد سكت حين قال انك تحملين على ظهرك كبتين او ثلاثا (17) وان ما ذكره من الوساخة لم يعن به القذارة بل الامتناع عن اكل الخنزير» قالت: «فقد قال اذا انني يهودية وبهذه الاناة تردده على مسامعي؟ اهكذا تحافظ على شرف ضونيا آنا موراييث بنت اسطفانيا روبيو وخوان دي مدريد اللذين نعرفهما الله والناس اجمعون؟» فقاطعتها قائلا: «ما تقولين؟ بنت خوان دي مدريد؟» قالت: «نعم! خوان دي مدريد الذي هو من اونيون. ووالله ان الماكر الذي قال انه يهودي لفاجر ذو قرون» فالتفت اليهما وقلت: «ان سيدي خوان دي مدريد ـ اسكنه الله الجنة ـ ابن عم والدي واني لأثبت بحجج نسبت من هو وكيف

(16) صليب من القماش الاحمر كان يخاط على اللباس الاصفر الذي يلبسه من فرضت عليهم المحكمة الدينية عقوبات علنية

(17) اي ان على ظهرها صليبا احمر كبيرا

كان. اجل ان هذا يبقى على عاتقي وان خرجت من السجن لاجبرن هذا الخبيث على الرجوع عن قوله مائة مرة. وان عندى في القرية صكا بحروف من الذهب يثبت انتماء الاثنين الى طبقة الاشراف» ففرحوا جميعا بالقريب الجديد واسترجعوا قواهم حين سمعوا ما قلته عن الصك مع اني لم يكن عندي شيء من ذلك ولم اكن اعرف من هم هؤلاء الناس، وبدأ السجان يستفسرني عن دقائق هذه القرابة. ولئلا يشعر بكذبي تظاهرت بالغضب الشديد واخذت اقسم واهدد. فهدأوا روعي قائلين ان لا يبحث في الموضوع والا يواصل التفكير فيه ولكني كنت بين حين وآخر اقطع الحديث فجأة مرددا: «خوان دى مدريد! ان الحجة التي بين يدي على عرق نسبه لتهزأ من هذه الدعوى!» ومرة اخرى اردد قائلا: خوان دى مدريد الاكبر! انه والد خوان دى مدريد وكان متزوجا بخوانا دي اثيبيدوا السمينة» ثم اسكت قليلا

وبالنتيجة صار السجان بسبب هذه الامور

كلها يفتح لي داره للاكل والنوم. والكاتب الخير بدوره ـ نزولا عند طلب السجان والرشوة التى تلقاها ـ احسن القيام بالامـر فاخرجوا العجـوز واركبوها جوادا اكعب وكان يتقدمها مناد ينادى «تعاقب هذه المرأة لارتكابها السرقة» وكانت مقارع الجلاد تنصب على اضلاعها على نغم صوت المنادى عملا بما اوصاه به ذوو الالبسة الطويلة (18) وكان يتلوها بقية رفاقي على صهوات جيـاد من التـى تستعمل لنقل المياه مكشوفي الرؤوس والوجوه. فقد اخرجوا على هذا الشكل ليلحقهم العار على مرأى من الجميع مع ان كلا منهم كان من إخلاق ما عليه يحمل عاره بارزا. وحكموا عليهم بالنفي ست سنوات. وخرجت انا بكفالة بمساعدة الكاتب كما ان قارئ الدعوى لم يغفل عن مساعدتـى فبدل لهجته وتكلم بهدوء واهمل اسبابا وانتلع مقاطع برمتها.

---

18) يعني بذلك اعضاء المحكمة

الفصل الثانى

في عثورى على مثوى والمصيبة التي دهمتني فيه

خرجت من السجن فوجدت نفسي وحيدا بلا اصدقائى، ومع اعلامهم اياى بانهم سائرون الى اشبيلية وفي طريقهم اليها يعيشون من اصدقات فقد رفضت الالتحاق بهم وعزمت على الذهاب الى مثوى حيث وجدت فتاة شقراء، بيضاء، نظارة مرحة، فضولية احيانا، وميالة الى الهوى احيانا اخرى، في كلامها لكنة، تخاف الفيران وتفتخر بيديها فلا تبرح تقرط الشموع لتريهما، وكانت تقطع الاكل فوق الخوان وفي الكنيسة ترى مضمومة اليدين دائما، وفي الطريق لا تنفك تدل على ان هذا الدار لفلان وتلك لغيره، وفي قاعة الاستقبال لا تبرح مشغولة بشك خلالة في زينة رأسها. وان لعبت لعبة

ما كانت دائما لعبة «البثبيريغانيا» (1) لانها لعبة ترى فيها الايدي وتتظاهر عمدا بالتثاؤب دون حاجة اليه لتري اسنانها وترسم اشارة الصليب على فمها وبالاختصار لم يفلت شيء في الدار من لمس يديها بحيث صارت تغضب ابويها نفسهما بتصرفها هذا! فآووني على خير ما يرام في دارهم لانهم كانوا يريدون اكراماباثات حسن لثلاثة ضيوف: فصرت انا احدهم والاثنان الاخران واحد منهما برتقالي والاخر قطلوني. ولذا احسنوا استقبالي. اما انا فقد اعجبتني الفتاة للمتعة فضلا عما في الاقامة في دار من الرفاهية والهناء فصممت على استمالتها الى وصرت احكي لها حكايات اعددتها للتسلية وآتيها باخبار وان لم يكن لها اساس من الصحة واخدمها في كل امر يمكن الاتيان به مجانا وقلت لها ولامها انني رقاء اعرف رقى كثيرة وبوسعي

1) لعبة صبيانية تقوم على ان يقرص الاولاد ايادي بعضهم البعض ثم ينشدون بعض الاغاني التي يجب فيها رفع الايدي

ان اجعلهما يريان الدار كانها تنهار وتحترق
... تذيبة صدقتاها كلتا عى سذاجتهما
وبعد اكتسبت صداقتهما وشكرهما لكني لم
اتمكن من استمالة قلب الفتاة لان ملبسي لم يكن
كما تقتضيه الحالة ـ رغما عن اني كنت قد
تحسنت ملبسا بواسطة قائد السجن الذي كنت
ازوره دائما فاصل الرحم بيننا بما آكله من خبزه
ولحمه ـ ولهذا لم تعيراني ما استحقه من الاهتمام

فخطر لي ان ارسل بعض اصحابي الى المثوى
يسألون عنى حين لا اكون هنالك لحملهما على
الاعتقاد باني غنى متخف فدخل احدهم اولا وسأل
عن السيد ضون راميرو دى قزمان ـ وهو الاسم
الذي اتخذته لان الاصحاب افهموني انه لا باس
بتبديل احدنا اسمه بل انه لامر مفيد ـ واخيرا
سأل عن ضون راميرو معرفا به بانه ذو تجارة
واسعة وثروة وافرة وقد تعاقد منذ قليل مع الملك
على مشروعين تجاريين خطيرين. فانكرت ربة المثوى
وبنتها معرفتهما بى على هذا الشكل وقالتا ان

لجسم قبيح الوجه فقير الحال. فرث عليهم بغوس:
اجل هذا هو الذي أسأل عنه ووالله لما كنت
لاتمنى اكثر مما يملكه فان مدخولـه ليتجـاوز
الالفي دكة، ثم قص عليهما اكاذيب اخرى فزاد
اعجابهما واخيرا ترك لهما حوالة مزورة ادعى انه
جاء ليقبضهـا مني وقيمتها تسعة الاف اسكـودو،
وقال لهما ان يسلماني اياها لاقبلها وذهب في حال
سبيله. فصدقت كل من الام وابنتها قصة ثروتي
وحاولتا اصطيادي زوجا للفتاة ثم عدت الى البيت
متجاهلا كل شيء وحين دخلت سلمتاني الحوالة
قائلتين: ان المال والحب من الصعب ان يخفيا
يا حضرة ضون راميرو! وكيف نكتم علينا نفسك
مع ما انت مدين لنا به من العطف والاكرام؟،
فتظاهرت بالاستياء من ابقاء الحوالة بين ايديهمـا
وسرت توا الى غرفتي ولو تدري كيف اصبحتـا
بعد اعتقادهما باني غني تغدقان علي كل مديـح

متنبيتين على كل ما اعمله. فتبالغان في تقريظ كلامي وتجيران بانه لم يكن احد ليعادلني ظرافة. وحين ابصرتهما في شباكي صارحت الفتاة بحبي لها فانصتت بفرح كبير وزددت على مسامعي الف مديح. ثم افترقنا وذات ليلة وقد اردت ان ازيدها اعتقادا بغناي دخلت غرفتي واقفلت بابها وكانت مفصولة عن غرفتها بحائط دقيق. فأخرجت خمسين «اسكودا» وشرعت اعدها مرارا وتكرارا الى ان سمعتا رنين ستة الاف. وقد كانت رؤيتهما اياي مالكا لهذا القدر من المال غاية مبتغاي لانهما منذ تلك اللحظة اصبحتا لا تنيان في احاطتي بكل اسباب الراحة والرفاهية والرضى

وكان البرتغالي الساكن في المثوى يسمى السنيور فاسكو دي منيسيس، فارس الكراسة اي المسيح (2) وكان قصير العنق كبير الشاربين يرتدي

---

2) كان يطلق اسم «المسيح Christus على الصليب المصور قبل حروف الهجاء في الكراريس

معطفا اسود وينتعل مواقاء ويتلهب حبا ووجدا
لضونيا برينغيلا دي ريبو بادو - وهو اسم الفتاة -
ويحاول ان يمتلك قلبها بالحديث والتنهد متفوقا
في هذا المضمار على متعبدة تنصت الى عظة في زمن
الصوم. وكان يسيء الغناء ولا ينفك في جدال مع
القطلوني الذى كان اشد المخلوقات حزنا واكثرها
بؤسا. فيعاود الاكل كل ثلاثة ايام كالحمى المنقطعة
وياكل الخبز يابسا الى حد ان انياب السعاة
لتكاد تعجز عن الفتك به. ويفتخر بالشجاعة مع
انه لا ينقصه سوى ان يبيض ليكون دجاجة (3) اذ
كان يقيق كثيرا. فاخذ البرتغالي يقول اني معدم
محتال لا املك شيئا. بينما القطلوني يصفني بالجبانة
والخساسة. وكنت انا اعرف هذا كله بل اسمعه
احيانا لكني لا اجد من نفسي الجرأة الكافية للرد
عليهما. واخيرا صارت الفتاة تحادثني وتتلقى

ومنها جاء قولهم: «ما زال في المسيح» اي في بادئ
علم او فن ما.

(3) الاسبان يضربون بالدجاجة مثلا في الجبانة.

رسائلي وغالبا ما كنت ابدأها على هـذا النمط:
ان جرأتى هذه: او ان جمالـك الفتان» واتكلم
عن تحسري وتلهبي وجدا بها واعبر لها عن الـم
وحزن واعـرض نفسى عبدا لهـا واختـم بقولي
ان في قلبي من حبهـا لطعنة نجلاء. واخيرا بلـغ
بنا الحال الى التخاطب بالافراد (4) وتمكينا لمعتقدها
بمكانتي خرجت يوما من الدار واكتريت بغلـة
وجئت المنوى مقنعا وقد غبرت صورني وسألت
عن داتي مستفسرا عما اذا كان يقيم هنالك حضرة
السيد ضوز راميرو دي قزمان مولـى بلشـرادو
وبيوريتي (5) فاجابت الفتاة قائلة: «هنا يقيم رجل
قصير القامة يحمل هذا الاسم فقلت بعد ان اخبرت
بعلامانه انه هو ورجوتها ان تقول له ان قهرمانه

---

4) ان التخاطب بالافراد يعتبـر في معظـم
اللغات الاوروبية دليلا عـلى صداقـة متينـة. والا
فالتخاطب يكون بالجمع عادة

5) اسماء امكنة

دييغو دي سو'ورتانا قد عاد من ادارة التامين (6) وهو ذاهب الان لجمع الغلة وقد عرج عليه ليقبل يديه. ثم انصرفت وبعد حين عدت الى الدار.

فاستقبلتاني بغبطة كبيرة سائلتين ابابي عن سبب اخفائي عنهما اني مولى بلثرادو وبيوريتي وابلغتاني الوصية. وهنا ازدادت الفتاة تمسكا بي لطمعها في زوج من الغنى بهذا المقدار وطلبت مني ان اقابلها واتحدث اليها على الساعة الواحدة ليلا في ممر يطل على سطح من الاجر تنفتح عليه نافذة غرفتها فشاء الشيطان الذي يضع اصبعه في كل شيء ان اصعد الى الممر، وقد حل الليل، رغبة مني في التمتع بتلك الفرصة فزلقت قدمي وسقطت على سطح دار جار لنا وظيفته كاتب محكمة وقد كان لسقوطي وقع شديد فتكسر معظم الاجر وانطبعت اثارها في اضلاعي. فاسفاق اهل الدار على الجلبة وصعدوا الى السطح ظانين انهم لصوص - وهو ظن لا ينفك يساور اصحاب هذه المهنة -

---

6) ادارة كانت تودع فيها اموال القاصرين.

فلما ابصرت ذلك اردت ان اختبئ وراء المدخنة فزاد ذلك ريبتهم في امري فانهال علي الكاتب واخ اه وخادمان ضربا بهراوة حتى سحقوني سحقا ثم ربطوني على مرأى من مولاتي دون ان تجديني كل محاولاتي نفعا. لكنها اخذت تضحك وتمعن في الضحك لاني كنت قلت لها فيما مضى اني احسن السحر والشعوذة فظنت ان سقوطي كان سحرا ايضا. فلذا كانت لا تفتأ تقول لي اصعد فقد كفاك الامر هزلا. فمن جراء هذا والعصى والكلمات التي تلقيتها اخذت اعوي. فاشتد ضحكها لاعتقادها ان كل ذلك تلفيق

ثم شرع الكاتب بفتح الدعوى واذ سمع قرقعة مفاتيح كانت في جيبي قال وكتب انها عقف مع انه رآها كما هي دون ان تمنعه رؤيته اياها من ان يقيد انها عقف. فقلت له اني ضوت راميرو دي قزمان. فضحك ضحكا شديدا. اما انا وقد استولى على الحزن لما قاسيته من ضرب على مرأى من مولاتي ولاني رأيت نفسي مساقا الى السجن

دون سبب واسمي ملطخا باتهام مشين فلم اكن
لاعرف اي السبل اسلك فجثوت امام الكاتب على
ركبتي ورجوته اوجه الله، لكن لا رجائي ولا غيره
كان كافيا لحمله على اطلاق سبيلي

كل هذا جرى على السطح لان هؤلاء القوم
لا يحجمون عن شهادة الزور حتى على السماء
نفسها. ثم امروا بانزالي الى اسفل، فانزلوني من
نافذة تطل على غرفة كانت تستعمل كمطبخ

الفصل الرابع

وفيه يتوالى الكلام على الامر نفسه
وعلى عدة حوادث اخرى

لم اطبق جفني طيلة الليل وانا افكر في مصيبتي التى لم تكن في الوقوع على السطح بل بين يدي الكاتب الوحشيتين القاسيتين. وحين تذكرت امر العقف التى وجدوها في جيبي والاوراق التى حررها في الدعوى تبين لي انه لا شيء يضاهي سرعة في النمو كالذنب بين يدي الكاتب فقضيت الليل احوك حبلا. فاحيانا اعزم على استعطافه مستشفعا بيسوع المسيح ولكني حين افكر في ما قاساه من امر الكتبة حيا تعوزني الجرأة على ذلك.

وقد اردت الف مرة ان افك رباطي وكان يشعر بي فياتي صوبي كاشفا عن العقد التي تشده. اذ كان اهتمامه باختلاق كذبة علي اكثر

من اهتمامى بما ينفعنى. ونهض باكرا عند الفجر
وارتدى ثيابه فى تلك الساعة ولم يستفـق فى
داره سواه والشهود. فتناول المقرعة وراجع بهـا
اضلاعى مراجعة وافية ووبخني على رذيلة السرقة
توبيخ عارف بهذا الفن. وبينما كنا على هذا
الحال اي هو ينيلني مقارع وانا اكاد اكون عازما
على اعطائه دنانير ـ لانها الدم الـذى ينحت به
هذا النوع من المـاس ـ اذا بجارى البرتغـالي
والقطلوني يدخلان علينا نزولا عند الحاح محبوبتى
التي شاهدتنى اقع واضرب بعد ان اقتنعت بان
ما حل بي ليس سحرا بل مصابـا فلما رآهمـا
الكاتب يحدثاننى اراد ان يوقع بهما كشريكين في
الدعوى. لكن البرتغالي لم يطق الامر فوجه اليه
كـلاما قاسيا قائلا انه رجل من الاشراف من
حاشية الملك واني انا ايضا رجل عريق في النسب
وان من السخافة تقييدى، وشرع يفك قيدى فصاح
الكاتب قائلا: مقاومة!، وفي الحين وطأ خادمان
له ـ بين جلاوزة وحمالين ـ معطفيهما وحـلا

تلابيبها كما اعتادا ان يفعلا ليدلا على الكلمات التى لم تقع ويطلبا من الملك الحق واجراء العدالة واخيرا فكا رباطي. واذ ابصر الكاتب انه ليس هنالك من احد ليساعده قال: «وحق فلان» ان هذا لا يمكن ان يقع معي ولو لم تكونوا من انتم لكلفكم الامر غاليا. فامروا بارضاء هؤلاء الشهود وفكروا باني اخدمكم دون غاية. وبعد ذلك ابصرت خطه فاخرجت ثمانية دراهم ونقدته اياها. وقد حدثتني نفسي اذاك بان ارجع له ايضا العصى التى اعطاني اياها. ولكني ضربت صفحا عنها لئلا اعترف باني تلقيتها وتركته وذهبت بمعيتهما، بعد ان شكرتهما على اطلاق سبيلي وفدائي، محمر الوجنتين من شدة اللطم وحزين الظهر من اثر العصى. وكان القطلوني يكثر المزح على حسابي ويقول للفتاة ان تتزوج بي ليعكس المثل القائل «ديوث فمعصو فيصير معصو فديوث» (1) ويدعي

---

1) في الاسبانية مثل يقول «ديوث فمعصو (اى مضروب العصا) ومع هذا يامرونه ان يرقص»

ان العصى التى نلتها قد اتت علي وهزتني هزا.
ومجمل القول انه زجنى في مازق حرج مخجل
بتلميحاته هذه. وصرت اذا دخلت عليهم شرع يلوح
بالاعواد او الاخشاب كانه يعصو شخصا آخر ولما
رأيت نفسى مضحكة ورأيت انهم بدأوا يشعرون
باحتيالي شرعت احاول مغادرة الدار. ولئلا ادفع
ثمن الاكل والاقامة الذى كان يبلغ قدرا وافرا
اتفقت مع طالب من هورنبوس، (2) يسمى
براندالاغاس. وصديقين له اخرين على ان ياتوا
المثوى ليلا ويعتقلوني. فوصلوا في الليلة المتفق
عليها وابلغوا ربة المثوى انهم قادمون من لدن

وهو يضرب تمثيلا بمن يصاب بمصيبة تلو اخرى
ويطلب منه الا يحزن. وقد اتى المؤلف هنا بجناس
فاستعمل الكلمتين معصو وديوث بمعناهما الحقيقي
اشارة الى العصى التي تلقاها بطل القصة وما
ينتظره اذا تزوج من خداع زوجه له لما ذكر عن
سيرتها سابقا. فلذا قدم قوله معصو. على ديوث
2) بلدة من مقاطعة بلد الوليد

محكمة التفتيش وانه من الاولى ان يبقى الامر محاطا بالكتمان. فارتعدتا خوفا لانى كنت انبأتهما فيما مضى باني عالم بفن السحر. ولذا حين اخرجت لم تنبسا ببنت شفة ولكن حين اخرج متاعى اعترضتا طالبتين ان يحجر مقابل ما في ذمتي من دين فاجابوهما ان ذلك المتاع ملك محكمة التفتيش فلم يحرك احد ساكنا. وتركتاهم يخرجون بالمتاع وبقيتا هنالك ترددان انهما طالما خشيتا وقوع ما وقع ثم اخبرتا القطلوني والبرتغالي بامر من جاءوا في طلبى وانهم من الجن وان لي اقارب بينهم وحين اخبرتاهما بشأن المال الذي عددته قالا انه كان يظهر مالا لكنه ليس بمال في واقع الامر واقتنعتا بذلك وهكذا نجوت بالبستى ولم ادفع ثمن طعامى.

واتفقت مع من ساعدانى على استبدال زيي بالبسة توافق الزي الرائج فلبست سروالا قصيرا وقبعة واسعة واستعضت عن خادم بخادمين صغيرين' اذ كان هذا ايضا من الرائج اذاك' وقد شجعوني

على ذلك وحسنوه في وجه ... في
ظهور بمظهر غني من نفع تزوج ...
مؤكدين على ان ذلك ليس من النادر في العاصمة
واضافوا بقولهم انهم يرشدوني الى عرس موافق
واشاروا علي بان اتهيأ لما قد يجد. فما كان مني
مع ما انا عليه من التحيل والطمع في اصطياد
زوجة الا ان عزمت على الامر. فزرت من حوانيت
الدلالة ما لا يحصى واشتريت جهاز العرس.
واستفسرت عن موضع اكراء الخيل فاعتليت اليوم
الاول جوادا لكني لم اجد خادما فخرجت الى
الشارع الاكبر ووقفت ازاء حانوت تباع فيه عدد
الخيل كمن يقاول في شراء واحدة

وما هي الا فترة حتى وصل اثنان من اهل
البيوتات كل على فرسه فسألاني عما اذا كنت
اقاول على شراء فرس ابيض كانت لدي فوقه
فازحت يدي وانفيتهما معي بلغة مجاملة واخيرا
قالا انهما ذاهبان الى البرادو للنزه فقلت لهما
اني ارافقهما ان لم يغضبهما ذلك واوصيت التاجر

انه متى جاء خادماي فليوجههما الى البرادو واعطيته علامة الرداء الذى يلبسونه ووقفت بين الفارسين وباشرنا السير. وبينما نحن سائرون شرعت افكر في انه ليس بوسع من يرانا ان يحكم لمن هم الخدم او من منا يسير بدونهم فجعلت اتكلم بصوت عال عن سباق طلبيرة وعن فرس لي ابيض اللون تمازجه الزرقة. وبالغت في وصف جواد آخر قلت انهم سياتونني به من قرطبة. وكلما التقينا بخادم يقود فرسا اوقفته وسألته لمن الفرس واستفسرته عن علاماته وعما اذا كان صاحبه يرضى ببيعه. ثم اطلب منه ان يدور به دورتين في الشارع واخيرا اقول له ان به عيبا في اللجام وان لم يكن لذلك اصل واشير عليه بما يجب صنعه لاصلاح ذلك العيب وشاء حسن طالعى ان اجد فرصاً عديدة لتكرار حيلتى واذ ابصرت رفيقي يسيران منذهلين ولاح لي انهما يقولان «من عساه ان يكون هذا النبيل المعدم الجخاف؟» ــ لان احدهما كان يرتدي بدلة الاشراف فوق صدره

والاخر يحمل سلسلة من الماس بحيث جاءت كبدلة وشارة معا ـ قلت اني افتش عن خيل طيبة لي ولابن عم لي لاننامقبلون على بعض الاعياد ولمابلغنا «البرادو» اخرجت قدمي من الركاب وجعلت عرقوبي خارجا واخذت ادور متنزهاعلى هذه الحالة. وكان معطفي ملقى على كتفي وقبعتي في يدي· والكل ينظرون الى فمن قائل: «الا اني ابصرت هذا ماشيا» ومن مردد متهكما: ما احيلى الشاطر في سيره هذا!» اما انا فكنت اواصل النزهة متغاضيا كأني لم اسمع شيئا.

وبلغ رفيقاي عربة تقل سيدات فطلبا مني ان امازحهن فترة ما. فتركت لهما جانب الفتاتين وانصرفت الى الام والخالة. وكانت العجوزان ممن يحببن المرح. احداهن تقارب الخمسين سنة والاخرى تقل عنها بعض الشيء. فاسمعتهما من حلو الكلام ورطبه الشيء الكثير وانصتتا الي بفرح لانه ليس في الدنيا امرأة مهما شاخت اكثر سنا منها ادعاء ووعدتهما بهدايا وسألتهما عن حالة

السيدتين اللتين ترافقانهمـا فقالتـا انهما مازالـتا فتاتين وكان ذلك يبدو في حديثهما فاجبت بالمالوف اى متمنيا لهما ان تزياهما تسعدان بـزواج حسب استحقاقهما. فاعجبتهما تمنياتى وسالتاني عما اقوم به في العاصمة فقلت انى قدمتها هاربا مـن ابى وامى لانهما يريدان تزويجى بالرغم عن اراداتي بفتـاة قبيحة المنظر، بليدة ومن اصل حقير لعظم مهرهـا واضفت قائلا: «وانا يا سيدتى افضل امـرأة نظيفة معدمة على يهودية مثرية. فان ملكـى ولله الحمـد دخله اربعون الف دكة سنوية. واذا نجحـت في دعوى لي قد اصبحت على وشك النهاية فانى لن احتاج فيما بعد شيئا البتة» فقاطعتنى الخالة بقولها:
اجل ايها السيد! وكم انت مصيب! لا! لاتتـزوج الا على خاطرك ولا يكن زواجك الا بامراة عريقة في النسب. وانى اوكد انى مع قلة ثروتى لم ارض بزواج ابنة اختى مع كثرة من طلب يدها مـن المثرين لانهم لم يكونوا من محتد كريم. الا انهـا والحق يقال فقيرة اذ ليس لها من مهر سوى ستة

الاف دكة، لكنها لا يجاريها احد في النسب،
قلت «في رأيي انك احسنت صنعا».
وبينما نحن في هذا انتهى الحديث بالفتاتين
الى طلب شئ للعدوفة من صاحبي فاذا بهما
عند هذا الطلب يصح فيهما قول الشاعر:
«وكان كل واحد يصوب نظراته الى الاخر
بينما الجميع ترتجف لحاهم» (3)
ولما ابصرت الفرصة سانحة قلت انني استطلت

---

3) هذا البيتان مأخوذان من نشيد «موت
ضون الونصو اغيلار حيث يقرأ ان الملك فرناندو
بينما كان يغزو غرناطة جمع كبار فرسانه وسألهم
قائلا «من منكم ايها الاصحاب يتوجه غدا الى
جبل الشارات، فيضع رايتي فوق البشرة؟»
فأخذوا يصوبون نظراتهم بعضهم لبعض دون
ان تخرج كلمة «نعم» من فم واحد منهم لان
الذهاب خطر والاوبة غير اكيدة ففي وسط هذا
الخوف المستحوذ عليهم كان الجميع ترتجف لحاهم
لولا ضون الونصو المسمى اغيلار

خدمي فليس لدى من ارسله الى الدار ليأتيني ببعض الصناديق الصغيرة فشكرنني على ذلك ورجوتهن ان يذهبن في الغد الى «كاسا دل كامبو» حيث ارسل لهن لحوماً باردة فقبلن دعوتي ودللنني على دارهن وسألنني عن داري ثم ابتعدت عربتهن وسلكت انا ورفيقاي طريق الاوبة الى الدار. ولما ابصرا سخائي في دعوتي السيدات لعدوقة العصر ارادا ان يقلداني فضلا يجبرني على مقابلته بالمثل فدعواني الى العشاء معيا تلك الليلة فامتنعت في بادئ الامر لاحملهما على الالحاح في الدعوة وان كان امتناعي لم يطل، ثم تعشيت معهما وبعثت في طلب خدمي مقسما اني ساطردهم من داري. ودقت الساعة العاشرة فقلت لهما اني على موعد غرامي في تلك الساعة ورجوتهما ان يعذراني وذهبت بعد ان اتفقنا على ان نلتقي عشية اليوم التالي في كاسا دل كامبو.

وحين ودعتهما ذهبت الى صاحب الحصان فارجعته له ومن ثم توجهت الى الدار فوجدت

الرفاق يلعبون بالورق لعبة الكينولياس، فاخبرتهم بما وقع وبالاتفاق الذي حصل وقررنا ان نرسل دون تاخير عدوفة العصر وان ننفق فيها مئتي درهم. ورقدنا بعد ان اتفقنا على هذا العزم. واعترف اني لم اطبق جفني تلك الليلة وانا افكر فيما عساي ان افعله بالمهر. وما كان موضع تردد في نفسي هو ما اذا كان من الافضل انفاقه في بناء دار او تسليفه بالفائدة اذ لم اكن ادري اي الوجهين احسن وانفع لي.

الفصل السابع

وفيه يتلو الكلام على القصة نفسها وعلى غير ذلك من الحوادث والنكبات الخطيرة

اصبح الصباح فافقنا ونهضنا على عجل نفكر في اية طريقة نعد الخدم والانية والعصرونية. ولكن بما ان الدينار هو السيد المطاع الذى لا يحجم عن احترامه احد فقد حصلت على مبتغاي بواسطة صانع حلوى مقابل كمية انقدته اياها فمدني بالانية وتولى تقديم العصرونية بنفسه يعاونه ثلاثة خدم ومضى الصباح في اعداد العدة وعند العصر كنت قد استأجرت مهرا. ولما حانت الساعة المضروبة سلكت طريق «كاسا دل كامبو» وقد حشوت تكتي اوراقا كمذكرات وفككت ستة ازرار من المعطف فاطلت من تحته بعض الاوراق.

ولما وصلت كانت السيدات والنبيلان قد

سبقوني الى حيث تواعدنا على اللقاء.
فاستقبلنني هن بكل حنان بينما اخذ النبيلان
يخاطبانني بلسان المخاطب (1) توددا وتقربا. فقلت
لهم ان اسمي ضون فيليبي تريستان، وطيلة
النهار لم يسمع سوى اسم ضون فيليبي تتداوله
شفاه الجميع

فشرعت اقول لهن اني انهمكت باشغال
لصاحب الجلالة واخرى تعلق بملكي الى حد اني
كنت اخشى الا اتمكن من الوفاء بوعدي محاولا
بذلك ان اهيأهن للعصرونية فجأة. وبينما انا في
الحديث هذا اذا بصانع الحلوى قد اقبل بالعدة
والانية والخدم فصارت نظرات السيدات والنبيلين
مصوبة الي بينما لزمت ألسنتهم السكوت فامرته
بان يذهب الى العريش وان يجهز العصرونية

---

(1) كان التخاطب بلسان المخاطب Vos دلالة
على رفع الكلفة بين المتخاطبين. والا كان بلسان
الغائب مع تقديم كلمة ،حضرتك، فتقول (حضرتك
جاء او جاءت)

هنالك ريثما نذهب الى الغدران. ولكن العجوزين ما عتمنا ان بلغتانى لتتحفاني ببعض الهدايا وقد ازددت انشراحا حين ابصرت الفتاتين مكشوفتى الوجه لاني لم ار بين خلق الله اجمل وجها من تلك التي فكرت بها لتكون زوجتى؛بيضاء، شقراء، محمرة الوجنتين، صغيرة الفم، كبيرة العينين خضراءهما، ممشوقة القد، جميلة اليدين، في لسانها صأصأة. ولم تكن الاخرى بقبيحة الشكل وانما وجدتها اقل حشمة وخامرني الشك في انها كثيرة التقحال وسرنا الى الغدير وابصرنا كل شيء وعلمت خلال الحديث ان زوجتى العتيدة لو عاشت في عهد هيرودس لكانت عرضة للهلاك كواحدة من جملة الابرياء (2) اجل انها لم تكن عاملة ولكن بما انى لا اريد المرأة مرشدة ولا مهرجة بل

---

(2) تطلق كلمة برىء inocente من باب المجاز على قليل الفطنة. و«الابرياء» يعني بهم الاطفال الذين قتلهم هيرودس حين علم بولادة يسوع المسيح

اتقاسمني الفراش، وان كانت قبيحة ورصينة فكاني اتقاسمه مع ارسطاطاليس او سينيكا او كتاب ما، فاني اسعى ان تكون ذات حسن وجمال

ثم وصلنا الى جانب العريش وبينما انا امر بشجنة اذا بزينة طوقي تتعلق بشجرة فتنخرق قليلا واذاك اقبلت الفتاة وامسكته بخلالة من الفضة وقالت لي امها ان ارسل الطوق في الغد الى دارها لتصلحه ضونيا آنا - وهو اسم الفتاة - وكان كل شيء راضيا: عدوقة وافرة من طعام طازج وبارد وفاكهة وحلوى. واخيرا رفع الخوان وبينما نحن في هذا اذا بفارس قد اقبل علينا من الروض المحاذي يصحبه خادمان فعرفت فيه صاحبي ضون ديغو كورونيل واقترب هو مني. واذ كنت بذلك الزى اخذ بتفرس في. ثم خاطب السيدتين داعيا اياهما ببنات عمه وخلال هذا كله لم تكن عيناه لتفارقاني. وكنت انا حينئذ اتحدث مع صانع الحلوى بينما رفيقاى اللذان كانت ترنحهم ا به

صداقة متينة كانا متماديين في الحديث معه فسألهما
ـ حسبما ظهر بعدئذ ـ عن اسمي فاجاباه: ضون
فيلببي تريستان' وهو من عائلة نبيلة وذو شرف
رفيع وثروة واسعة فرأيته حينئذ يرسم على وجهه
اشارة الصليب مستعيذا. واخيرا اقترب منى على
مرأى من الجميع وقال. «سماحا ايها السيد لانــي
حسبتك قبل ان اعرف اسمك شخصا آخـر على
طرفى نقيض مما انت هو. حيث لم ار قط شبها
بين شخصين مثله بينك وبين خادم كان لي في
شقوبية اسمه باباوس» ابن حجام من تلك المدينة»
فضحك الجميع ضحكة عريضة وسعيت بدورى لئلا
تنم بي لون وجهي وقلت انى ارغب في رؤيـة
ذلك الرجل لاننى قد سمعت من اناس عديدين ان
بينى وبينه شبها عظيمـا. فقاطعنــى ضون دييغو
بقوله : «ويـا له من شبه! في القـامة والـكلام
والحركات! وحقك انى لم ار تشابها كهذ'» واذاك
قالت السيدتان ـ الخالة والام ـ كيف يمكن ان
يحصل تشابه كهذا بين نبيل من الرفعة بهذا المقام

ومحتال سافل كذلك، واضافت احداهن بقولها دفعا لكل شبهة: «اني لاعرف ضون فيليبي حق المعرفة وهو الذى اضافنا بامر من زوجي في بلدة اوكانيا» ففهمت مقصدها وثنيت على كلامها بقولي إن رغبتي كانت ولم تزل في خدمتهن قدر استطاعتي انى كان. واذاك عرض علي ضون دييغو صداقته واستسمحني عن الاهانة التى وجهها الي باخذه اياي بابن الحجام. واضاف قائلا: ان حضرتك قد لا تصدق ما اقوله لك عنه: فامه كانت ساحرة وابوه لصا وخاله جلادا. وهو شر خلق الله واكثرهم دناءة وما قولك بما شعرت به حين سمعت عن نفسي هذه المنكرات؟ فوالحق يقال لقد كنت - وان حاولت الاخفاء - كمن على الجمر. واخيرا حاولنا الاوبة الى المدينة فودعنا السيدات وضون دييغو انا ورفيقاي وركب ضون دييغو العربة معهن. فسألهن عن مغزى هذه العصرونية واجتماعهن بي فاجابته كل من الام والخالة اني ذو ملك ريعه السنوي كذا من الدكات وانهما تريدان ان تزوجاني

بآنيكا (3) وقالتا له ان يستفسر عني فيرى ان الامر مصيب وان فيه شرفا عظيما لكل عائلتهن.

واثناء هذا الحديث بلغ دارهن الواقعة في شارع الارنال بالقرب من كنيسة سان فيليبي اما نحن فذهبنا الى الدار جميعا كالليلة السابقة، وطلب مني رفيقاي ان نلعب طامعين في سلبي. ففهمت مقصدهما وجلست فاخرجا الورق - وكانت الاوراق مزورة كالحلوى - فخسرت اللعبة الاولى لكني ما لبثت ان عاودت الكرة وربحت منهما نحوا من ثلاثمائة بلبون: ثم ودعتهما وعدت الى داري. فالتقيت برفيقي المأذون براندالاغاس وبيرو لوبيس اللذين كانا يدرسان في زهر النرد بعض الحيل الناجحة فلما ابصراني تركا ما هم فيه وسألاني عما وقع لي فلم ازد على القول باني وجدت نفسي في مازق حرج واخبرتهما كيف التقيت بضون دييغو وما حصل لي فسلياني واشارا

3) تصغير آنا

علي بالتكتم والا اتراجع عن قصدي باية طريقة او وسيلة.

وبينما نحن في هذا بلغنا انه تنتظم في دار جار لنا صيدلاني حلقة للعب بالورق لعبة الوقوف وكنت انا احسن هذه اللعبة اذ كان لدى ورق مزور يمكنني من الغش فقررنا ان نذهب الى داره لنفجع من عده بميت - اذ يعني بهذا الاسم دفن صرة ما - فسبقني اليها صاحباي وسألوا من هناك عما اذا كانوا يرغبون ان يلاعبوا راهبا بندكتيا قدم منذ قليل للاستشفاء في دار بنات عمه وانه اقبل مريضا ومعه كثير من الدنانير والبلايين الثمنة (4) ففتح الكل اعينهم وصاحوا قائلين: اهلا وسهلا بالراهب على الرحب والسعة فاضاف بيرو لويس بقوله: لا يخف عليكم انه ذو مكانة في رهبنته، ولكنه يريد ان يسلى وهو خارج عن الدير، فان يلعب فذاك لما في اللعب من حديث

---

4) البلبون الثمن نقد فضى كان يوازي ثمانية بلايين من الفضة القديمة

اكثر من اي شئ آخر فاجابوه ثانيــة بقولهم: «فليأت ايا كان قصده، فعطف عليه براندالاغاس بقوله: «من اجل الحشمة ..» فقاطعه الصيدلاني قائلا: «لا حاجة الى زيادة البحث في الموضوع» وبهذا انطلت عليهم الحيلة واقتنعوا بانهم سيقعون على غنيمة باردة وعاد صاحباى الى الدار فاذا بي قد وضعت منديلا على رأسى وارتديت ثوب راهـب بندكتي – وكان هذا الثوب قد وقع بين يدي في احدى الفرص – ووضعت نظارة فوق عينـى ولحية مستعارة لم تكن لتعوق لانها كانت ممشطة فدخلت متواضعا وجلست ثم بدأ اللعب. وكان الثلاثة الاخرون قد تآمروا علي لكن صفقتهم جاءت خاسرة لانى كنت ادرى منهم باللعب فسقطوا في شراكى ولم تمض ثلاث ساعات حتى ربحت منهم ما يربو على الف وثلاثمائة بليون واخيرا اعطيت الحلوان وودعتهم قائلا: «الحمد لله رب العالمين» واوصيتهم ان لا يروا في لعبى بابا للشك لانى ما لعبت الا للتسلية.

لكنهم ـ وقد خسروا كل ما عندهم ـ اخذوا يستعيذون بالابالسة فودعتهم وانصرفنا عائدين الى الدار على الساعة الحادية والنصف ورقدنا بعد ان تقاسمنا الغنيمة. وقد عزاني هذا بعض الشيء عما انا فيه. وفي الغد ذهبت باحثا عن حصان اركبه فلم اجد واحدا اكتريه فتبين لي من ذلك ان كثيرين من الناس بهم مثل ما بي لان السير على الاقدام كان يعتبر عيبا وخصوصا في ذلك العهد. فتوجهت الى حي سان فيليبي فالتقيت بخادم لمأذون يحرس جوادا كان صاحبه قد نزل عنه منذ هنيهة وذهب يسمع القداس فنفحته باربعة دراهم ليسمح لي ان اجول جولتين على متنه في شارع الارنال وهو شارع محبوبتي ريثما يخرج مولاه من الكنسة فرضي بذلك وامتطيت الجواد وجلت به جولتين من طرف الشارع الى طرفه الاخر دون ان ارى احدا. وعند الجولة الثالثة اطلت ضونيا آنا. فلما رأيتها اردت ان اتظرف معيا ولما كنت اجهل احوال الحصان ولم اكن خيالا ماهرا فاذا به بعد

ان سطته سوطين وشددت لجـامه يشبو ويلبـط لبطنين ثم يركب رأسه واذا بى اهوي في مستنقع هنالك واقبل الصبيان من كـل صوب يحدقـون بى. فلما رأيت نفسى على هذه الحالة وكل ذلك على مرأى من محبوبتى لم اتمالك مـن الصيـاح غاضبا آه يا ابن الفاجرة! هب انك من خيـل بالنزويلا (5) لما عفوت عنك! وانك لتدفعن غاليا ثمن هذه الوقاحة! اجل لقد اخبرت بنزواته هذه لكن اردت ان اخبرها بنفسى، وعاد الخادم بالفرس فوقف وركبته ثانية. وكان ضون دييغو كورونيل يقيم في دار بنات عمه. فلما سمع الضوضاء اطل ليرى مصدرها واذ ابصرته سقط في يدى فسالني هل اصبت بمكروه فقلت ان لا وان كانت احدى ساقى قد عطبت وكان الخادم يلح علي ان اسرع قبل ان يخرج مولاه ويراه لانه متوجه الى القصر

---

5) نوع من الخيل الاصيل اشتهر بتحسيـن نسلها خوان دي بالنزويلا سائس الدوكـى دى سيسا فاطلق عليه اسمها

لكن ما سوف تدعي ن بصار في ذلك تحته ر ـ

خمسين قدم من النور والخادم تعوزني أن تذهب

فمري حولده ونخوي على الخادم ثلثا وخمسا تمانعا

على تموزة بانه من الحماقة ان عدي فرسه لسحين

آخر ولكني لنه لمعت الي وقال لي عاصيا ان

ارل لي ما وضوى ذ عو وخوي ساعدا ن م

نجري فولله ان عد ا بعدا له نلحق واحد من

اس والسسي من حملون وكان حزني

سدسـ ومحت ابرقبي مصمس عضمس نحمعن

في سر عن الرض واحر له رسا من السروق

عرلب المادون وسار في حال سملد اس ادا فعد

الكر به نتسب احداث عن اسرع دع تحسوب

دمعو قسـ له رلا قط حدونا ضري عن غما

وأني قد سرلت فرسي النيـ في سن فمسي

وهو حموت ومن عدته ـ سي حـ .. ربع ذت

فاني حمله على اكتمي وحده نجري و عـف

حسب هواي ولا قدت محمد قمري ن ت

فرسا آخر ان استطع ـ وهو فرس

المأذون ـ فاردت ان اجربه . والحق يقال انه من الصعب ان يصدق المرء ما يقال عن صلابة عجزه فضلاً عن سوء سرجه. ولولا معجزة ارادها الله لارداني قتيلا فقال ضون دييغو: نعم! انها لمعجزة ومع هذا كله اراك تشكو من هذه الساق فقلت له: اجل انها تؤلمني واود لو ذهبت فركبت حصاني وعدت الى داري اما الفتاة فقد اطمأنت الى ما سمعته حينئذ مني وابصرت عليها علامات الاسف والغم بسبب سقوطي. لكن ضون دييغو خامره الريب في ما رآه من امر المأذون وما جرى في الشارع. فكان سبب شقائي زيادة عن مصائب اخرى عديدة وقعت لي. واعظم تلك المصائب واصلها كلها هو اني حين بلغت الدار وتقدمت لارى صندوقا اودعت فيه حقيبة حوت كل ما بقي لي من ميراثي من المال وما ربحته في اللعب ـ عدا مائة درهم كنت احملها ـ فاذا بالمأذون الطيب براندالاغاس ونيرو لوبس قد ذهبا به ولم يتركا وراءهما من اثر. فجمد الدم في عروقي

وبقيت حائرا في امري لا ادري اي طريق اسلك
ولبثت اردد في نفسي قائلا: ويل لمن يبق بالمال
الحرام فانه يعود من حيث اتى! واحسرتاه! ما
عساني صانع! ولبثت مترددا بين ان اجري وراءهما
باحثا عنهما او اخبر العدالة بشأنهما لكن هذا
الوجه الاخير لم يبد لي صائبا لانهما لو قبض
عليهما لما احجما عن الافشاء بقصة الزي الرهباني
الذي لبسته وبامور اخرى غيرها. وذلك معناه الموت
على اعواد المشنقة. اما ملاحقتهما فلم تكن بالسهلة
لانني لم اكن ادري اي السبل اتخذا.

واخيرا ولئلا اخسر صفقة الزواج ـ اذ عرفت
اعسر ان احوالي تستقيم بالخير ـ قررت ان ابقى
ولو كلفني ذلك ان اشد حزامي شدا محكما.
فاكلت وعند العصر استاجرت مهرا وسرت نحو
شارع محبوبتي ولما لم يكن معي خادم ولم ارد
ان تراني بدونه صبرت في احدى الزوايا الى ان
يمر واحد من الناس تكون عليه امارته فاذا ما
جاز خرجت وراءه فيبدو كأنه خادمي ولو لم يكنه

في واقع الامر وحين ابلغ طرف الشارع ابقى جاذبا الى ان يعود واحد آخر عليه امارانه فاعيد الكرة واجول جولة اخرى. ولست ادرى اذا كانت قوة الحقيقة بكوني انا نفس ذلك الشاطر الذي داخلت ضون دبعو ريبة في امره اذ هي الريبة التي ساورته بسبب حصان المأذون وخادمه وما جرى في معه او اي سبب آخر، ولكن الواقع هو انه جعل يستقرى عن شخصي وموارد عيشي ويترقبني واخيرا كان من نتيجة سعيه انه اطلع على الحقيقة باغرب الوسائل واعجبها، لاني كنت انمسكبقضية الزواج متجحا ببعض الرفائق وكانت السيدات تحجن عليه لرغبتهن الحارة في الفراغ من القضية وبينما هو يسعى وراثي التقى بالمأذون فلنشيا - وهو الذي اضافني يوم كنت اسكن مع الفرسان - وكان هذا غاضبا علي كل الغضب لانى لم اعاود زيارته. ولما كان يعلم انى كنت فيما مضى خادما عند ضون ديغو اخبره كيف انه رآنى ودعانى الى الغداء عنده وكيف انه ابصرني منذ يومين على

من فرس في زي أنيق وكيف أخبرته بأني سأتزوج
بفتاة ذات ثروة وسمعة. فلم يكن من ضون دنغو
إلا أن عاد إلى داره وبينما هو في الطريق التقى
عند باب الشمس بصاحبي اللذين كنت قد عرفت
إلى محسوبي برفقتهما فقص عليهما القصة كلها
وقال لهما أن يستعدا فإذا أبصراني ليلا في الشارع
فليحذرا رأسي، وأنهما سيعرفاني بالمعطف الذي
ألبسه فإني أكون أنا لابسه آنذاك. ولما كانت
الأمر يحدث لي كما قط بعضهم موديه لي كما في
تلك الساعة وذلك هو الحديث حول ما يحسن أن
نصنعه ليلا وحينئذ وصل الفارسان وسارا في
سبيلهما في الناحية المحاذية من الشارع وبقيت أنا
وضون دنغو فصعدنا نحو سلم غرفتي وما بعد
مدخل شارع السلم قال لي ضون دنغو لا يخفى
عليك هلا استبدلت معطفي بمعطفك لأنني أحب
أن أمر من هنا دون أن أعرف فقلت: ليكن ما
أردت وأخذت معطفه وأعرته معطفي وعمه
معطفي في ساعة نحس وعرضت عليه نفسي لأدافع

عنه لكنه وقد اسر في نفسه ان يوقعني في الشرك قال انه يفضل السير وحده ومن الاحسن ان اولى ذاهبا.

فما كدت احيد عنه حتى شاء الرجيم ان كان هناك شخصان ينتظرانه ليفتكا به بسبب احدى النساء فابصراني وانا لابس معطفه فحسباني اياه وانهالا علي ضربا بعرض السيف فاخذت اصيح. وعلى الصياح وبعد ان تفرسا في ادركا اني لست بضون ديغون فوليا هاربين وبقيت في الشارع وحدي اشكو ألم الضربات ووقفت برهة لا اجرؤ على دخول الشارع واخيرا على الساعة الثانية عشرة وهي موعد حديثي مع محبوبتي بلغت باب دارها فاذا باحد الرجلين اللذين كانا ينتظراني اعتقادا باني ضون ديغو يتصدى لي وينهال علي بعصا. وينيلني ضربتين على ساقي فيرميني على الحضيض واذا برفيقه يتقدم مني فيجز شعر رأسي من اذن الى اخرى ثم نزعا مني المعطف وتركاني مرميا على الارض وهما يقولان «هذا جزاء الكذابين المحتالين الساقطي الاصل فاخذت اصيح واستغيث

غير اني لم اكن لاعلم حقيقة الامر وان خامرت نفسي ريبة مما سمعته منهما بانه قد يكون صاحب الهوى الذي خرجت منها بتلك الحيلة التي نصنعها بدعوى تداخل محكمة التفتيش او السجان المخدوع او رفاقي الهاربين. وخلاصة القول اني كنت انتظر الطعنة من كل جهة ـ بحيث لم ادر لمن انسبها ـ حانت ان تجيئني من جانب خون دبيغو وكنت اصبح بمل شدقي قائلا: ياسرقة المعاطف! فاقبل رجال الامن ورفعوني. ولما ابصروا في وجهي جرحا بليغا ورأوني بلا معطف ولم يدروا ما هي القضية ذهبوا بي ليعالجوني فادخلوني دار احد الحجامين فضمد جرحي وسألوني عن مسكني ثم حملوني اليه.

فرقدت وبقيت تلك الليلة حتى الفجر متذكرا امر وجهي المشقوق وجسمي المرضوض وساقي المحطمتين وقد عجزتا عن حملي ولم اكن لاحس بهما وهكذا بت مجروحا مسروقا بحيث لم يبق بوسعي ان الحق باصحابي ولا ان احاول التزوج ولا ان ابقى في العاصمة ولا ان اغادرها.

الفصل الثامن

في شقائي وغير ذلك من الحوادث الغريبة

اصبح الصباح فاذا بي ارى فوق رأسي ربة الدار وهي شيخة طاعنة في السن متجعدة التقاسيم معصرة الوجه كسمرة تين طليت طحينا: ان سئلت عن سنها اجابت بانها ما زالت في ريعان الصبا مع انها ذات وجه كثير القعور لحياء عورته لا تعري ولا تشتهي فهي مثال العجوز الساحرة. وكانت ذات شهرة في الحي وما اكثر من كانوا يضاجعونها ومن شأنها ان تسع الاذواق وتجمع بين الشهوات وأسمها غلانة دي لاعبا. وكانت تكري دارها وتفتش عن مكترين لدور اخرى. ولم يكن المثوى ليخلو من الناس طول السنة وانك لتعجب لو رأيتها تدرب الفتيات في فن الاتنذار. فتعلمهن ما يحسن بهن كشفه من وجوههن اولا. فالثنياء

تعتبر أن تبسم دائما ولو في أنه وذات البدين
الجسمين أن لا تعبر عن اظهارهما والشقراء الشعر
أن تهز رأسها وتخرج طرف ضفيرة من تحت
المعطف والمنديل والجميلة العينين أن ترقص
حدقيها فتارة تغمضهما وطورا تتطلع بهما الى
أعلى وكان من عاداتها في العصر ان لو دخلت
عليها نسوة سود كالغربان أخذن الى صدورهن بعض
الوجوه بحيث لا يعرفهن احد لا ولا رجالهن
نفسيه وكان لبنيه وجعه بسيطا عروس لأنه
تغمر به الأشياء في تكون مهنتهم وتسبب النفس
حملا مبنا ووضعا الموعد لديها كانت ابن
ما تكون في ترفع العذارى وتسدل الغيرة. وفي
نهاية أيام قضتها في دارها رأيته تعيش حزن غد
وتخيله للأمر كانت تعلم أنها تسلب النفس
وأمثلة ترددها مرتدة أنها في تمر الأمسية
على طول الرجال فالعصر ت تلتف والجامعة
والعباد المتمدنة والحديث عن قصر الأحمر
والأمراء ولا كانت تعليهن أسباب الشيب قال عند

واساليب اخرى لطلب السلاسل والحلى. وتستشهد «لاننداتبا» زميلتها في القلعة و«بلانوسا» زميلتها في نرتس وكلتاهما من البارعات في فن الاحتيال والكذب

وقد سردت هذا كله لتداخل الشفقة قلب من درى بين اية ايد سقطت ويقدر خير تقدير ما قدمته لي من الحجج وحيث لم تكن لنتكلم دسي قبل ان تضرب عليه الامثلة بدأت بقولها: «اعلم يا بني ضون فيليبي انه من حيث تخرج ولا تزيد سرعان ما تبلغ القعر البعيد» وكما يكون التراب يكون الوحل، وكما تكون الاعراس تكون الحلوى. وانا لست اعرفك ولا اعرف طريقة عيشك ولكنك فتى ولا يهولني ان تبدر منك نزوات الشباب دون ان تحسب اننا ونحن نيام نسير نحو اللحد. وانا ككتلة من التراب بوسعي ان اكلمك بهذا الكلام وهل من جديد في ان يقال لي انك اتلفت ثروة واسعة دون ان تشعر بها وانك شوهدت يوما طالبا وآخر شاطرا وثالثا نبيلا

وكل هذا من جراء الصحبة التي بليت بها! ت
قل لي يا بني من ترافق وانا اقول لك من انت!
الا ان كل نعجة وصاحبتها. واعلم ايضا يا بني ان
الحذر منجاة للمرء لأن الحرق قد يضيع بين اليد
والفم. واهنأ ايها الابله! فان اقضت عليك مضجعك
رغبة في النساء فاعلم انى الامينة على تلك السلعة
في هذه الديار وانى اتعيش مما اربحه في هذه التجارة
وسواء على الدلالة ام الشراء وغالبا مانحتفظ بهن
في الدار وليس عليك ان تنتقل من صحفة سطل
المشاطر آخر سعيا وراء معسرة منسرجة ذهب بدنيا
لمن يقدم لها صحن طعام وحقك انك لو سلمتني
ذاتك لوفرت على نفسك كثيرا من الدنانير لانني
لست ممن يحب المال وبحق اسلافي وموتاي
والبنة الصالحة التي ارغبها ما كنت لأطالبك حتى
بما لي عندك من اجرة الثوب لولا حاجتي اليه
لشراء بعض الاعشاب والنبتات - لأنها كانت
تشتغل بالمساحيق دون ان تكون عقاقيرية وتتعاطى
السحر لمن تدفع لها عنه اجرا.

ولما ابصرت عظمها قد انتهت بالمطالبة (وقد اخرته مع انه موضوع حديثها ولم تبدأ به كما يفعل الفقيه، لم اجزع لزيارتها ولم نقم بها سابقا حين كنت نزيلها وانما وقع ذلك ذات يوم قدمت فيه غرفتي لتعتذر لي عما سمعته من حديث اناس لي عن شؤون سحرية وان العدالة حاولت ان تقبض عليها فاخفت الدار والشارع عن نظر رجالها. فجاءت لتنزع من رأسي ذلك الوهم قائلة ان التي فعلت تلك الفعلة امرأة اخرى تدعى غيا، ولا عجب ان ضل الطريق جميعنا حين نسير وراء ادلة كاولئك (1) واخيرا عددت لها مالها وبينما انا اعطيها اياه شاء الحظ العاثر - الذي لا ينساني قط - وابليس الذي يتذكرني دائما ان يدخل مامورو العدالة ليقبضوا عليها بتهمة الزنا وقد علموا ان عشيقها عندها اذاك. فدخلوا غرفتي

---

1) اتى المؤلف بجناس حول كلمة غيا التي معناها الدليل وقد استعملها اولا كاسم علم ثم بمعناها الحقيقي

وجدت نفسي في الفراش وهي الى جانبي انهالوا
علينا جميعا بالضرب المحن. وقذفوني مرارا ثم
جروني خارج الفراش. اما هي فامسكها اثنان
منهم وصبا عليها وابلا من الشتائم ناعتين
اياها بفاجرة ماجرة. ومن شان ليخلن هذا الجن
امرأة حياتها على الشكل الذي وصفه وعلى رغيق
الأمور وتاوهت الكبيرة على العشق - وهو
بائع فاكهة وكان اذاك داخل الدار - هارب. فلما
ابصروه وعرفوا ما قاله واحد آخر من نسوة
سوى اني لست بصاحبها انطلقوا وراءه وامسكوه
بعد ان تركوني مسوقا مضروبا. ومن كل مصيبتي
كنت اضحك مما كانوا يقولونه للعجوز. فقد
كان احدهم ينظر اليها قائلا: ما احسن ان يكونوا
بهم الام وعلى رأسك تاج استغفر الله وله سترني

(12) كان المحكوم عليهم بجريمة الزنى والسحر
يطاف بهم في الشوارع وعلى رؤوسهم تاج ليتلقى
بينهم الجمهور وشعار نوع خاص ثم يقذفونهم بالخضر
والفواكه وغيرها

ان اراك ترسمين ثلاثة الاف لفتة تكون في خدمتك. ويقول الاخر: ان المشايخ قد اعدوا الريش وهم في انتظارك لتدخلي مزدانة. واخيرا جاءوا بصاحبيها وربطوهما معا واستغفراني عما صدر منهم نحوي وانصرفوا بعد ان تركوني وحدي. فسري عني قليلا حين رأيت مضيفتي على تلك الحالة وهكذا لم يبق لي من هم الا ان اقوم على عجلة لاتمكن من رميها ببرتقالة (3) وان كنت - لما سمعته من خادمة بقيت في الدار - لم اثق كل الثقة بسجنها لانها قالت لي كلاما لا اذكره بالتفصيل عن الطيران وامور اخرى لم تقع من اذني خير موقع. فمكثت في الدار اعالج فيها خلال ثمانية ايام اكاد لا اقوى اثناءها على الخروج. وقطبوا لي جرح وجهي اثنتي عشرة قطبة واضطررت الى حمل عكازتين

وهكذا وجدت نفسي صفر اليدين لان المئة درهم ذهبت في ما اديته عن الفراش والاكل

---

(3) راجع الحاشية السابقة

والاقامة ولما لم يبق من يدي فلس واحد عزمت دفعا لمصروف لم اعد قادرا على تحمله ان أخرج من الدار بعكازتي وابيع كسوتي واطواقي واردتي وكانت كلها من النوع الفاخر وهذا ما فعلته ثم اشتريت بما تجمع لدي من ثمنها ربقا خلقا من النسيج القرطي وكساء من المشاقة ورداء طويلا مرقعا وسروالا ضيق الساقين وحذاء كبيرا وادخلت قبعة الرداء في رأسي وعلقت في عنقي سبحة وصليبا من الخشب بعد ان تلقنت تاوهات السائلين وعباراتهم المؤثرة ونحيبهم البائسة من فقير سارع في هذا الفن وهكذا شرعت امارسه في الاسواق. وخصصت ستين درهما بقيت لي في قماري وانصرفت لي مهنة الفقر مكلا على جودة كلامي. فجولت على هذه الحالة في الاسواق طيلة ثمانية ايام متوجها بصوت اليم مرددا عبارات كهذه: تصدق على النصراني الصالح يا عبد الرب! تصدق على هذا البائس المعطوب! اواه اني اشفق على نفسي من ان تكون في هذه الحالة وهذا ما كنت اقوله

ايام العمل اما ايام الاعياد فكنت اغير صوتي واستعمل تعابير اخرى فاقول: ايها النصارى المؤمنون يا عبدة الرب! استحلفكم بالاميرة الرفيعة سلطانة الملائكة وام الرب هلا تصدقتم على مقعد بائس ضربته يد الرب! ثم اتوقف هنيهة وذلك من الاهميه بمكان ثم اضيف قائلا: ان ريحا فاسدا في ساعة نحس بينما كنت اشتغل في كرم قد اقعدني وشل اعضائي ولقد كنت فيما مضى صحيحا سالما كما انتم وكما ستكونون والحمد لله

وكانت الدراهم بهذه الحيلة تتساقط بين يدي بغزارة فاكسب مالا وافرا. ولولا فتى وقح اقطع ذقص احدى الساقين يتردد فوق عجلة صغيرة في نفس الشوارع التي اتردد فيها انا فيجمع من الصدقات قدرا وافرا لكان كسبي اكبر بكثير. وكان ذلك الغنى يردد بصوت ابح يختمه صائحا بقوله: تذكروا يا خدمة المسيح عقاب الرب لي على خطاياي. فتصدقوا على المسكين بما تلتموه من

الله ونضيف قائلا: استرحمكم باسم خيسو (١)
الصالح فيكسب من كل هذا ما لا يحصى فانبهت
الى اسلوبه ولم اقل بعدئذ قط خيسوس بل
خيسو بحذف السين فانه اكثر تحريكا للقلوب
واشد حملا لها على الشفقة واخيرا غيرت عباراتي
وحملت عملا كثيرا وكنت امشي متوكئا على
عكازتين وساقاي في صرة من الجلد وقد قمطتهما
بعصائب عريضة وابيت في مدخل دار جراح برفقة
احد فقراء الازقة: وكان هذا في طليعة ما خلق
الله من الشحاذين واسع الثروة يتصرف كشيخنا
مبكسب اكثر من الجميع وكانت له ادرة كبيرة
وكان يربط ذراعه بخيط رافعا اياه الى اعلى
فيبدو كانه متورم اليد اقطع ومحموم في آن
واحد وتارة يسجي على ظهره في موضعه فتظهر ادرته
من الخارج كانها كرة قصيرة (٢) ويقول: انظروا

---

(١) خيسو اي يسوع
(٢) والكرسي الذي تعصب سيقانه وذراعه
عصبا شديدا ويبيت على ذلك ليلة فاذا نورم واحتاق

الفقر وهبة الرب للنصراني» فان مرت به امرأة قال: «ايتها السيدة الجميلة! لتكن يد الله معك!» وكان السواد الاكبر من النساء يمررن به وان لم تكن تلك طريقهن ويتصدقن عليه ليدعوهن بهذا اللقب. وان مر به جندي قال: «آه! يا حضرة اليوزباشي» وان كان المار من عرض الناس قال: يا حضرة الشريف. وان رأى واحدا يركب عربة سماه بعدئذ بصاحب السعادة. وان ابصر شماسا على ظهر بغلة سماه برئيس شمامسة، ومحمل القول انه كان لا يداني في فن الرياء والزلفى وكانت له اساليب اخرى للاستعطاء ايام اعياد القديسين وقد توطدت بيني وبينه روابط الصداقة فافشى الي ذات يوم بسر اغنائه بنهارين: وهو ان

الدم مسحه بشيء من صابون ودم الاخوين وقطر عليه شيئا من سمن واطبق عليه خرقة وكشف بعضه فلا يشك من رآه ان به الاكلة او بلية شبه الاكلة. والفلور الذي يحتال لخصيتيه حتى يريك انه آدر. الجاحظ، كتاب البخلاء ـ ص ٤٦ طبعة ليدن

صاحبي هذا كان عنده ثلاثة صبيان يستجدون
في الأسواق ويختلسون ما تطاله أيديهم. ثم يدفعون
اليه ما يجمعونه فيحتفظ بالكل وكذلك كان يشغّل
صبيين مكلفين بادراج الصدقات للكنائس فيتقاسم
وإياهما ما يختلسانه منها.

أما أنا فبعد أن تلقيت نصائح مثل هذا المعلم
وسمعت منه هذه الدروس قررت أن احذو حذوه
وصوبت خطواتي شطر الناس فما كاد يمر علي
شهر حتى تجمع عندي ما يربو على مئتي درهم
خالصة. وفي آخر الامر أدلى لي باعتبار — نقصد
أن نسير معا — وندرج خطة [illegible] مسجد
فنذهب معه وتقرضه [illegible] [illegible] [illegible]
اربعة و خمسة [illegible] [illegible] أن [illegible]
بذلك فخرج وسأل عن غلاميه فقول [illegible]
يا سيدي! لقد انقلبت به على [illegible]
أصل ذلك [illegible] عربة [illegible] في [illegible]
[illegible] واحد عن مكانتنا. وهكذا [illegible]

وتجمع لدى خمسون دينارا وشفيت قدماى وان كنت لم ازل اسير بهما مقمطتين

واخيرا عزمت على مغادرة العاصمة والتوجه الى طليطلة حيث لا اعرف احدا ولا احد يعرفني فاشتريت ثوبا قاتم اللون وزيقا وسيفا وودعت بلكاسار - وهو الفقير الذى تحدثت عنه - وبحثت في الفنادق عن ركوبة تحملني الى طليطلة

الفصل التاسع

وفيه اتعاطى التمثيل والشعر ومغازلة الراهبات(1)

في أحد الفنادق صادفت جوقا من الممثلين يستعدون للسفر إلى طليطلة. وكان لديهم ثلاث عجلات وشاء الله ان اجد بينهم واحدا كان لي

---

(1) مغازلة الراهبات ـ كان من المألوف في ذلك العهد حسبما نستنتج من كثير من الشواهد الادبية والتاريخية تردد الرجال إلى اديار الراهبات لمحادثتهن في أيام وساعات معينة من وراء حاجز مشبك يعرف باسم Locutorio أي محل التكلم فكان بعض الشبان يتخذون من ذلك فرصة للاسترسال في مغازلة الراهبات على نحو ما نرى في هذا الفصل لكن هذه العادة ما لبثت ان ألغيت من أنظمة الراهبات.

رفقا أيام الدراسة في القلعة ثم انصرف عن الدرس الى المنزل. فاعلمته برغبتي في مغادرة العاصمة الى طليطلة، ولم يعرفني الا بعد جهد جهيد من جراء الجرح الذي بوجهي. ولم يحرر رسم اشارة اصبعه مسعفنا. وأخيرا نـزل عند تودي حبا بالمال وحصل لي من الآخرين مكانا لأسير بمعيتهم وسرنا وقد اختلط الرجال بالنساء وابصرت واحدة منهن وهي الراقصة وكانت تمثل فوق ذلك ادوار الملكات وكبار الادوار المهمة في المسرحيات فاذا بها غاية في الكيد والدهاء. وصدف ان زوجها كان جالسا الى جانبي فقلت له مدفوعا برغبتي في امتلاكها ـ دون أن اعرف من هو ـ هذه المرأة بأية صورة يمكننا ان نفاتحها الحديث لننفق عليها عشرين دينارا لانها في نظري غاية في الجمال؟

فقال الرجل: لا يصلح بي وانا زوجها ان اجيبك على سؤالك هذا ولا ان ابحث في الامر ولكن ـ واعلم اني اقول هذا بلا تحيز ـ يمكنك ان تنفق عليها ما اردت من الدنانير لانك لن تجد

لها عنه في الجمال والذوق، وما أن فرغ من كلامه حتى قفز من العجلة وانتقل الى عجلة اخرى متسحباً في الظلام ـ حسبما ظهر ـ لخدمتها. وقد اضحكني هذا جواب الرجل وفهمت انه عن رجال من هذا امكن القول ان لهم نساء وكأنهم ليس لهم قاموا بذلك عن حب الناس المسافرين وضيعت الفرصة في السير الهادئ بين الشعب ونحن عن ماشي وحاتي واحد وبعد ذلك كثير اجتمع الغيم الى ما بعد وصولنا الى طلمنكة ووافانا المساء فرحين.

وبينما نحن سائرون خطر لي خاطر فأخذت أمثل قطعة من مسرحية سان اليخو الذي كنت أحفظها منذ الصغر. وقد اجدت في التمثيل الى

---

(2) سان اليخو San Alejo ـ توجد مسرحيتان تحملان هذا العنوان الاول مؤلفه خوان دي ومندا وقد صدرت في مدينة ابيعة سنة 1570 والثانية من آداب القرن السابع عشر ... مجهول كاتبها.

حد انهم طمعوا في ضمي الى صفوفهم. ولما كانت المرأة مطلعة بواسطة صاحبي الذي يرافقهم على نكباتي ومصائبي عرضت علي الانضمام الى جوقهم وبالغوا أمامي في الثناء على حياة الممثلين ولما كانت الفتاة قد أعجبتني وداخلتنى رغبة في التقرب اليها تعاقدت مع مدير الجوق لمدة سنتين. وأمضيت له تعهدا ببقائي الى جانبه واعطاني حصتي وادواري واثناء هذا كله بلغنا طلطلة. فاسندوا الى حفظ بضعة مقاطع شعرية تلقى قبل تمثيل المسرحيات وادوارا امثل فيها اشخاصا ذوى لحى كنت أحسن تقليدهم بصوتي فبذلت جل عنايتي والقيت المديح الاول في المدينة وكان على لسان مركب أقبل مفككا بلا مؤونة ومطلعه هذا هو المرفأ وكان يتخلله تلقيب عرض الناس ملاء واستغفارهم عن الهفوات واستصاحتهم لما سيمثل. وحين فرغت من القائه قوبلت بعاصفة من التصفيق ثم غادرت خشبة المسرح وقد احسنت تمثيل دوري.

وبعد ذلك مثلنا مسرحية من تأليف احد

ممثلينا وقد عجبت من أن يكون بينهم شعراء لأني كنت أعتقد ان الشعر لا يحسنه إلا العلماء الكبار ولم يدر قط بخلدي ان لأناس مثلهم نصيبا منه ولكن الشأن الآن في هذا الباب هو انه لا يخلو صاحب جوق من أن يؤلف مسرحيات ولا ممثل من ان ينظم ميازل تدور حول مناوشات المسلمين والنصارى. واني لأذكر أن الحالة كانت فيما مضى بعيدة عن البعد عما هي عليه الآن لأنه اذاك لم يكن نسمي مسرحيات الا أنا [illegible] لوبي دي [illegible] او [illegible] ادون (8) والا فلا. وأخيرا [illegible] المسرحية في اليوم الأول ولم يفهمها احد وفي اليوم الثاني بدأنا بها — وشاء الله أن نفتتح [illegible] معركة — فخرجت مسلحا ومزودا [illegible]

---

(8) رامون Ramon الراهب الونصو رامون أو رمون، مؤلف مسرحي اسند اليه [illegible] من سرفانتس ولوبي دي [illegible] وقد وضع عدة مؤلفات علمية [illegible] مسرحيات [illegible] اخر [illegible] لسنة 1616

ولولاه اسقطت تحت وابل من السفرجل الردئ وبقايا الخضر وقشور البطيخ. ولم تر قط زوبعة هذه والحق يقال ان الرواية كانت جديرة بذلك لانها كانت تمثل ملكا نورمانديا لامجال لظهوره نوب ناسك وخادمين لاثارة الضحك وعند حل العقدة يتزوج الجميع وهكذا تنتهي الرواية ولذا قوبلنا بما نستحقه. واسانا معاملة الرفيق الشاعر ولما كنت انحي عليه باللائمة قائلا له ان تقصر فيما نرجوه منه واخبر قال لي انه ليس له شيء مما في الرواية وانما صنفها مستوليا على عدة مقاطع لمختلف الروائيين ومن مجموعها خاط مسرحية فجاءت مجموعة رقاع كردا الفقد وانه انما اخطأ في خياطتها. واعترف لي ان كل الممثلين الذين يؤلفون مسرحيات انما هم مكلفون بالارجاع لانهم يمدون ايديهم الى ما سبق لهم ان مثلوه من مسرحيات وذلك سهل جدا. وان الطمع في كسب ثلاث او اربعمائة درهم هو الذى يدفع بهم الى ذلك التغرير. ومن جهة اخرى حيث انهم يترددون

على هذه الاماكن فان الكثيرين يقرؤون انها مسرحيات فياخذونها ليطلعوا عليها واذاك يسرقونها فيضيفون اليها نزهة ويحذفون عبارة جيدة وينسبون المسرحية لنفوسهم وصرح لي ايضا بانه لم يوجد قط ممثل احسن تاليف اغنية الا على هذه الطريقة

فلم استقبح الحيلة واعترف اني شعرت بميل الى استعمالها لما كنت احسه من نفسي بميل طبعي الى الشعر اضف الى ذلك اني كنت قد تعرفت على بعض الشعراء وخاصة مواطني [illegible] (1) وعقدت [illegible] رايي على الانصراف الى هذا الفن فاصبحت ايامي تنقضي [illegible] [illegible] و[illegible] وقد انقضي على وصولي [illegible] شهر وحد فتعهدت [illegible] مسرحيات جيدة [illegible] [illegible] [illegible] الاول — وبذلك اصبحت مشهورا وصرت [illegible]

(1) [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] وتوفي [illegible] [illegible] [illegible] في
احدى الموقع

بالونصيتى (5) لانى قلت ان اسمي الونصو . ومن جهة اخرى كنت القب «بالقاسى» لاني مثلت في احدى المسرحيات دورا بهذا الاسم اعجبت فيه كل الاعجاب الرعاع والعامة من الحاضرين – حتى صار عندي ثلاثة ازواج من الاكسية وصار بعض مديرى الاجواق المسرحية يحاولون انتزاعي من الجوق الذى انا فيه. واصبحت اتحدث كمن له خبرة في فن المسرحيات وانحي باللائمة على الممثلين المشهورين فانتقد حركات بينيدو واثنى على هدوء سانتشث وظرافة مورالبس (6) وكنت استشار في تزيين المسارح وتجميلها وان جاءنا أحد ليقرأ علينا مسرحية ما كنت انا السامع لها

---

5) تصغير الونصو

6) بينيدو Pinedo وسانتشث Sanchez ومورالبس Morales ثلاثة ممثلين بارعين حازوا قصب السبق في هذا الفن منذ سنة 1599 و 1613 وقد مثل الاول كثيرا من مسرحيات لوبي دي بيغا

واخيراً شجعني هذا التحبيذ فاخرجت باكورة شعري قصيدة غنائية واعقبتها برواية قصيرة قوبلت بالاستحسان.

ثم حدت بي الجرأة الى وضع مسرحية طويلة ولئلا يفوتها ان تكون ذات صلة بالامور الالهية جعلت موضوعها مريم العذراء سيدة السبحة (٦) وكان مطلعها نشيداً يرتل على نغم المزمار. وفي خلالها تظهر النفوس المتحيرة والابالسة اذ كانوا يستعملون في ذلك العهد فيصيحون بو بو عند الخروج و... ...ي عند الدخول وقد استحسن سكان المكان اسم الشيطان متخللا الادوار وكانوا بعد ذلك يتناقشون فيما بينهم حول سقوطه من السماء وغير ذلك وفي نهاية الامر مثلت مسرحيتي ونالت اعجاب الجميع ولست اكاد [illegible] على القيام بكل ما تتطلب مني لان [illegible] على نفس منظومات كانوا [illegible] فمن [illegible] انشد في وصف جحيم الحب او [illegible] ومن [illegible]

---

(٦) Nuestra Señora del Rosario

يريدها في وصف اليدين او الشعر وقس على ذلك وكان لكل ثمنه وان كنت ابيع منظوماتي باثمان رخيصة لوجود حوانيت اخرى تباع فيها السلعة نفسها

اما التراتيل فحدث ولاحرج.فان داري كانت تعج بالوافهين ومرسلات الراهبات وبالعميان ايضا - وكنت اتقاضى ثمانية دراهم عن كل نشيد - واذكر انى في ذلك العهد نظمت نشيد القاضي العادل» وهو نشيد فخم جزل يدعو الى الاحسان
ونظمت الابيات المشهورة الاتية لاعمى كان ينشدها ناسبا اباها لنفسه وهي :

يا ام الكلمة المتجسدة
يا ابنة الاب الالهي
اعطني نعمة طاهرة الخ .

وكنت اول من حمم الاناشيد كالمواعظ بعبارة النعمة في هذه الدنيا والسعادة في الاخرى، وذلك في المنظومة الاتية على لسان احد اسارى تطوان:
فلنلتمس دون رياء

من الملك الاعلى الذي جل عن كل عيب
ان يلتفت الى قوة عقيدتنا
ويجود علينا بنعمته
وبالسعادة في الدنيا الاخرى. آمين.

فبهذه الامور كلها كانت احوالي على احسن ما ارغب وناهيك عن غنى وازدهار انمتع في بحبوحتهما واصبحت اطمع في تأليف جوق تمثيلي تحت اداري. وكان منزلي فخر الزينة الذي وقعت — ضعا في الحصول على زرابي رخيصة — على حيلة شيطانية وهي اني اشتريت كمية كبيرة من اجلال الفنادق المرسومة عليها اسلحة النبلاء وعلقتها على الجدران فكلفني ما بين ثمن حسنة وعشرين وثلاثين بلوت وكانت وفي ان ذي من كل ما تملك من نوعها لان من حلالها كان يري تمزقها مسلا انه من حلال عبده لم يكن تبرى شيء (8)

---

(8) اتى المؤلف بجناس في كلمة para ver

وحصل لي ذات يوم حادث غريب لا بد لي من قصه ولو كان فيه عار علي وهو اني حين كنت اكتب رواية ما كنت اخلي في علية المنزل وهنالك ابقى واكل. وكانت الخادم تحمل الطعام الى العلية وتتركه لي فيها وكان من عادتي ان ارفق الكتابة بالتمثيل كما لو كنت على خشبة المسرح فشاء ابليس أنه بينما كانت الفتاة صاعدة على الدرج – وهو ضيق مظلم – وبين يديها قدر وصحفتان. كنت انا انظم مقطعا من روايتي في وصف الصيد فاصيح باعلى صوتي قائلا:

«الا فامسك الدب! الا فامسك الدب!

لانه سيمزقني اربا

ويندفع وراءك هائجا»

او تدري ما فعلت الفتاة – وهي غاليسية(1)

ومعناها الاول حذر بان يرى والثاني ليرى باعتبار para مقابلة للام السببية

(1) اي من غاليسيا وهي مقاطعة في شمال اسبانيا.

من كلامي حين سمعتني اقول: «سيمزقني ويندفع وراءك!» لقد ظنت ان كلامي حق واني احذرها من الدب. فولت هاربة لكنها في اضطرابها تعثرت بذيل ثوبها وهوت تتدحرج حتى اسفل الدرج فاهرقت القدر وحطمت الصحفتين وخرجت تصيح في الشارع قائلة ان دبا يقتل رجلا. ومع اني هرعت اليه مسرعا حين وصلت كان الجيران قد اقبلوا كلهم مستفسرين عن الدب، وبالرغم عما قصصته عليهم من ان ذلك جهل من الفتاة لان الامر هو ما اخبرت به عن الرواية فانهم اصروا على ان لا يصدقوني فلم اذق طيلة ذلك اليوم طعاما وبلغ الخبر رفاقي وتناقلته الالسن في المدينة كلها وقد حصل في الكثير من هذه الحوادث طيلة تصرافي الى احتراف الشعر ومع هذا كله لم يزايلني سوء الحال.

وحصل انه لما ذاع الخبر بان احوال مدنسر جوقي كانت تسير باضطراد في طريق النجاح صدر امر غجاني بحجز امواله بسبب دين قديم واودع

السجن ـ وهي خاتمة جميع من يتعاطون هذه المهنة. فتشتتنا ايدي سبا وولى كل منا وجهه شطر ناحية اما انا والحق يقال فالبرغم عن الحاح الرفاق على ليستميلوني الى جوق آخر لما ابصرت نفسي صاحب مال وهندام انيق ولم اكن راغبا في مثل هذه الحرفة وانما تعاطيتها محتاجا فضلت الانصراف الى الراحة والعيش الرغيد. فودعتهم جميعا وانصرفوا الى حال سبيلهم اما انا وقد حسبت اني بتركي احتراف التمثيل اخرج من حياة الفجور فقد اتخذت مغازلة الراهبات لى مهنة جديدة وقد اداني الى هذا اعتقادي بان ربة الجمال «فينوس» انما هى راهبة نظمت نزولا عند طلبها كثيرا من الاناشيد الميلادية وقد علقت بي حين شاهدتني امثل في مسرحية دينية يوم خميس الجسد دور القديس يوحنا الانجيلي. وصارت تعتني بي كل العناية وقالت لي انها انما تاسف لمعاطاتي حرفة التمثيل ـ لاني تظاهرت امامها باني ابن احد النبلاء الكبار ـ وترق لحالي واخيرا قر رأيي على

ان اكتب اليها الرقعة الاتية : لقد تركت الجوق ارضاء لخاطرك اكثر منه قياما مما يهمني لان كل صحبة (11) لي دونك انما هي وحدة موحشة وكلما كنت ملكا لنفسي كنت ملكا لك. فاعلميني بميقات المواجهة فعرف متى احظى بمحادثتك

وذهبت المرسلة بالرقعة وليس بالامكان وصف الفرح الذي استولى على الراهبة حين علمت بحالي الجديدة فجابتني بما يلي:

الجواب

اني لا اهنئك على حالتك الجديدة بل انتظر النهضة ولو لم تكن ارادتي ومصاحبتك واحدة لتألمت ويسعنا ان نقول الان انك انت لي نفسك فلم يبق عليك الا النادرة وسأسعى في ان افي عنك مثابرة من الارجح ان المواجهة لن تكون اليوم ممكنة ولكن لا تتأخر عن المجيء في صلاة

---

(11) اتى المؤلف هنا بكلمة compagnie فاستعملها اولا بمعنى جوق وثانيا بمعنى صحبة

المساء وهنالك نتقابل. ولعلي اتمكن بعدئذ من التحيل على الرئيسة لاحادثك. الى اللقاء»

فسرتني الرقعة لان المرأة كانت في الواقع فطنة وجميلة وبعد ان اكلت ارتديت الثوب الذي كنت ارتديه للمغازلة في المسرحيات وقصدت الكنيسة فصليت ثم جعلت اجيل بصري في جميع ثقوب الشبكة (11) لعلي اراها وبينما انا في هذا شاء الله وحسن حظي ـ بل ابليس وسوء طالعي ـ ان اسمع اشارة التعارف القديمة فجعلت اسعل ولا سعلة برباس. وانما كان قصدي ان اتظاهر بالزكام فجاء سعالي كما لو ان ارض الكنيسة قد رشت بالفلفل الحار. واخيرا بعد ان عييت من السعال اطلت من وراء الشبكة عجوز تسعل بدورها فابصرت تعاستي وفهمت ان السعال علامة تعارف في العجائز عادة. ومن الناس من يسمع صوتا فينتظر ان يرى بلبلا فاذا به يبصر بومة. ومكثت

---

11) اي الشبكة التي تفصل بين المحل المحفوظ للراهبات وبقية الكنيسة

برهة طويلة في الكنيسة حتى بدأت صلاة المساء فسمعتها كلها. ولذا يسمى غزيل الراهبات العشيق الفخم، (12) لما له من العشايا كالاعياد الفخمة ومن خاصته انه لا يخرج قط من عشية الفرج لان يومه لا يصل أبدا. ومن المستحيل ان يصدق قولي ان ذكرت كم مرة سمعت صلوات المساء. ومنذ شرعت بالمغازلة استطال عنقي ذراعين من كثرة ما اشرأب لرؤية حبيبتي. وصاحبت الواقف والصبي الذي يساعد الكاهن لاقامة القداس. وقد أحسن هذا استقبالي. وكان ذا روح خفيفة يمشي منتصبا كأنه بعدي سفافيد ونعشي مزاريق.

---

(12) اتى المؤلف بجناس في كلمة solemne ومعناه الفخم، وأيضا الاحتفالي حين تنعت بها الصلوات وكذلك اتى بجناس آخر في كلمة visperas ومعناه «عشية» وايضا «صلاة المساء» وهي تصلى بشكل احتفالي. وهو يعني ان مغازلي الراهبات يكثرون من حضور صلوات المساء الاحتفالية لكن من دون جدوى فكأن عشيتهم ليس لها صبح.

من هنالك توجهت الى قاعة المقابلة . وهى تتالف من بهو فسيح. ومع هذا لم يكن بد من الحصول على مكان منذ الساعة الثانية عشرة كما لو كان لحضور مسرحية جديدة واخيرا احتللت مكانا حيث امكننى ذلك وناهيك عما رأيته من مواقف المحبين المختلفة: فمن ناظر لا يطرف بعين ومن ممسك قبضة السيف بيده وبالاخرى السبحة كتمثال حجرى فوق اللحد ومن رافع يديه وباسط ذراعيه كالملائكة ومن فاغر فاه اكثر من المرأة السؤول مرنا حبيبته احشاءه من وراء حلقومه دون ان ينبث ببنت شفة، ومن ملتصق بالجدار متقلا على الاجر كأنه يقايس بين نفسه والزاوية، ومن آخر يتمشى كانه لا بد ان يحب لسيره زهوا كما تحب الفحول، ومن ممسك رسالة كاللحمة بين يدي الصياد كأنه يدعو اليه بازا.

اما الحساد فقد تألفت منهم عصابة اخرى. فبعضهم في حلقة يضحكون وينظرون اليهن والبعض الاخر يقرأون اناشيد ويريهن اياها ومنهم من تراه

اثارة للغيرة يتمشى في الشارع المحاذي ويده بيد امرأة ومنهم من تراه يتحدث الى خادم ارسلها تتجسس وقد جاءته بنبأ ما. كل هذا كان يجري في القسم الاسفل حيث كنا اما في الطابق الاعلى حيث كانت الراهبات فقد كان المنظر ايضا جديرا بالمشاهدة. لان قاعة المقابلة كانت تتألف من برج صغير مليء كوى وحائط مخرم يبدو تارة كأنه زجاجة عطور. وكانت جميع الثقوب آهلة بعبون تترصد: فهنا ترى ارجلا واياد مجتمعة وهناك يدا او رجلا منفردة وفي مكان اخر تشاهد ما الف استعماله يوم السبت من رؤوس والسنة وان نقصتها الادمغة وفي جهة اخرى ترى حانوت محول: فالواحدة تري السبحة والاخرى تهز منديلها وفي ناحية اخرى يعلق قفاز وهناك بنوع شريط اخضر. والبعض منهن يتكلمن بتمهل وت عرتض وعرهن سعلن. ومنهن من تسمر مستمعة كما لو انها تخرج العنكبوت بصاحبه. وحده بان يرى كيف انهم في الصيف لا يدفأون على

حر الشمس فحسب بل يتشيطون. واعجب به منظرا ان تراهن نيئات بقدر ما تراهم مشويين. وفي الشتاء يحدث ان واحدنا تنبت فوقه من جراء الرطوبة الجرجير وغيرها من البقول. ولا ثلج يفوتنا ولا مطر الا تتلقاه اجسامنا وكل هذا في نهاية الامر لرؤية امرأة من وراء شبكة وزجاج كما نشاهد عظام القديسين فان تكلمت كان امره كمن يعشق شحرورا في قفص وان سكتت كمن يغرم بصورة لا غير. وما هداياهن سوى لمس خفيف لا يرتقي قط الى ضربة محكمة فلا تتعدى النقر بالاصابع. وبين حديد الشبابيك تدخل الرؤوس ومن الكوى تطلق اسهم الغزل. كان حبهن لعبة التخفي. والك بعد ذلك ان تنظر الى العاشقين يتكلمون همسا كانهم يصلون ويتحملون توبيخ عجوز واوامر بوابة وكذب ناظرة. واعجب من ذلك كله ان تراهن يغرن من النساء اللواتي خارج الدير مؤكدات ان الحب الحقيقي انما هو حبهن. وما ادراك بما ياتين به من امور شيطانية اثباتا لدعواهن. واخيرا صرت ادعو رئيسة الدير

بالسيدة، والنائب الروحي «بالاب» والوافه «بالاخ»
وكلها امور يبلغها اليائس بالمثابرة ومرور الزمان
ولكني اخيرا بدأت استاء من النـاظر الذي
يطردني والراهبات يسألنني وقابلت بين عـدد
ما ادفعه ثمنا للجحيم ورخص ما يدفعه الآخرون
وتاملت الطرق الشائكة التي اسلكها لا محالة واني
سائر الى الجحيم بسبب حاسة اللمس وحدها ...
وكنت حين اتكلم – لئلا يسمعني نغمة من كان
امام المنبر – اخفض رأسي الى ركبتين الى حد
ان قضبان الحديد كانت تترك علاماتها في جبهـتي
طيلة اليومين التاليين وانكلم بصوت منخفض
يكاد يستحيل سمعه بلا مشقة فلا يراني احدا الا
قال لعنة الله عليك يا ماكرا بالراهبات وقولا
اخرى اسوأ منها
فهذه الامور كلها جعلتني اعيد الفكـرة
وكاد يستقر رأيي على قطيعة الراهبة ولو حسرت
---
(1) أي لانه لم يرتكب معصية كبرى وانما
كان حبه للراهبة لا يتعدى مسه اصابع يديها.

قوني وعزمت على ذلك يوم عيد القديس يوحنا الانجبلي لاني في ذلك اليوم اكملت معرفة ما هن الراهبات وحسبك ان تعرف ان راهبات يوحنا المعمدان بجحز جميعهن قصدا فكانت اصواتهن وهن يرتلن القداس نحيبا اكثر منه ترتيلا. وكذلك لم يغسلن وجوههن وارتدين الالبسة القديمة. كما ان اصدقاءهن وقد تالبوا على ان يفقدوا العيدرونقه. جاءوا الى الكنيسة بصفات بدلا من الكراسي وبكثير من الشطار من الرعاع.

واما رأيت بعضهن بسبب احد القديسين والبعض الاخر بسبب آخر يعاملونهم أسوأ معاملة اخذت من راهبتي ما قيمته خمسون أسكودا من الانسجة المطرزة والجوارب الحريرية وصرات العنبر والحلوى لابيعه بالقرعة واتيها بالثمن فلما صارت تلك الاشياء بين يدي سلكت طريق اشبيلية لاجرب حظي في بلاد اوسع نطاقا. اما ما ساور نفس الراهبة من ألم وحسرة على ما ذهبت به اكثر منه علي فليتأمله القارئ الورع.

الفصل العاشر

في ما جرى لي في اشبيلية حتى رحيلي [illegible] (1)

..

قطعت الطريق نحو طليطلة واشبيلية [illegible]
التي كانت في معركة [illegible] الشعو وكنت حيال
من رجل [illegible] قطع مختلفة الحجم واجتي(ب)
تحت [illegible] وبعد [illegible]
بلاد. وكنت احسن وضعا من الكثيرون من حجم
ورق اللعب فسعدت بعد الحديثة في ورقة
تقتضي [illegible] وبهذه الصورة لم يكن نقص
من [illegible] واحد واني الخوف [illegible]
زهر(2) عديدة او [illegible] كلها لعثرت [illegible]

---

(1) [illegible] — هو [illegible]
اداة على الشجرة الحديدة.

(2) اتى المؤلف بجناس في كلمة زهرة [illegible]

اكبر منه رجلا وعن سرد عيوب يفر منها الناس لئلا تكون مدعاة الى الاقتداء بها. ولكن لعلي بسرد بعض الحيل والتعابير احذر الغافلين من عاقبة غفلتهم. فاذا ما انطلت على قرائي حيلة بعد قراءتها فانما يقع الذنب على نفوسهم

لا تركن ايها الانسان الى دفع ورقات لعبك لانهم يبدلونها لك بغيرها وهم يقرطون الشمعة. واحفظ ورقك من ان يمس بالقشط او الصقل وبما يعرف سوء الطالع. واعلم ان كنت شاطرا انه في المطابخ والاصطبلات تغرز في الاوراق خلائل او تطوى لتعرف من الشقوق وان لاعبت اناسا ذوى مروءة فاحذر من الورق لانها منذ المطبعة حبل بها بالاثم. فيكفي ان تاتي الورقة مخالفة ليعرف ما فيها. ولا تثق بالورق النظيف لان ما يريك منظرا جميلا ويحتفظ باكثرها نظافة (3) هو في

معانيها الضغو اي الغش في اللعب وبه استعملها هنا. ثم استعملها بمعناها المعروف.

(3) اي بالمال.

الواقع وسخ. وان لعبت بالورق فاحذر حين يخلطها المكلف بذلك ان يقوس الصور ـ حاشا الملوك ـ وهو يطويها اكثر من بقيـة الاوراق لان ذلـك التقويس انما هو من اجل مالك المرحوم.

واحذر ان لا يعطيك الموزع من فوق ما نفاه عنه من نحت واسع في ان لا نتقلب اوراق بالاصابع تتحرك بينها ولا باللجوء الى الاحرف الاولى من الكلمات.

ولا اريد ان ادلك على غير هذه الحيل فهي تكفيك لتعلم ان عليك ان تعيش حذرا لانه من المؤكد انى اطبق شفتى على الكثير منها. فهـم يسمون عن جـدارة الاستيلاء على المال امانـة والحبلة على الصديق شطـارة ولغموضهـا (4) لا يفهمونها، و مزدوج، مـن يقود السذج لسلـخ جلودهم هؤلاء النشالون، و ابيض مـن سلمـت

(4 أتى المؤلف بجناس في كلمتى revesa ومعناها حبلة و revesada ومعناها غامض.

نبنه وطابت سريرته كالخبز و ،اسود، من خابت آماله واخفقت مساعيه

فبهذه اللغة (5) وهذه الحيل بلغت اشيلية وبمال الرفاق دفعت اجرة البغال ومن نزلاء الفندق كسبت ثمن الطعام ومالا آخر احتفظت به.

وبعد هذا ذهبت لانزل في فندق الموزو فالتقيت بأحد رفقاء الدراسة في القلعة واسمه «ماطاء» وقد استبدل اسمه لاعتباره اياه قليل الرونق باسم ماطورال وكان يتاجر بالارواح وعنده حانوت لبيع المشاجرات ولم تكن تجارته كاسدة وفي وجهه نموذج (6) من بضاعته. وبالطعنات التي تلقاها

---

(5) كان للشطار لغة اصطلاحية خاصة والكلمات التي أوردها المؤلف في هذه القطعة مثال على ذلك. وكانت تسمى germaniá خرمانية وفي معجم اللغة الاسبانية الذي نشره المجمع اللغوي يجد القارئ المعاني الاصطلاحية للكلمات في هذه اللغة.

6) اتى المؤلف بجناس في كلمة cuchillada

كان يقرر اتساع وعمق (...) سبعتها (...) دوره.
ويقول: «لا معلم كالمطعون في وجهه» ونعم القول
لأن وجهه كان كصدرة من جلد وهو نفسه (...)
(...). ودعاني إلى تناول العشاء معه ومع رفاقا
آخرين وأعدائي (...) يحموني للرجوع إلى
الفندق

فذهبنا وإذ بلغنا مثواه قال لي: «انزع عطف
المعطف لتظهر بمظهر الرجولة فإنك (...) هذه (...)
خيرة أبناء اشبيلية واخفض الزيق لئلا يعرفوك متخنثا
وإن ظهرت ولكن معطفك ساقطا - لأننا (...)
نسير ساقطي المعاطف (7) - وإن بحركات عن
يمينك وعن يسارك والفخذ الخاء (...) والهاء خاء (8)

فاستعملها أولا بمعنى مشاجرة ثم بمعنى طعنة
وهو معنى قوله «في وجهه» نموذج من تصاعيفه
(7) تعبير اسباني يقصد به سوء الحال وفيه
أتى المؤلف بجناس بين المعنى الحقيقي والمجازي
(8) منذ أواسط القرن السادس عشر أخذ لفظ
الحرف g حين يتقدم e أو i والحرف j حين يتقدم

u. o. a يقترب من لفظ حرف j بالفرنسية (اي كالجيم العربية) وما عتم ان التبس لفظ هذين الحرفين بلفظ حرف x (وهو كالشين العربية) وبينما كان هذا الابدال يقع في التخاطب بين المثقفين كان لفظ حرف x (اي الشين) بين العامة ينقلب الى لفظ يشبه لفظ الهاء العربية. وكان هذا اللفظ يمثل حينئذ بحرف h فقط في الكلمات الماخوذة من اللاتينية وفيها حرف f او من العربية وفيها الهاء او الحاء. ومع ان هذا الابدال لم يلبث ان عم استعماله فانه في الثلث الاول من القرن السابع عشر (وهو تاريخ وضع هذا الكتاب) كانت المبالغة في اخراج تلك الحروف من ميزات الشجعان في اشبيلية. ويستدل من معلومات كثيرة ان اللفظين كانا مستعملين في آن واحد دون ان يفرق بينهما بصورة فاصلة. ولذا كانت العامة تخبط في هذا الباب خبط عشواء مستبدلة حرفا

و«هامالي» و «هارو» من الشراب(١) فحفظت هذه الكلمات عن ظهر قلبي. واعارني صاحبي خنجراً يصح فيه هذا الاسم لعرضه. واما لطوله فهو اولى ان يدعى حساما. ثم قال لي: «اشرب هذه الزجاجة من الخمر الصافي لانك ان لم تتصاعد من انفاسك رائحة الخمرة فلا تبدو شجاعا» وبينما نحن في هذا وقد تركتني الراح نشوان اذا باربعة منهم قد دخلوا بوجوه كانها قدت من جلد يمشون مرتجحين لا تغطيهم معاطف. وعلى اوساطهم احزمة مشدودة وفوق جباههم قبعات مرفوعة الحافات

بآخر على هواها وذلك امر ثابت ومعلوم في تاريخ التخاطب والمقطع السابق مثال على ذلك.

(١) «خريدا» بدلا من «هريدا» اي مجروحة، و«موخينو» بدلا «موهينو» اي حردان، و«خومو» بدلا من «هومو» اى دخان، و«موهار» بدلا من «موخار» اي ابل، و«هابالي» بدلا من «حابالي» اي العلوف، و«هارو» بدلا من «خارو» اي الابريق وهى مأخوذة من العربية «جرة».

كأنها تيجان تعلو رؤوسهم. وعلى جوانبهم مقابض سيوف قدر ما في دكاني حديد. وقد بدوا مستقيمي العراقيب خافضي الاعين حادي الابصار، مفتولـي الشوارب مقصوصي اللحى. فاتوا بحركة بافواههـم ثم قالوا لصاحبي ـ بصوت حرد مستبقين من الكلمات انصافها ـ «ايها السيد!» فاجاب مدبرى: «ماذا يا رفيقى؟» فجلسوا. وارادوا ان يسألوا عنـى فلم ينبسوا ببنت شفة بل نظر احدهم الى «ماطورالس» وفتح فاه واخرج لسانه واداره نحوي مشيرا الي. فارضاه معلمي بقبضه على ذقنه والنظر الى تحت علامة الايجـاب. واذاك نهضـوا جميعا جذليـن وعانقوني وابدوا فرحا عظيما وانا كذلك فكنت كأني ذقت اربعة اصناف من الخمور.

ثم حانت ساعة العشاء. واقبل للخدمة عـلى المائدة بضعة شطار كبار اسماهم الشجعان «مدافع»(10) فجلسنا جميعنا حول الخوان وجيء بالكبر واذاك

---

10) كلمة cañon ومعناها «مدفع» تطلق في لغة الشطار على «الشاطر المتشرد».

بدأوا بشربون ــ ترحيبا بي ــ نخب شرفي والحق اني ما عرفت قط أن عندى منه هذا المقدار حتى رأيتهم يشربون نخبه ثم حضر السمك واللحم فاكلنا جميعنا بشهية الظمآن. وكان على الارض جرن مملوءٌ خمرا وامامه بنبطح من اراد ان يقابل بالمثل من شربوا نخبه اما انا فاكتفيت بالقارورة وما اتت عليهم دورتان حتى اصبحوا ولا يعرف احدهم الاخر فبدأت الخطب الحربية وترددت الايمان وبين نخب وآخر هوت رؤوس عشرين او ثلاثين رجلا دون ان يترك لهم اجل للاعتراف ووصفوا لصاحب المظالم الف طعنة. واتوا بالحديث على الطيبي الذكر «دومنغو تيثنادو (11)و غايون»(12)

---

11) كان «دومنغو تيثنادو» هذا خلاسيا حرفته صانع معجنات. وقد ذكره كيبيدو في مؤلفه «خاكارا»

12) كان «غايون» احد شجعان ذلك العهد المشهورين ومبتكر طعنة قتالة. وقد ذكره كيبدو في مؤلفات اخرى. وكذلك ذكره لوبي دي فيغا في «مسرحيته «امة مغازلها»

واهرقوا خمرا غزيرا ترحما على نفس «اسكاميا»(13) والذين اثار السكر فيهم الشجن بكـوا من اعمـاق قلوبهم المرحوم «الونصو الباريس» (14) وامام هذه الامور كلها اصيب رفيقي بعطل في عقربي ساعة دماغه واذا به يقبض بكلتا يديه على قطعة من الخبز ويحدق ببصره بالنور قائلا بصوت مازجته البحة: «قسما بهذا الذي هو وجه الله وذلك النور الذى خرج من فم الملاك انه لا بد لنا ان نقضي الليلة على ذلك الجلوز الذي لحق «بالاعور»(15) المسكين» فتعالت اصواتهم بالصياح واخرجوا خناجرهم واقسموا واضعين ايديهم على حافة الجرن ثم ارتموا حوله

---

13) كان اسكاميا واسمه بدرو باسكيس دي اسكاميا سفاكا للدماء مشهورا في ذلك العهد. ومات على اعواد المشنقة.

14) كان «الونصو الباريس» شاعرا وشاطـرا من اشبيلية توفي ايضا فوق اعواد المشنة وقد ترجم له الكاتب الكبير ضون فرنسيسكو رودريغث مارين

15) اشارة الى الونصو الباريس.

يعبون ويقولون: «كما نشرب هذه الخمرة هكذا سنشرب دم كل مترصد» فسألت اذاك قائلا: «من هو الونصو الباريس» هذا الذي عم الاسى لموته؟ فقال احدهم: «هو فتى مكافح شجاع ذو يدين حديديتين ورفيق نعم الرفيق» هيا بنا! فاز الابالسة توسوس لي، وهكذا خرجنا من الدار سعيا وراء جلاوزة نصطادهم واذ كنت مستسلما للخمرة وبين يديها وضعت حواسي كلها لم اشعر بالخطر الذي تعرضت له.

بلغنا شارع البحر، حيث صعدى لنا العسس. فما كدنا نراهم حتى جردنا سيوفنا وهجمنا عليهم. ومثل رفاقي فعلت وفي الصدمة الاولى نزعنامن جسم جلوازين روحيهما الخبيثتين. فولى المامور هاربا في الشارع يصيح مستنجدا ولم نتمكن من اللحاق به لانه سبقنا في العدو فلجأنا اخيرا الى الكنيسة الكبرى حيث احتمينا من صرامة العدالة. ونمنا الوقت الكافى ليتبخر الخمر الذي كان يغلي في رؤوسنا. ولما عدنا الى نفوسنا

هالني ان تكون العدالة فقدت جلوازين والمامور ولى هاربا امام عنقود عنب واذاك كنا نحن ذلك العنقود.

اقمنا في حرم الكنيسة على احسن ما يرام لانه على رائحة المنعزلين اقبلت غادات تتعرين لتلبسننا. وعلقت بي «لاغراخاليس» والبستني جديدا من لون اثوابها. فراق ذلك في عيني واستطبت هذه الحياة اكثر من كل حياة اخرى وعزمت ان اعيش الى جانبها حتى الموت ودرست فنون السفهاء ولم تنقض سوى ايام قليلة حتى كنت استاذ الاخرين. لكن العدالة لم تكن لتتغافل عن طلبنا ولا يبارح رجالها ابواب الكنيسة. ومع هذا كله كنا نخرج بعد نصف الليل مقنعين ونتجول في المدينة دون ان يدرى بامرنا.

ولما رايت ان هذه الحالة قد طالت كثيرا واكثر منها اصرار الحظ العاثر على ملاحقتى قررت ـ لا معتبرا لاني لست عاقل الى هذه الدرجة

بل تعبا كخاطئ عنيد بعد از استشرت لاغراخاليس، اولا في ذلك، ان انتقل معها الى الهند لعلي اذا بدلت موطني ودنياي يحسن حظي، لكن النتيجة جاءت بالعكس. فازدادت حالي سوءاً لانه لن يحسن حالا من يقتصر على تبديل موطنه ولا يبدل حياته وعاداته.

---

(14) راجع الحاشية رقم 1

فهرس

الاخطاء المطبعية
الواردة في الكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
61	9	علهم	عليهم
64	7	اسنانة	اسنانه
82	2	رائحة شم الخنزير	رائحة الخنزير
93	6	ويقولون	وهم يقولون
104	1	وبعد	وبعد هذا
139	2	الخنزير الوحشية	والخنازير البرية
152	3	الحاضر	الحاضرين
196	2	لنا نركب	لنا ان نركب
211	12	فتنقضي	فينقضي
212	1	قبض	حتى قبض
244	10	يضربونه	يضربوه
256	1	الفصل الثاني	الفصل الخامس

صفحة	سطر	خطأ	صواب
266	1	الفصل الرابع	الفصل السادس
268	2	لم نقع	لم تقل
273	14	احداهن	احداهما
296	2	شقائى	شفائى
296	2	العربية	الغربية